المجلس الأعلى للثقافة

بيتر أبراهامز

عامل المنجم

المشروع القومي للترجمة

193

ترجمة : محمد عبد الواحد محمد

المشروع القومى للترجمة

عامل المنجم

تأليف
بيتر أبراهامز

ترجمة
محمد عبد الواحد محمد

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

PETER ABRAHAMS

Mine Boy

هذا الكتاب من أجل داستي

بيد أنه لا وجود لشرق ولا لغرب ، لا لحدود
ولا لأرومة أو منشأ ،
حين يلتقى اثنان من الأشداء وجها لوجه ،
رغم أنهما قادمان من طرفى العالم !

كبلنج

مقدمة المترجم

لماذا ؟

قد يتساءل البعض عن سبب إقدامى على ترجمة هذه الرواية ، بل إن هذا البعض قد يعجب أنى أقدم للمكتبة العربية ترجمة لعمل من أدب إفريقيا السوداء ، وليس عملا من الأدب الغربى ، النموذج والمعين الذى اغترفنا منه ومازلنا نغترف إلى أن يشاء الله .

ولعل من أبرز دوافع إقدامى على ترجمة هذه الرواية : هى أنها واحدة من أولى الأعمال التى لفتت الانتباه إلى نوع الحياة التى يحياها أبناء جنوب أفريقيا السود تحت سيطرة الحكم العنصرى ؛ فهى تعرض لنا عناء المواطن الأسود ممثلا فى بطلها الريفى الذى نزح إلى المدينة بعد أن ضاقت به سبل الحياة فى قريته ، ليعمل فى المناجم ، والعمل فى المناجم قاس ومرير ولا إنسانى ، حيث إن العمال السود هم دون مستوى البشر .

كما أن الرواية تصور من بين ما تصور ، تطلعات السود للحصول على وسائل حياة البيض ، وتشبثهم باتباع نمط معيشتهم ، وما يؤديه العجز عن تحقيق هذا من تمزق وتدمير نفسى . وصور التمييز والتفرقة هنا متعدد ، ولها صور مقززة تشمئز منها النفس وتثير فيها السخط .

لكن المؤلف هنا كـــان منصــفًـــا حين يبين لنا أن من بين هؤلاء العنصريين ، أناس يتعاطفون مع المواطن الأسود ، بل ويقفون إلى جانبه يبصرونه بآدميته ، ويدافعون عنه حتى لو أدى بهم ذلك إلى المهالك .

والأدب الإفـريقى أدب ثـرى ، لا يـقـل ثراء إن لـم يـزد عـن الأدب الغربى . ففضلا عن رسمه صورا للمعاناة التى لقيها السود على يد المستعمرة ، هناك صور لمعاناته من الحكم المطلق الذى قبض على زمام الأمور عقب جلاء المستعمر ، والذى كان يتم بتخطيط منه لأغراض لا مجال هنا للتعرض لها . ونحن نرى فى بعض الأعمال صور الفساد الذى زرعته الانقالات العسكرية ، والاضطراب والقتل والدمار والويلات التى وقعت من جراء الصراع القبلى ، والحروب الداخلية . ثم نحن نرى من وراء ذلك كله بانوراما للعادات والتقاليد وأنماط السلوك وسبل الحياة التى تأخذ باللب وتثير الاهتمام وتصلح مادة للدراسة والبحث .

من هنا كـان عشـقى للأدب الإفريقى وهـو عشق متـوهج لا يخمـد له أوار . وبسبب هذا العشق أقدمت على ترجمة هذا العمل ، وبسببه أيضا فــإنى دائـم الحلـم أن ينال هـذا الأدب اهتـمـــام الأدبـاء والـدارسين والأكاديميين منهم بوجه خاص .

فهل يتحقق الحلم ؟

محمد عبد الواحد محمد

القاهرة يناير ٢٠٠٠

- ١ -

من مكان بعيد مجهول انتهى إلى سمعه رنين دقات ساعة . وأصغى الرجل الضخم . دقة . . دقتان . . ثلاث دقات . . هى إذن الثالثة صباحاً . ونقل الصرة الصغيرة من يمناه إلى يسراه ، ورفع بنطلونه واستمر سائراً فى الشارع الضيق .

ودارت برأسه الهواجس . . الشارع ضيق مظلم ملىء بالألياف . مالى كامب هذه كلها إذن مليئة بالأطياف . وراح يسائل نفسه . . أين أنا ؟ . لقد غم عليه الأمر وفقد القدرة على تحديد الاتجاه . ولكن لا يزال هذا الشارع جميلا كغيره من الشوارع الأخرى . ثم لمح امرأة عند بوابة ، وكان من الممكن أن يمضى دون أن يراها لأنها كانت تبدو وكأنها جزء من البوابة المعتمة ، لولا أنها سعلت وتحركت . فدنا منها وقال : "أختاه . . ألا تعرفين مكانا يستطيع الواحد أن ينام فيه وربما يصيب شرابا إذا أمكن ؟ وكان صوته خفيضا أجشا .

وأجابت المرأة : "الوقت متأخر"

فقال : "متأخر جداً"

وقالت له : "أشعل ضوءا لأتبين وجهك" .

- ليس معى ثقاب .

- وماذا معك إذن ؟ .

- لا شى .

- وتريد مكاناً تنام فيه وتشرب والوقت متأخر جدا ؟ .

- وأحنى الرجل رأسه ، ولكن المرأة لم يكن باستطاعتها أن تراها في الظلام .

- أمعك نقود ؟

- كلا .

- آه . . أنت رجل غريب . ما اسمك ؟ . أنت جديد هنا ؟ .

- اجزوما ، قادم من الشمال .

- حسن يا اجزوما يا قادماً من الشمال . انتظر هنا ، سوف آتى بضوء . وقد تتمكن من أن تنام هنا وتصيب شرابًا وقد لا تتمكن . ولكن ابق هنا .

ورأى الطيف يتحرك لكنه لم يسمع صوتاً . وأخذ يحدق النظر في ظلام البوابة ، لكن لم يكن ثمة شيء يرى سوى جدار من سواد .

ونقل الصرة من يمناه إلى يسراه . وكانت رجلاه تؤلمانه من التعب ، وشعر بنبضات متلاحقة في رأسه كانت تسرى إليها من خواء معدته . وشعر بثقل لسانه لمسيس حاجته إلى الدخان والشراب . وظن . . ربما - ولكنه لن يترك العنان لظنونه ، الأحمق هو من يكسر بابًا وافق صاحبه على فتحه . وجاءه صوت المرأة .

- حسن يا اجزوما يا ابن الشمال ، سأسلط عليك الضوء ، ولكن حاذر منه على عينيك فهو ضوء باهر .

وحدث نفسه والبسمة ترتســم على شفتيه . لقد عادت المرأة دون أن يلحظها كـما لو أنها كـانت شبحا . ثم قـال لنفسه إن لهـا صوت إنسان قوى .

- أشعلى الضوء .

وسلط شعاع مـن كشاف قوى على خصـره ، وتباطأ لحظه ، ثم زحف هابطًا إلى قدميه ، ومن قدميه أخذ يتحرك صاعدًا بوصة بوصة يستعرض هيئته العامة .

لقد بـدأ الشعاع بحـذاء تنس كبـير وقـديم ثبت بقطع من دوبار وسلك ، وشوهدت أصابع القدمين بارزة رغم هذا الدوبار والسلك . وتصاعد الشعاع إلى بنطلون مغـبر حائل اللون قديم ممزق عند الركبتين بدأ كما لو أنه سوف يتمزق عند الخصر لضيقه الشديد . وفوق الصدر الضـخم والكتفين العـريضين التصـق بصـورة مريعـة قـميص ضـيـق مهلهل . وعلى الوجـه العريض ذى السحنة الطيبة تـباطأ الضوء برهة قصيرة ، ثم انتقل إلى اليد اليمنى التى تحمل الصرة الصغيرة ومنها إلى اليسرى الفارغة ، ثم انطفأ الكشاف فجأة وبقى اجزوما فى الظلام .

وقالت المرأة بنعومة : "حسن جدا ، يمكنك الآن أن تحصل على مكان تنام فيه وتشرب . تعال يا اجزوما يا ابن الشمال " .

وتوقف اجزومـا فى الظلام مترددا ، فصـدرت عن المرأة ضحكة فى صوت جهير عميق وقالت :

- رجل ضخم وقوى وتخاف .

- الدنيا ظلام يا امرأة .

- ومرة ثانيـة انبعث الضوء ولكنه بقى فى هـذه المرة مسلطًا على الأرض على بعد بضع ياردات منه .

وكررت المرأة قولها : " أقدم يا رجل " .

وسار اجزوما على هدى شعاع الضوء

وقالت المرأة : وقد دفعت بابًا فانفتح : " ادخل هنا " .

وتبعها اجزومـا إلى الغرفة فأغلقت الباب وقادت خطاه نحو غرفة أخرى ، وكـان بها ضـوء وثلاثة رجال وامرأة عـجوز جـالسين حول منضدة وأمامهم وعاء جعة كبير .

وقالت المرأة : هذا اجزوما من الشـمال . أنه منهك وجوعان . قدمى له طعاما أيتها الأم بلانك . اجلس يا اجزوما " .

وتأمل اجزوما المرأة . كانت طويلة وضخمة ، تكسو جلدها تلك الصفـرة الرقيـقة التى تكسـو جلود نسوة باسـوتو . وكان لهـا عينان سوداوان نفـاذتان . وأقر رأيه على أنهـا امرأة قوية وأن هاتـين العينين تستطيعان النفاذ تماما داخل الانسان .

وسألها : " بماذا يسمونك » ؟ .

وابتـسمت المرأة ، ولاحظ اجـزومـا أن ناحيـة واحدة فـقط من وجهها تتحرك وهى الناحية اليسرى .

وردت تقول : " لياه " .

لكـن واحـدًا مـن الجـالسين سأل اجـزوما : " ومـاذا يعنيك من اسمها " ؟ .

والتفت اجزوما إلى الرجل . كان طويلا نحيلا وكان أصغر من فى الغرفة . يلتوى فمه بشدة ، ويحملق غاضباً فى اجزوما .

وسأل اجزوما المرأة : " من هذا ؟ " .

- هذا النفر هو "دلادلا" ، وهو يعتقد أنه قوى وقادر على التلاعب بالكسين لكنه أحمق .

وقال أكبر الجالسين سنًا حول المائدة : " هوو ! وربة البيت تصطحب الأحمق إلى المخدع "

وانفجر ضاحكا يقرقر كالديك .

وابتسمت لياه قائلة : " أجل يا دادى . . ولم ينبغى على الأحمق أن يرضى ربة الدار ! " .

وازدادت قهقهة دادى واهتزت جوانحه ، واغرورقت عيناه بدموع سالت على خديه ، ولهثت أنفاسه لفترة وجيزة ، ثم اندفع دلادلا بشدة فأصابت قبضته جانبًا من رأس دادى جعلته يتطاير إلى أحد الأركان ، وتقدم اجزوما خطوات ورأى السكين فى يد دلادلا ، فوضع صرته على المضدة بحذر ودار حول المقعد المستطيل . ورفع دلادلا السكين وكشر عن أنيابه ، وراح كل منهما يرقب الآخر . وخيم الصمت على الغرفة ، ونسى دادى ما أصاب جانب وجهه من ضر ، وحدق فاغر الفم بعينين تتابعان فى تراقص مشهد العراك المفاجىء . وبدخول الأم بلانك إلى الغرفة تحمل الطعام الذى أمرت لياه بإعداده لاجزوما انفغر فوها ثم انغلق ثانية وعادت أدراجها إلى المطبخ .

وفى لهجة آمرة قالت لياه : " أعطنى هذه السكين " .

فنظر دلادلا إليها ثم إلـى اجزوما ثم إليها ثانيـة وقال وفى صوته رنة التماس : " كلا "

فقالت لياه : " هاتها " . وكان صوتها هذه المرة قاسيًا .

فما كان من دلادلا إلا أن غض البصر وناولها السكين .

- ليجلس كل منكما .

ومن ركنه بصق دادى وقال فى مرارة : " النساء دائما ما يفسدون العراك الممتع " .

ونادت لياه : " أيتها الأم بلانك . . أحضرى الطعام " .

وتساءلت الأم بـلانك دون أن يرى وجـهها أحـد : " هل أنتهى القتال ؟ " .

فقـال دادى : " ثمة عراك آخر " ويصق ثانيـة وأسند ظهره إلى الحائط وأسلم نفسه للنوم .

وحين وضعت العجوز الطعام أمـام اجزوما قالت لياه : " كل " فتطلع إليها وراح يتناول الطعام .

وتساءلت ليـاه وهى تتطلع إلى الآخريـن كل بدوره : " أأعددتم الجحور بطريقة سليمة ؟ " .

وأومـا الجمـيع واحدًا واحـدًا . ثم نظرت إلى فم دادى الفاغـر وندت عنها ابتسامة ساخرة وسألت :

- وحجره ؟ .

وأومأت الأم بلانك برأسها .

فقالت لياه : " يمكنكم إذن أن تناموا " .

وانصرف كل من دلادلا والأم بلانك ولم يبق سوى الرجل الذى كان صامتًا طوال الوقت ، ونظر إلى لياه ثم إلى اجزوما .

وسألته لياه : " ماذا بك ؟ . " .

وسألها الرجل بدوره : " كيف نعرف أنه ليس من رجال الشرطة ؟ " .

وأجابت لياه مبتسمة وقد تغضن كل وجهها : " أنا أعرف " .

فأومأ الرجل برأسه ، وفجأة مد يده إلى اجزوما ، فتصافحا ، ثم انصرف .

وتساءل اجزوما : " من الرجل ؟ " .

وأجابت لياه : " إنه شقيق رجلى " .

- رجلك ؟ .

- نعم .. قالتها وقد خبا بريق عينيها وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة . وحين تأملها اجزوما بدت وكأن وجهها أصبح أشد وهنًا . لم يعد بعد ذلك الوجه القوى ، ولم يكن لعينيها تلك النظرة الحادة .. كانتا مجرد عينى امرأة .

وفى هدوء كررت قولها : " أجل ! رجلى .. إنه فى السجن .. هو هناك من عام مضى .. وعليه أن يبقى هناك عامين آخرين . لقد قتل رجلا .. رجلا ضخما كبير الفم حاول تقبيلى .. إنه قوى .. أعنى رجلى .. هو يقاتل من أجل امرأته .. ويقتل من أجلها .. ليس مثل دلادلا .. جعجاع .. يحمل مدية .. ولا شىء سوى ذلك .. إنه رجل .. أعنى رجلى .. أنت نفسك رجل يا اجزوما . إنك قوى .. ولكن رجلى يمكنه أن يحطمك كما يحطم عصا . لست أكذب ، ويمكنك أن تسأل عنه الناس " . وتوقفت عن الحديث واختفت عن الوجه رقته ، وعادت إليه صرامته السابقة ، ونظرت إلى اجزوما وابتسمت فى سخرية . ومن الركن علا شخير دادى .

- هذا الرجل دلادلا .. ماذا يعنى بالنسبة لك ؟ .

وضحكت من أعماقها وقالت : " امرأة تشعر بالحنين إلى الغزل .. وهذا كل ما فى الأمر . والآن يا اجزوما ماذا تنوى أن تفعل ؟ " .

- جئت لأعمل . لا يوجد عمل فى المكان الذى قدمت منه ويقال فى هذا المكان عمل كثير .

- وأين ستعمل ؟

- فى المناجم ، فهذا هو عمل الرجال .

وهزت لياه رأسها وصبت لنفسها كأسا ثم قالت :

- ليست المناجم بالعمل الجيد يا اجزوما ، ستصاب بالسعال فيما

بعد ثم تبصق دما ، ثم تضعف وتموت . لقد شاهدت ذلك مرات عديدة . أنت اليوم شاب وقوى . . ولكن فى الغد ستصير هزيلا ومهيأ للموت .

- كل الشغل على هذا المنوال .

- لا . . اسمع يا اجزوما ، إننى معجبة بك ، وبإمكانى أن أجعل منك إنسانا قويا ذا نفوذ . فأنا هنا ذات نفوذ . ولو أصبحت رئيس عمالى فستكون أيضا قويا . عندما أقبلت ولقيتنى فى الخارج كنت أرقب الشرطة ، لأن هؤلاء الرجال كانوا يدفنون جعة فى باطن الأرض . إنها عملية تدر مالا كثيرا ، وربما كان بإمكانك أن تعمل معى . . هيه ؟ .

ولبرهة كبيرة أخذ كل منهما يتطلع نحو الآخر . وأخيراً ابتسمت لياه ابتسامتها العريضة وهزت رأسها وقالت :

- لا . . حسن إنك إنسان يتمتع بغباء الرجال . تعال . . سأريك المكان الذى يمكنك أن تبيت فيه .

فقال لها : " ليس معى نقود " .

- إنك قوى ، ولسوف تشتغل ثم تسدد لى فيما بعد ، هيه ؟ .

- أجل .

وقد أحتاج فى بعض الأحايين إلى رجل قوى ، ولسوف تقدم إلى يد العون .

- ربما .

ثم قالت وهى تدلف إلى حجـرة صغيرة : " هنا . . هذا مكان تقيم فيه المدرسة ، ولكنها لن تأتى إلا بعد الغد ،ويمكنك أن تبيت فيه . وحين تعود سنفكر فى مكان آخر " . وأشعلت عـود ثقاب أوقدت به الشمعة ، ثم قالت وهى تتجه ناحية الباب : " أصغ إلىَّ يا اجـزومـا يا ابن الشمال . . لا تظن أننى أفـعل ذلك لأننى امرأة لينة أو سهلة ، وأنك تسـتطيع أن تغشنى ، لأنك لو فـعلت هذا فسـأمزقك بـصورة تبغض فيك أمك . . " .

وضحك اجـزوما وقال : " إنك امـرأة غريبة ولست أفـهمك . لكن الشىء الوحيد الذى أدركه هو عطفك " .

وقـالت برقـة : " أنت مـحق ، لكـن المدينة مكان غـريب . . طابت ليلتك " .

وانصرفت المرأة وأغلقت الباب وراءها . وفى تثاقل خلع اجزوما ملابسه وشعر الآن أنه أحسن حالا بعد تناوله الطعام . بيد أنه كان فى شـدة الإجـهاد ، ومـع ذلك اسـتعـصى النـوم عليـه حين أوى إلى الفراش . وأخـذ يفكر . . هذه جماعة غـريبة من الناس . . لا شىء يربط بين أفرادها . . وهم فيـما يبدو لا يؤمنون بشىء . ولكنهم على أية حال منحوه فراشًا لينام . هى الـتى أعطته إياه . وهى أشد الجميع غرابة . . وفى الغرفة الأخرى كـان الرجل العجوز الذى يسمونه دادى نائمًا قبالة جدار فاغر الفم دون غطاء . ولكن الحياة غريبة . . وهؤلاء الناس هم الحياة . . بالطبع .

- ٢ -

كانت الشمس قد اعتلت الأفق حين استيقظ اجزوما من نومه ، وظل ساكنا فى فراشه برهة من الوقت يصيخ السمع ، بيد أن الصمت كان يخيم على البيت .

" ينبغى أن أنهض " . . وتثاءب وعاد يلتف بالبطاطين ، ولكنه تذكر أنه فى بيت غرباء ، فدفع عنه البطاطين ، وهمس لنفسه حين وقف لا يحمل فوق جسده سوى قميص واحد . . يجب ألا يدخلوا الآن ، ولبس بسرعة فلم يكن لديه ما يستغرق ارتداؤه وقت طويل ، اللهم إلا أن يلبس بنطلونه فى غمضة عين .

وفتح الباب ووقف يتنصت . . فى مكان ما من البيت منبه يدق . . تيك . . توك . . تيك . . توك . . ولا شىء غير هذا . وصاح "صباح الخير " . . ولم يجبه أحد . فصاح بصوت أعلى قليلاً " صباح الخير " ولم يكن ثمة سوى الصمت . وصرخ : " يا هوووو " وطنت نحلة عبر الباب ودارت حول رأسه فهشها ، لكنها لم تبتعد واقترب طنينها أكثر . . هذه الحشرة الحمقاء ستلدغنى . . واتخذ قرارا ، وأسرع بالخروج من الحجرة وأغلق الباب على النحلة .

كان البيت خالياً فذهب إلى الفناء من خلال المطبخ ، وعندئذ سمع أصواتا آتية من الشارع ، فذهب إلى البوابة وأطل منها فرأى فى الشارع جماعة من الناس تحلقت فى دائرة ، ووسط الحلقة كان العجوز

دادى يحجل ويصيح بأعلى صوته ، يداه ترفرفان فى الهواء ، وهو يتواثب يؤدى رقصة حرب قديمة ، ويردد صيحات معركة موغلة فى القدم . وابتسم اجزوما وانطلق يشق طريقه بين الحشد .

كان على الأرض امرأتان ملونتان اشتبكتا فى عراك ، والحشد يراهن على من تكون لها الغلبة . وكان معظم الناس يشجعون المرأة النحيلة السمراء والتى كانت تشبه الهنديات ، كما كانوا يناودنها باسم لينا . أما الأخري البدينة الشاحبة فكانوا ينادونها بالسكيرة ليزا ، وبدوا أنهم لا يحبونها .

وكانت المرأة البدينة تعلو المرأة النحيلة وتجثم فوق صدرها ، إلا أن المرأة النحيلة تمكنت منها بالإمساك بشعرها وجذبه . وانسابت الدموع من عينى البدينة ، وقد انحنت رقبتها إلى الخلف من جراء جذب شعرها البنى الطويل .

وصاح دادى : " شديه يالينا . . شديه " ثم تدحرج فى اهتياج تجاه قناة مياه الصرف .

وراحت النحيلة تشد . . وتراخت قبضة البدينة التى كانت تمسك برقبة النحيلة وارتدت عن صدرها . وحين ارتمت على الأرض تعرت ثيابها وبدا لون جسدها الشاحب . وأشاح اجزوما بوجهه . وصخب الحشد ، وتمدد دادى فى قناة الصرف وهو يقرقر ضاحكا ويرفس برجيله فى الهواء ، والدموع تنهمر من عينيه . ولما عاود اجزوما النظر رأى المرأة النحيلة تعلو البدينة ، يسراها فوق رقبتها ويمناها خلف ظهرها تبحث عن فردة حذائها ، وحين وجدتها رفعتها عاليا ثم هوت

بها على رأس البدينة ولما رفعتها مرة أخرى كان الدم ينبثق من رأس البدينة . وبصوت خفيض صب اجزوما لعناته ، ولم يتمالك دادى نفسه ، فحك رأسه في الرصيف وصخب الحشد مرة أخرى . وشق اجزوما طريقه بين الحشد يريد الابتعاد عنه ، ذلك أنه أحس بثقل غريب يجثم فوق قلبه .

وصاح صوت غطى على هدير الحشد : " كفى ! " . والتفت اجزوما يستطلع مصدر الصوت . لم يكن صاحبته سوى لياه . وأفسح الحشد لها طريقا ، فمشت بينهم دون أن تلتفت يمنة أو يساره ، إلى أن وقفت على رأس المرأتين المتعاركتين . وكانت عيناها متقدتين ، وذراعاها عارتين . وانحنت ورفعت المرأة النحيلة كما لو كانت ترفع طفلاً صغيراً ، وألقت بها بعيداً عن المرأة البدينة .

وتذمر بعض نفر من الحشد فطوحت لياه برأسها إلى الوراء بسرعة وابتسمت ساخرة ، واتقدت عيناها ازدراء وهما تدوران بين الحشد وقالت بهدوء :

- إني أسمع أصواتا ، دعوني أسمعها مرة أخرى . . أريد أن أعرف أصحابها .

وانتظرت . . ولكن لم ينبس أحد ببنت شفة .

- آه . . إنهم إذن يصمتون . . لا بأس . . لكن لو أراد أحد ، رجلا كان أو امرأة ، أن يتعارك أو يشهد عراكا أمام بيتي فأنا لها . ثم واصلت حديثها وهي تضرب صدرها بقبضة يدها " تعالوا تعاركوا معي " .

وفى صمت انفض الحشد وأخذ يزحف مبتعدا . ونهض دادى واقفا يترنح من السكر .

وجلست المرأة البدينة الشاحبة وهى تمسك برأسها التى تنزف ، وكانت مفيقة ، وعلى مسافة قريبة منها كانت المرأة النحيلة تتكىء على جدار .

وصاح دادى جذلا وفى صوت جلجل وهو يشير إلى المرأة النحيلة : " أنظرى . . إنها تهذى " .

وكان فمها ينفتح ببطء ، وسيل من لعاب ينساب منه على ملابسها كما كان جسدها ينتفض ، وانقبضت يداها انقباضًا شديدًا ، وفى بطء أخذت تنزلق إلى جوار الحائط إلى أن تمددت على الرصيف . ولمعت عيناها ، ولولا رعدة فى جسدها لبدت فى رقدتها وكأنها فارقت الحياة . وبصقت لياه فى اشمئزاز وانتشلت المرأة النحيلة الهاذية وحملتها إلى الفناء ، وتبعها اجزوما ودادى .

وقالت لياه : " أحضروا لى زكيبة " .

وقام دادى بإحضار الزكيبة وفرشها على الأرض فى الظل ، ووضعت لياه المرأة فوقها واتجهت إلى بوابة الفناء وقالت فى غلظة للمرأة البدينة :

- فيم جلوسك هناك ؟ ادخلى واغسلى رأسك الغبى هذا من الدم .

ودخلت المرأة البدينة الشاحبة وغسلت رأسها تحت الصنبور ، وملأت لياه كوزا مياه بارد وراحت تصبه على وجه المرأة الهاذية فارتجفت فى تشنج وأغلقت فمها ، وبدأت رعدتها تخفف تدريجيا .

وتساءل اجزوما وهو ينظر إلى المرأة الهاذية : " أهى مريضة جدا ؟ " .

وهزت لياه رأسها ومطت شفتيها قائلة : " ستظل على هذه الحال ولن تفيق ثانية يومًا واحدًا فقط .

هذه المرأة طيبة .. وهى تشبه دادى ، تعانى من الحياة وتريد أن تسلوها . ولكنك أنت .. كيف حالك الآن ؟ . هل أصبت طعاما ؟ " .

- كنت نائما ، وحين استيقظت لم يكن بالبيت أحد ، ولهذا خرجت فشاهدت هذا العراك .

ولكن قولى لى .. هل دادى دائما على هذه الحال ؟ إنه يحب العراك فهل هو قادر على ذلك ؟ .

- سنتناول الطعام أولا ثم نتحادث . وربما يصحبك جوزيف فيما بعد ليريك المكان ، هيه ؟ .

وتبعها اجزوما إلى داخل البيت وجلس يراقبها وهى تعد الطعام .

ورغم كل ضخامتها كانت تتحرك فى خفة ورشاقة . إنها امرأة فارعة قوية ذات ردفين ثقيلين مكتنزين . وبدا لاجزوما ثانية أنها مجرد امرأة عادية حين انحنت فوق الموقد لتطمئن إلى أن اللحم لم يحترق . وكالليلة الماضية أخذت تتحدث عن رجلها الذى سجن لقتله رجلاً ثرثاراً حاول مغازلتها . هذا المرأة تستعصى على الفهم وهز رأسه .

ونظرت إليه وقالت : " ماذا بك ؟ " .

- لا شيء .

- لم تهز رأسك ؟ أراك تنظر إلـى ثم تهز رأسك . إنك تظن أن هـذه المرأة غـريبة . إنهـا صـارمـة والناس يخشونها ، وبالـنسبة إلى هى .. طاهية .. هيه ؟

- أجل .

وضحكت .. وكان ضحكها شيء ما يتسم بالدفء وقالت :

- وأنت تظن أنها ربما تحبنى . هيه ؟ .

- نعم .

- حـسن ، ربمـا أحب ، أجل .. ولكنك قـد لا تفـهم كـيف أحب . وربمـا تدور برأسك الظـنون إننى أود أن تمضـى مـعى إلى الفراش ، هيه ؟

وضحك اجزوما ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

- أجـل أسـتطيع أن ادرك ذلك . ولكن أنصت إلـى يا اجـزومـا يا ابن الشـمال .. إنك طفل مع الـناس ، ويمكننى أن أكون لك أمّـاً أحميك منهم . والآن عليك أن تنصت إلى ، فقـد تفهم وقد لا تفهم ولكن لابد أن تصـغى . إننى أحـبك لأنك فـى هذا المكان وإن كنت لست فـيه .. لا ، أنت لا تفـهم . إننى فى هذا المكان .. فـاهم ! خرجت من بين أهلى ، ولكنى لم أعد بعد واحدة من هؤلاء الأهل . وهكذا الحال فى المدينة ، وأنا هنا منـذ سنوات طويلة .. المدينة تجعل منك إنسانا غريباً عن طريقة حياة أهلك ، فاهم أنت ؟

- نعم ، نعم . أنا فاهم .

- جيد . . فلتأكل الآن .

ودفعت بصحن طعام أمامه ، وغرفت صحنا آخر لنفسها وجلست قبالته .

- إنك واحد من أهلى .

- لا . . أهلك لابد وأن يكونوا من الجنوب .

- أنت لا تفهم . اصغ إلـي ، أنت من الشمال وأنا من الجنوب ، ولكن الناس هم نفس الناس ،هيه ؟ .

وأومأ اجزوما مرتابا .

- إنك طفل . ولكن اسمع ، لأهلك ولأهلى قانون قبلى وعرف قبلى . . تمام ؟ .

- نعم .

- أنت قادم من هناك وتحمل معك أساليب شريعتنا ولهذا أحبك ، ولكن هذا لا يعنى أننى أريد أن أذهب معك إلى الفراش . أوه . . لا . . ولسوف تنشأ مشكلة إن أنت أسأت الفهم . وليس فى وسعى أن أجعلك تفهم ، ولا فائدة من هز رأسك ، أنا أدرى أنك تفهم ، ولكنك ربما ستفهم فى وقت ما ! .

وفرغا من الطعام ، وأخذت لياه الصحنين وغسلتهما وجففتهما ، ثم رأت دادى فى الفناء فنادته :

- داداى ! تعال هنا .

وقطب دادى وبصق : " ماذا دهاك يا امـرأة . . ألا يمكن لإنسان أن يعيش فى هدوء دقيقة واحدة ؟ " .

- دادى ! تعال هنا .

وأقبل مخموراً يترنح .

- احك لاجزوما عن العرف والمدينة .

- هيه ؟ وترنح من جانب لآخر .

- احك له من العرف والمدينة . لقد رددت عـبارتها ثانية فى أناة وهى تعينه على الجلوس على مقعد .

وهمهم : " العرف والمدينة " . ثم لمعت عيناه وابتسم : " العرف والمدينة . . آه . . آوه . . نعم . . الحـديث عن العـرف والمدينة أمـر مضحك يا اجزوما ، مضحك جداً ، عليك فقط أن تنصت " .

ونهض وافقا وأخذ يتمشى فى الغرفة جيئة وذهابا ، وفرك يديه ، وابتـسم فى مكر ، ولعق شفـتـيه ، ورفع إحـدى كتـفيـه ، ثم رفع الأخرى ، وقـال : " مضحك جـداً . . جاءت المدينة ذات يوم تزور العرف يا اجزوما وكان العرف كريما . قـدم للمدينة طعامًا ، وقدم لها جعة ، وقدم لها فتيات جميلات . . " .

فقاطعته لياه : " لا يادادى " .

فقال دادى بحزم : " اهدئى يا امرأة " .

فابتسمت لياه .

- كما كنت أقول .. قدم لها فتيات جميلات . ثم ماذا تظن بعد ذلك ؟ إنه شيء لا يصدق . لم تتفوه المدينة بكلمة واحدة . لم تقل " كلا ، شكرا " ولم تقل " أشكر لك " . وقال الناس " آه .. سيصبح الآن كل شيء على ما يرام ، فالعرف والمدينة صديقان " أحم أحححم . قالوا ذلك وانطلقوا إلى الحقول ليعنوا بمحاصيلهم . وحين كانت الشمس تميل نحو الغروب عادوا وأخذوا يبحثون عن جعتهم ، ولكن جعتهم ولت ، فراحوا يبحثون عن العرف ، ولكنه ولى هو الآخر .

وكنت المدينة هناك تسخر منهم . وهم الآن يساقون إلى السجن لو احتسوا جعة . وهذا هو سبب حبى للجعة .. أمر مضحك جدا يا اجزوما . حسن .. هذه هى كل الحكاية وأنا أريد أن أنصرف لأنام .

وانصرف دادى يتعثر فى مشيته ، ودار حول البقعة التى رقدت فيها المرأة النحيلة الملونة وقد زال عنها هذيانها . وكانت المرأة البدينة الشاحبة قد انضمت إليها . لقد رقدت المرأتان اللتان تشابكتا من قبل فى عراك عنيف - جنبا إلى جنب على قطعة الخيش .

وزعق دادى : " لا يجود مكان هنا " .

فخرجت لياه بزكيبة أخرى وفرشتها له على بعد قليل من المرأتين وتمدد دادى على ظهره وابتسم لها ثم قال بصوت أجش :

- أحبك يا لياه .

وأجابت هى : " أحبك يا دادى " .

فقال لها بطريقة عدوانية : " إذن قبلينى " .

فجثت لياه على ركبتيها وقبلت جبهته . وحين نهضت كان هو قد استغرق سريعا فى النوم . ورفت على شفتيها ابتسامة سرعان ما اختفت . ووقفت تتأمله لحظات ، ثم استدارت ودخلت الدار .

وقال لها اجزوما : " إنك تحبينه " .

فردت بحسم ورنة غضب تبين فى صوتها : " وما يعنيك من هذا الأمر ؟ " .

فنظر إليها اجزوما فى صمت ، ومرقت هى من أمامه وذهبت إلى غرفة أخرى . وأخذ هو يصيخ السمع إلى صوت تحركها تروح وتجىء تلتقط أشياء وتزيح أخرى ثم أخذت تدندن . . وعرف هو الأغنية . إنها أغنية المطر . وراحت تغنى :

أماه إنها تمطر
وأنا سوف أبتل
حزين وموحش
وأنا سوف أبتل
أماه إنها تمطر
وأنا سوف
سوف أبتل

كـان فى صوتهـا حزن ظاهر . وخـرج اجزومـا إلى الفناء وراح يتأمل النائمين الثلاثة . ومن الدار وصل إليـه صوتها . ولكن الأغنية هذه المرة كانت مرحة مفعمة بالضحك والسعادة .وكان الضحك يطغى على صوتهـا وهى تغنى . وكانت الأغنيـة عن شاب مـختال مـغرور وقف وسط بنات يحـدثهن عن مدى عظمـته وروعـته ظانًا أنه وسـيم للغاية ، فمـا كان من البنات إلا أن نصبن له شركا فـى إحدى الليالى جعله يـركض خمسـة أميـال ، ومنذ تلك الليلة والبنات يسـخرن منه دائما .

كانت أغنية بها أبيات مليئـة كلها بالضحك والسخرية من الشاب المختـال . وابتـسم اجزومـا وأومأ برأسـه . . لقـد وصفـت الشـاب بصدق . . ذلك المختال .

ثم توقف غناؤها . . وسمع صوتها ينادى : " اجزوما "

ورد اجزوما : " نعم ؟ " .

وكانت لدى ليـاه جوزيف شـقيق رجلها ، ونظـر إليها اجـزوما فابتسمت له ، ولم يبد فى عينيها أثر لغضب .

- سيأخذك جوزيف ليريك المكان ، فاليوم هو السبت ، ولسوف يأتى زبائن كثيرون وربما تأتى الشرطة كذلك ، ولهذا سنكون منشغلين خذ هذه النقود . . تستطيع تناول طعـامك فى أى مكان ثم تعود فيما بعد . . هيه ؟ .

وسأل جوزيف : " من سيعاون فى البيع ؟ " .

- هاتان النائمتان ودادى والأم بلانك ، واتفقت مع اثنين وهما قادمان . ومن الأوفق أن تنصرف يا جوزيف ، فلو قبضوا عليك ثانية فلن تكون ثمة غرامة . ثم ابتسمت له .

وأومأ هو برأسه وانصرف خارجا يتبعه اجزوما .

وصاحت لياه وهما يتجهان إلى نهاية الشارع : " اعتنيا بنفسيكما "

وضحك جوزيف وهو يلتفت وراءه وقال لاجزوما : " إنها امرأة طيبة " .

وأومأ اجزوما برأسه وهو يشاهد الشارع المزدحم .

وقال جوزيف : " الحال هكذا دائما أيام السبت . فى جيوب الناس نقود تجعلهم يدورون فى الشوارع وينفقونها . . وهكذا السبت هنا"

كان المشهد عاما فى كل الشوارع ، جميعها مزدحمة ، مجموعات من الرجال والنساء تلف هنا وهناك . إنه السبت .. نصف عطلة قومية لمواطنى جوهانسبرج السود . وشارك مالاى كامب فريديدورب شرف كونهما المركزين الاجتماعيين الرئيسيين .

وكان الناس فى الشوارع يتكلمون بأصوات مرتفعة ويخرجون أكياس نقودهم من جيوبهم يعدون ما فيها من نقود ليراها الآخرون . وكانوا يرتدون أحسن ثيابهم وأكثرها غنى بالألوان .. كانوا يرتدون قمصانًا حمراء وخضراء وصفراء وقرنفلية .. وبنطلونات واسعة الأرجل تزحف على الأرض .. وسترات محكمة لا تتدلى أبعد من خصورهم .. وأحذية مستدقة البوز .. كما لم يرتد آخرون سوى

(فـانلات) دون أكمـام وبنطلونات يستـعـرضـون رجولتـهم . وكـانوا رجـالا .. هؤلاء .. كانوا طوال القامة ، صدورهم بارزة وعلى العيون ارتسـمت بسمـات ثقة فى النفس ، ولم يكـونوا يفسـحون الطـريق لأحد ، وإنما يجـبرون الآخرين على إفسـاح الطريق لهم .. اللهم إلا إذا التـقى رجل ضـخم يرتدى (فـانلات) برجل آخـر ضـخم يرتدى (فانلات) مثله ، فإن كـلا منهما يتنحى جانبا للآخـر ، ويحملقان فى بعضهما البعض ككلبين يتناوشان ، استعداداً لأن ينقض كل منهم على الآخـر . وكان هؤلاء يطلق عليـهم الرجـال الأقوياء فى فـريديدورب ومالاى كامب ، وأحيانا ما كان يصارع بعضهم البعض لتحديد الأقوى من بينهم . وكـانت الطريقـة هى أن يتصـارع اثنان ، فاذا مـا انتصـر أحـدهما يصـارع آخر ثم آخـر وهكذا يستـمر الحـال إلى أن تنحسـر التصـفيـة على اثنين ، وهنا يكون الصراع الـكبير ، والفـائز فى هذا الصراع يكون هو أقوى الأقوياء . ولقد فقـد الكثيرون حياتهم فى هذه المعارك ، ذلك أنهم كـانوا يتقـاتلون بالعصى والمدى والأحـذية وحتى بالحـجارة . وهكـذا يقطعـون فى أيام السـبت شـوارع مالاى كـامب وفـريديدورب جيـئـة وذهابا بصـدورهم البـارزة ، تطل من عيـونهم نظرات الغطرسة .

وفى أيام السبت أيضا تأتى الفتيات من هل وبريا وبارك تاون إلى مالاى كـامب يرتدين ملابس بنفس الطريقة التى يلبس بهـا البيض ، وإن كانت أكثر ألـوانا ، ذلك أنهن كن يعشقن الألوان الأزهى ، وكن يتناسين أنهن يعملن فى هل وبريا وبارك تاون ، ويتـقابلن عند نواصى الشوارع ويتحدثن بأعلى أصواتهن ، وتـكثر الضحكات والتهكمات ،

وكلهن يرقبن الرجال ويتحدثن عنهن ، فتقول فتاة .. يعجبنى هذا الشخص ، وتقول أخرى وأنا يعجبنى الآخر هناك . ويستمر الحال هكذا ، فيشرن إلى الرجال الذين أعجبن بهم . ولكن الإشارات لا تتم بالأصابع وإنما بالعيون ، وبطريقة غامضة يعرف كل رجل الفتاة التى أعجبت به .

وبعد كثير من الرقص والضحك واستعراض الفتيات لأرجلهن يلتقى رجال بفتيات ، وبعد ضحك أشد وحديث أعلى صوتا يمضى رجل وفتاة ، يذهبان للشرب فى مكان من هذه الأماكن الكثيرة أو يتمشيان فحسب أو يذهبان إلى السينما ، أو يمضيان يبحثان عن (مارابا) أو يمضيان فحسب .. ثم يظهر آخران ويحدث نفس الشىء .

وتمضى الحياة بطيئة مثيرة بكثير من الضحكات وكثير من الصيحات والثرثة ، وكثير من الشراب والعراك . ويقف أهل مالاى كامب فى شرفاتهم يشاهدون هذا كله ، فيعلقون ، وينصرفون داخل بيوتهم ثم يعودون ثانية ويدلون بمزيد التعليقات. ويصبح الأمر أكثر إثارة حين يقبل الليل .

وأعاد جوزيف قوله وهو يقدم سيجارة لاجزوما : " هكذا يكون يوم السبت هنا " .

وتوقفا عند ناصية وأخذا يرقبان الحشد الذى يدور ويلف كالطاحونة ، وكانت السينما على الجانب الآخر من الطريق والناس تتدفق إليها . وخارج السينما تجمع أناس فى حلقة صغيرة يلعبون النرد . وكان الرجل الذى يمسك بالنرد يقوم ليؤدى رقصة صعبة قبل أن يلقى به على الأرض .

وعلى بعد قليل من بداية الطريق ، وقف رجلان ملونان يتقاتلان ، وكانا أشبه ما يكونان بملاكمين يترنحان من شدة الضرب . ولقد ظلا يتقاتلان فترة تزيد على ساعة من زمن ، بيد أن كل واحد منهما جاهد فى أن يظل واقفا على قدميه . وعلى مقربة منا أيضا ، كان رجلان "أنيقان" يعبران الطريق يرتدى كل منهما حلة أرجوانية صارخة اللون ، ذات بنطلون واسع الرجلين ، وسترة طويلة تصل إلى الركبتين ، وقبعة من قش ، وقميصًا أحمر اللون ، وربطة عنق سوداء . وفى يسرى كل منهما منديل أحمر ، وفى اليمنى عصا . وسارا يختالان ويقفزان فى الطريق من جانب لآخر وكانا صغيرى الحجم متشابهين ، كما جعلتهما ملابسهما المتماثلة يبدوان وكأنهما نسختان من رجل واحد . وسار خلفهما جمهور من أناس يهللون ويتضاحكون .

ومر باجزوما وجوزيف رجل ملون وامرأة شديدة الشحوب .

وقالت المرأة : " انظر إلى هذين الأبلهين الأسودين " .

وضحك الرجل . وأحس اجزوما بشىء من الخجل ، والتفت إلى جوزيف .

وقال جوزيف : " إنهما مصمما أزياء " .

– ولكنه عمل تافه .

ونظر إليه جوزيف دون أن ينبس ببنت شفة . وفجأة انحرفت حول الناصية شاحنة بيك آب وقفز منها رجال الشرطة ، راحوا يركضون عبر الشارع فتفرقت حشود الناس .

وقال جوزيف : " هيا بنا " .

وجرى الناس فى كل اتجاه . واختطف المقامرون النقود التى كانوا يلعبون عليها وجروا .

واختفى الأنيقان فى نهاية الشارع . ولم يبق سوى الملونين فهما وحدهما اللذان لم يفرا .

واستحث جوزيف اجزوما وقال له : " هيا " .

- لكننا لم نفعل شيئا .

وقال جوزيف فى ضيق : " إنهم لن يستجوبوك " ثم انطلق كالسهم نحو بداية الشارع .

وكان أحد رجال الشرطة الذى يبعد عن اجزوما بعشر ياردات متجها إليه مباشرة . وانتظر اجزوما . إنه لم يفعل شيئا . لقد كان يقف هناك يتفرج فقط . واقترب الشرطى ، ورفع عصاه ثم هوى بها بقوة ، فأخطأت رأس اجزوما وأصابت كتفه ، فسرى الألم فى بدنه فقال: " أنا لم أفعل شيئا " وأمسك بذراع الشرطى قبل أن يصيبه ثانية .

وصرخ الشرطى وهو يركله : " اتركه يا ابن الحرام " .

وشعر اجزوما بألم يسرى فى رجله ، فقال هامسا : " كلب " ولطم الشرطى على وجهه .

وانبعثت من عينى الشرطى نظرة دهشة غريبة . وارتجف اجزوما غضبا ، وضم قبضته القوية وضربه ثانية وبشدة . وتأوه الشرطى وسقط متكومًا على الأرض ورقد ساكنا ، فتلفت اجزوما حوله ،

وكانت الشاحنة لا تزال على مسافة بعيدة ، لكن شرطيين كانا يقتربان منه فقال لنفسه : " على الآن بالهرب " وراح يجرى متجها إلى نهاية الشارع .

وصاح أحد الشرطيين : " اقبضوا على هذا الرجل " .

وخطا رجل ملـون إلى الطريق ومـد يديه يريـد الإمـسـاك به ، فاستجمع اجزوما قواه وأسرع ، وخفق قلبه بشدة ، ولكنه كان يجرى فى يسر يجب أن يكـون حـريصا وإلا أسلمه هذا الأصفـر ابن الحرام إلى الشرطى .

وخطا ملون آخر إلى الـطريق . وأحس اجزوما بالخـوف . وكان من المستحيل أن يجرى وأن يصرع رجلين فى آن واحد . سوف يمسكان به . وسمع وقع أقدام الشرطيين خلفـه . وشعر ببغض نحو الملونين . لابد أن يضرب أحـدهما قبل أن يمسـكا به . هؤلاء المولدون . وحدث شىء لا يصدقه العقل .. فقد طرح الملون الثانى الملون الأول أرضا وفر متجها إلى نهاية الشارع ملوحـا لاجزوما . وابتسم اجزوما وأسرع من خطاه .

وقال له : " شكرا لك أيها الأسمر " .

وقـال الرجل : " مـن هـذا الطريق " وانـحـرف إلى ممـر ثـم قال : " سوف نسبقهم ولن يدركونا " .

وتبعه اجـزوما وجرى الاثنان إلى بيت دخلاه مـن خلال نافذة ، وتسلقا جدارا ثم جريا إلى منزل آخـر ، وتسلقا جدارا ثانياً . وبدا أن

الملونين لا يأبهون بما يحدث . ثم هـبطا إلى شارع ضيق وتسللا داخل بيت . وأغلق الملون البـاب وارتمى على مقـعد يلهث بشـدة ، وأشار لاجزوما كى يتخذ له مقعدا . ثم قفز واقفا وتطلع من النافذة .

ودخلت زوجة الرجل الغرفة ، ولاحـظ اجزوما مندهشا أن المرأة كانت سـوداء . وقص الرجل عليهـا ما حـدث . ثم خرجت دون أن تنبس بكلمة واحدة ، ثم عادت فيما بعد تحمل شايًا .

وتطلع اجزومـا إلى الرجل .. لقد كـان صغيـر الحجم نحـيلا ، ترتسم على وجهه كـثير من التجاعيـد رغم أنه لم يكن مسنًا . وكانت عينـاه حـمـراوين ، كمـا ظـل يسعـل ، وكـان سـعـالاً جافـا شديدا أجهد رئتيه .

وسألت المرأة : " لم ضربت الشرطى ؟ " .

وأجاب الملون : " لقد ضربه الشرطى بلا سبب " .

ونظرت المرأة إلى اجزوما تتفحصه .

وقال اجزوما : " هذا ما حدث " .

وأومأت المرأة برأسها ثم قالت : " هذا الرجل أحمق لتدخله فى شئون الآخرين " ونظرت إلى زوجهـا فى قسوة " صدره سيىء " ثم ابتسمت فبدا وجهها فتـيا ، واختفت التجاعيد المرهقة ، وتلاشت من عينيها نظرات الحـزن " لكنه أحمق طيب .. أنت وافد جديد إلى هذه المدينة ؟ .

وأومأ اجزوما برأسه .

فقالت المرأة لزوجها : " هذا هو سبب ضربه الشرطى " .

وأمسك الرجل بيد المرأة وابتسم فى وجهها .

وقال أجزوما : " يجب أن أنصرف " .

فقال الرجل : " ليس الطريق آمنا بعـد . إنهم لا يزالون يبحثون عنك . انتظر فترة أطول " .

- ٣ -

وجد اجزوما الشارع دون مشـقة ، بيد أنه كان من الصعب عليه أن يعثر علـى البيت ، فكل البيوت تبـدو متشابهة مع تجـمع الشفق . نفس الشـرفـات .. نفس بوابات الأفنيـة .. نفس الجـدران الحـديدية المـوجـة التـى تميل مـترنـحة إلى الخلف . والكل يتـشابه فى اتسـاخ اللون .

وكـان الناس فى كل مكان . أنـاس يدخلون البـوابات ، وأناس يخـرجون منهـا . أنـاس يتـرنحون ويتـساقطون .. وأنـاس يتعـاركون ويسبون . كـان معهم نقـود ويريدون التخلص منهـا .. جوزيف قـال لى ذلك . وقال .. هكذا يكون السبت هنا .

وقال اجزوما لأحد الغرباء المارين : " اسمع يا .. " !!

ورد الغريب وهو ماض فى طريقه : " رح فى داهية " .

وكرر اجزوما المحاولة . ولم يتوقف أحـد ممن سألهم ليستمع إليه ثم شاهد البـدينة الشاحبة التى كـانت تتقاتل في الصـباح والتى انشج رأسهـا ، وكانت مـتكئـة على رجل طويل ثمل . واتجـه إليهـا ومس كتفها وقال :

- أين مكان ليباه ؟ .

ونظرت إليه ليزا الثملة بعينين غائمتين ، وهزت رأسها قائلة :

- اغرب عن وجهى .. اغـرب .. فلست أحبك .. هذا الشخص (بابا) ...

وقال الرجل الطويل الثمل وهو يضرب اجزوما : " امش " .

وتفادى اجزوما الضربة ومضى ثم راح يفكر .. هى بوابة من هذه البوابات .. ولكن أية بوابة منهـا ؟ .. هذه الشاحبة الصفراء غـبية مع الشراب . وتعثر فى شخص فأمسك به ليتفادى السقوط .

وصرخ دادى وهو يصارع يائسـا ليبتعـد : " النجدة ! النجدة ! إنهم ينشلوننى " .

وهزه اجزوما قائلا له : " اخرس " .

فقـال دادى : أوه .. أهو أنت ؟ ظننتك فى السـجن .. جوزيف قال إنك لن تهرب .. أو هربت ؟ .

- أجل .. أين مكان لياه ؟ .

فقال دادى : " لا أعرف " ومضى .

فأمسك به اجزوما وهزه قائلا : " تعال .. قل لى " .

- هـوه .. يظن نفـسه أسـدا لأنه طرح شرطيـا أرضا .. هيـه ؟ حسن .. أنا سأريك . هيا قاتلنى .

ووثب دادى مبتعدا ودار حول اجزومـا يلوح بقبضتيه ، ثم اندفع نحوه بسرعة وخبطه فى صـدره . وضحك اجزوما وأمسك به . وخطا دادى إلى الوراء فزلت قدمـاه وهوى على الأرض ، واصطدمت رأسه بالرصيف فتأوه ثم رقد ساكنًا .

وجئا اجزوما ورفع رأس دادى وسأله : "أأنت بخير يا دادى ؟".

وأمسك دادى برأس اجزوما وحاول أن يجذبه إلى الأرض .

وضحك اجزوما وقال له : " أنت ثعلب عجوز " .

ونهض اجزوما حاملا دادى بين ذراعيه كطفل صغير ، فقاوم وكافح دون جدوى .

- أين المكان ؟ .

وقال دادى بخبث : " حسن ! .. اسمع ما أقوله لك .. أتشترى لى شرابا لو أخذتك إلى هناك ؟ .. تلك الحمقاء لياه لن تقدم لى أى شيء بعد الآن ، فهل تقدمه أنت لى ؟ .. لو رفضت فسأقاتلك وأصيح وأقول للناس إنك نشلتنى وتقع بذلك فى مشكلة " .

فقال اجزوما : " وهو كذلك " .

- أنت وعدت .

- تمام .

- هل سيلدغك مليون نملة لو كذبت ؟

- أجل .

- ويصيبك الرعب أسبوعا ..

- امش .. أرنى المكان .

أحبك يا اجزوما .

فضحك اجزوما وقال له : " ستحصل على شرابك يا دادى " .

- وهذا هو سبب حبى لك . وانطلق ليرشد اجزوما إلى الطريق

كـان هناك أناس فى كل مكان . أناس يحـاولون دخـول البـيت للحصول على شراب لهم . وأخـرون يحاولون الخروج . وفاحت من المكان كله رائحة جـعة الكفيـرى . وكانت الأم بلانك تجلس إلى دون ضخم فى الفناء وتقدم عيارات الجعة بتقتير شديد ، وتجمع شلنات فى مقابل ذلك .

وفى المطبخ كان جوزيف منهمكا فى القيام بنفس العمل ، وصاح " اجزومـا " ! اجزوما ! " وتوقف عن العـمل وأمسك بيد اجـزوما وصافحها بشدة .

- ظننت أنهم أخذوك . أدرت رأسى مرة أتـلفت فرأيتك تضرب الشرطى ، وظننت أن أمره انتهى . قل لى يا رجل .. ماذا حدث ؟ .

وحاول اجزوما أن يحكى لجوزيف لكن الضجة كانت شديدة فهز رأسه . وأومأ جـوزيف وخبط ظهر اجزوما بود ، وقـدم له عيارا من الجعة . وهز اجزوما رأسه ، ولكزه دادى بشـدة فابتسم اجزوما وتناول العيـار . وابتسم دادى فى ابتهاج وربت على ذراع اجـزوما الذى رفع العيار إلى شفـتيه ثم مرره إلى دادى ، فمسح دادى فـمه بظهر يده ثم رفع العيار إلى فمه .

فى هذا الوقت تماما دخلت لياه ، حتى إذا ما بلغت دادى أخذت منه العيار . ومع صرخة من ألم ، ترنح وتمايل فى حركة دائرية .

وحين وقعت عيناه عليها وثب فى جنون وأخـذ يحجل مرة على قدمه اليمنى ومـرة على قـدمه اليـسرى ، وتيـار من سباب يتـدفق من بين شفتيه ، وسيل من دموع ينساب من عينيه .

وأمسكت لياه باجزوما وعانقتـه ، وابتسم لها ، وضحك جمهور الشاربين وسـخروا من دادى . وأخذ اجـزوما عـيار الجعـة من يد لياه وقال :

– لقد وعدته . ولم يكن ليرينى المكان لو لم أعده .

ورفت ابتسـامة ساخـرة على وجه لياه . وارتفع أحـد حاجبيـها وألقت على اجزوما نظرة لبـرهة قصيرة ، ثم أومأت برأسـها ، وقدم اجزومـا العيار لدادى فـانتزعه منه وخـرج من المطبخ مسـرعا . ونظر اجزوما إلى عينى لياه ثم انفجر كلاهما فى الضحك .

وقالت لياه : " لقد فررت " .

وأومأ اجزوما برأسه .

– هذا شيء جيد . هل أوقعت به ضررا ؟ .

وأراها قبضته وهو يقول : " لقد غط فى النوم " .

– شيء جيد مرة أخـرى . كان عليك أن تهرب حين طلب منك ذلك جوزيف ، إنه عليم بالمدينة .

وربتت على قبضـة اجـزومـاوابتسمت قـائلة : " أنت رجـل . هيـا بنا .. سنرى أن كان ثمة مكان نتحدث فيه .

وسارا فى غرفة لأخرى ، لكن الغرف كانت كلها ملآنة ، في كل مكان أناس يحتسون .

وقالت لياه : " إنها التجارة " .

وهزت كيس النقود الجلدى الذى كان مربوطا حول خصرها فصدر عنه صوت مسموع ، وقالت : " هذه هى القوة " .

ونظر إليها اجزوما فلمعت عيناها وتوهج وجهها قليلا وبدت ابتسامتها الساخرة ثم اختفت . وبرز صدرها الضخم ، ثم هبط . وضبطته يتطلع إليها فضحكت بصوت مرتفع ، وبدت أقوى من أى وقت مضى .

- أسئلة مرة أخرى .. هيه ؟ .

ولمعت عيناها وتوجهت إلى الشرفة ولكنها كانت كغيرها من الأماكن .

وعادت تقول وهى تقود خطاه إلى الشارع : " إنها التجارة " .

وسارا حتى بلغا ناصية الشارع ، وسألته : "هل أصبت طعاما ؟"

- كلا .

- طيب . حين نتهى من هذا العمل يمكنك أن تذهب مع المدرسة وتتناول الطعام معها . لقد رجعت . جميل ؟ .

- نعم .

- تستطيع أن تستريح فى الغد ، وبعد غد يمكنك أن تذهب إلى المناجم إذا كنت لا تزال راغبا فى ذلك . قل لى .. ألك امرأة فى الشمال ؟ .

- كلا .

- أتريد واحدة هنا ؟ .

فابتسم ووقف عند الناصية وانتظرا . وظلت لياه تتطلع إلى الشارع المتقاطع مع الشارع الذى فيه يقفان . وبعد عشر دقائق أقبل شرطى أسود على دراجة ، ثم هبط وتوقف عندهما وقالت له لياه "مرحبًا" .

ورد الشرطى : " مرحبًا " ونظر إلى اجزوما

فقالت لياه : " إنه إنسان طيب " .

وهنا قال الشرطى : " لن يأتون الليلة " .

- جيد

- ولكنهم فى الغد سينبشون مكانك وبعض أماكن الآخرين .

- آه .. ومن هم هؤلاء الآخرين ؟ .

فقال الشرطى : " مهمتى معك أنت " .

فابتسمت لياه ساخرة ، وعدت خمس جنيهات ورقية من كيسها الجلدى وأعطتها للشرطى .

قال الشرطى : " إنك لن تبلغى الآخرين " .

فقالت : " لا أهتم إلا بنفسى " . ثم اصرفت .

وركب الشرطى دراجته ومضى .

وقالت لياه : " هيا " ورجعت إلى البيت ، فلحق بها اجزوما وأمسك بذراعها .

- هل ستبلغين الآخرين ؟ .

فقالت وهى ماضية : " ماذا بك ؟ " . واستلت ذراعها منه .

- إنك امرأة غريبة .

- وأنت مغفل . امش ، فلدى كثير من المهام لابد أن أؤديها .

وتبعها إلى الفناء من خلال الدار ، ثم إلى باب عند الطرف البعيد من الفناء ، وطرقت الباب ودخلت ، ومن خلفها اجزوما .

وتطلعت . إليهما شابة كانت تتناول طعامها .

وقالت لياه : " هذا اجزوما " .

وابتسم اجزوما ، لكن الفتاة نظرت إليه دون أن تبادله الابتسام . وأيقن أن هذه هى المدرسة .

وقالت لياه : " أعطيه طعاما ودعيه يقم هنا . لدينا عمل كثير ولسوف يأتون فى الصباح ينبشون المكان " .

وسألت الفتاة : " والليلة ؟ " .

- لن يأتوا ، ولهذا سنبيع كثيراً ونستريح فيما بعد . سوف أدعوك ، ويمكنك أن تذهبى مع اجزوما إلى السينما بعد أن تنتهى من طعامك .. هيه ؟ .

وخرجت لياه وأغلقت الباب وراءها ، ثم أطلت برأسها فى الغرفة ثانية وقالت :

- اجزوما .. لست غاضبة منك . ولكن لا تكن غبيا . لو أنى أبلغت الآخرين فستعلم الشرطة أننى تلقيت تحذيرا وستسوء العاقبة . والآن تناول طعامك .

وقالت الفتاة : " اسحب كرسيا واجلس " .

واستجاب اجزوما . ونهضت الفتاة وغرفت له شيئا من طعام فى صحن ، وراح هو يراقبها . وكانت الفتاة جميلة تشبه زهرة ندية بنية ملساء . وكان فى رشاقة جسدها شباب وقوة . إنه جمال أسمر قوى هادىء .. فى ذراعيها وساقيها ولفتتها وهامتها المرفوعة . وكانت رقة صوتها ساحرة ، وكان من الصعب الكف عن النظر إليها .

ووضعت الطعام أمامه وقالت : " طرحت الشرطى اليوم أرضاً " .

وأومأ برأسه .

- لماذا ؟ .

- ضربنى دون سبب .

- ولم لم تهرب ؟ .

أيجب أن يفر إنسان لم يرتكب شيئا ؟ .

وابتسمت له للمرة الأولى . وكان شيئا جميلا . لقد بدت أسنانها جميلة ، وانفرج الوجه عن غمازتين ، غمازة فى كل وجنة .. أشياء جميلة دفينة يشتهى تقبيلها . وكانت عيناها وضائتين عميقتين حين ابتسمت . وبادلها الابتسامة .

وسألته : " أنت لست خائفا ؟ " .

فأعلن وفى صوته رنة تباه : " لست أخشى إنسانا " .

فقالت له : " كل " .

وبعد فترة قصيرة رفع ناظرية وقال : " بم يسمونك ؟ " .

- اليزا .

- اسم جميل .

وسألته : " وأنت .. من أين ؟ " .

- من الشمال .

- هل هو جميل ؟ .

- جميل جدا .

- فلم هجرته ؟ .

ليس هنك عمل . وسأتجه إلى المناجم هنا .

وصمتت .. أما هو فـراح يفكر فى شىء يقوله ، بيد أنه لم يجد ما يمكن أن يكون موضوع حديث . لقد كانت جميلة جدا . ونظر إلى شعـرها ورغب فى أن يلمسه . ورفـعت ناظريها فرآته يتطلع إليـها ، فغضت الطرف ثانية .

- ما رأيك فى الطعام ؟ .

- جيد . أطهوته أنت ؟ .

- أجل .

وأطلت لياه برأسها من الباب وقالت : " إنها جميلة يا اجزوما ، هيه ؟ " .

- جميلة جدا .

وضحكت لياه وأغلقت الباب بعنف .

وسألته اليزا : " هل ستشرب ؟ " .

- كلا .

ونهضت اليزا وراحت ترفع الأطباق واجزوما يراقبها . وخيم صمت على الغرفة . ومن الخارج تناهت إلى سمعها فى خفوت ضجة الشارين . ومن آن لآخر كانا يسمعان لياه تهدىء من ضجة الشاريين عندما يشتد الصخب .

وقالت اليزا : "أعنى على رفع المكنة ، سأحيك لبعض الوقت ".

ووثب اجزوما وأمسك بمكنة الحياكة ، وحين رفعها أحس بوخزة حادة مؤلمة فى كتفه اليسرى .

وقالت له اليزا : " إنك مصاب " .

فقال : " ليس فى الأمر شىء " .

- دعنى أنظر .

- إنه المكان الذى ضربنى فيه الشرطى الغبى .

- اجلس هنا .

وفتحت القميص . وكان فى المكان الذى ضربه فيه الشرطى كدمة أرجوانية اللون فقالت :

- يجب أن تضع شيئا ما عليها .

وعثرت على قنينة مرهم وأخذت تدهن منه الكدمة . وكانت أصابعها ناعمة ورقيقة . وتمنى لو أن هذه الأصابع استمرت تقوم بهذا العمل . وقال لها : " أنت جذابة وجميلة " .

فقالت : " إنك تشعر بالوحدة " وضحكت .

وساد الصمت بينهما مرة أخرى ، ولكنه كان صمتا يشيع فى النفس شعوراً بالرضا . حتى الضوضاء التى جاءتهما من الخارج أشاعت نفس الشعور . وناولته سيجارة وأشعلت لنفسها واحدة وبصت على وجهه وضحكت .

- أهى المرة الأولى التى تشاهد فيها امرأة تدخن ؟ .

- شاهدت النساء البيض فقط يدخن .

ولضمت الإبرة ، وببطء أخذت المكنة يصدر عنها صوت جلبة لها طنين رقيق راق لاجزوما . وقالت :

- حدثنى عن موطنك وعن أهلك ؟ .

وراح يحكى : " إنه بعيد جدا .. بين تلين ونهر . وهو هادىء لا يشبه الوضع هنا . حين أفكر فيه الآن أشعر بالحنين إليه . فى يوم ما كان لدينا قطيع كبير ، أما الآن فلا يوجد سوى القليل منه ، والأرض جدباء ، وهناك أبى وأخى وأختى وهما أصغر منى " .

- وأمك ؟ .

- ماتت .

- أتنوى العودة ؟ .

- نعم .

- والمدينة .. أتعجبك ؟ .

- لا أدرى .

- لياه تحبك .. إنها تتحدث عنك كثيرا .

- إنها حنونة ، ولكن من الصعب فهمها .

- هى طيبة أيضا .

- إنك تحبينها . ما علاقتها بك ؟ .

- هى شقيقة أمى . رعتنى لما ماتت ، وأرسلتنى إلى المدرسة . وها أنا الآن مدرسة . ألم تذهب إلى المدرسة ؟ .

- نعم .. لم أذهب فليس فى المكان الذى نحن فيه مدرسة .

وتوقفت اليزا عن الحياكة وغطت المكنة .

- هيا .. سنذهب للتمشية . سآخذك إلى مكان شبيه بالريف .

وغادرا مالاى كامب وابتعدا عن حشود الناس وعن الزعيق والعراك وضجيج الشوارع تلك التى أخذت تتلاشى فى بطء وتتباعد إلى أن صارت فقط همهمة بعيدة . وبعد فترة من زمن كان تحت الأقدام عشب .

وقالت اليزا : " المكان هنا هادىء " .

فقال : " يكاد يشبه الريف " .

فقالت : " حين يتنابنى الضيق من الضجيج آتى هنا أحيانا " .

فقال : " الجو هنا ندى " .

وجلسا .

وقالت اليزا وهى تشير بإصبعها : " ها هى المدينة " .

وكانت المدينة تقع إلى حد ما ناحية الشرق . وكان ثمة كتلة من مبان غير واضحة المعالم ، وأضواء تومض .

وقال اجزوما : " النظر إليها من هنا يشعرك بالوحشة " .

وتمددت اليزا مستلقية على ظهرها ، وتوسدت ذراعيها ثم قالت : " أحب التطلع إلى النجوم " .

وستدار ونظر إليها : " إنك جميلة " .

فقالت : " إنك تشعر بالوحشة " وضحكت .

- لم تقولين هذا ؟ .

- لأنها الحقيقة .

وأحس بوجود شىء ما بينهما لا يعرف كنهه ، كما لا يستطيع أن ينحيه جانبا . وأدار رأسه ونظر ناحية الغرب ، فشاهد أشكالا ضخمة شاهقة غير واضحة المعالم ، ترتفع من وراء ظهورهم عالية فى السماء

لقد كانت أشكالا مستديرة ضخمة ، لكن ضخامتها تقل وترق كلما علت ، بحيث لا تظهر سوى قممها بوضوح قبالة السماء .

وسأل اجزوما وهو يشير اليها : " ما هذه الأشياء ؟ " .

ورفعت اليزا رأسها ونظرت ثم قالت : " هذه نفايات المنجم . كتل من الرمل الذى يجرف من الأرض ، حين يبحث المعدنون عن الذهب . أنت سوف تساعد فى عمل هذا " .

- مجرد رمل ؟ .

فقالت بسأم : " نعم .. مجرد رمل " .

- لابد وأن استغرق ذلك وقتا طويلا .

- فعلا .. سنوات كثيرة استغرقها عمل ذلك كله . كما أن المزيد منه يتم كل يوم .

- الم تقتربى منها أبدا ؟ .

- بلى اقتربت .

- وماذا تشبه ؟ .

- تشبه الرمال .

- ومالونها ؟ .

- لون الرمل الأبيض .

- ألا يوجد رمل أسود ؟ .

- لم أر شيئا كهذا .

- شيء طريف .

- لم ؟ .

- جبل من رمل أبيض يقيمه رجال سود .

- ورجال بيض أيضا .. هيا .. يجب أن نمشى .

ونهضت و(تمطعت) ، وجلس هو يحملق فى نفايات المنجم .. وبزغ القمر فجأة من وراء سحابة .. وكان كبيرا وأصفر وبهيجا . وفى السماء تلألأت النجوم براقة . وحول اجزوما ناظرية من نفايات المنجم إلى اليزا وصبا إليها . ثم قال فى تجهم :

- أنت جميلة .

فقالت : " هيا بنا " .

- أنت لا تحبيننى .

ونظرت إليه نظرة غريبة لكنها لم تنبس ببنت شفة . ثم بدا فى ضوء القمر أنها تبتسم .. ابتسامة بسيطة ساخرة ذكرته بالمرأة لياه . ومشت ، فنهض وتبعها ، وأمسك بذراعها وجذبها إليه .

فقالت : " أنت قوى جدا " وضحكت .

- لماذا لا تحبيننى ؟

وللمرة الثانية بدت فى عينيها تلك النظرة الغريبة وهى تتطلع إليه . ومرة ثانية لم تتفوه بكلمة واحدة ، فجذبها وأدناها منه ،

وأمسك بها فى إحكام .. فأحس بصلابـة جسدها تلين فابتسم . ومن خلفهما قبعت المدينة وقـبع مالاى كامب . وهناك كانت نفايات المنجم التى تكونت من الرمل الأبيض . وهنا كان الهدوء والطمأنينة ، وكانت هى رقيقة بين زراعيه .

وبيده الكبـيرة أمسك بذقنها ورفـع وجهها وابتـسم ، ولكنها لم تبادله الابتسام . هذه إنســانه غريبة مثل لياه .. وهبط بشفتيـه ليقبلها . وهنا تصلب جسدها ثانية .. ودفعته بعيدا عنها وقالت :

- لا تفعل . وكان صوتها أشـبه بصراخ طفل . وأولته ظهرها ، ومشت مسافة صغيرة . أما هو فقد وقف يتأملها .

وقالت له دون أن تلتفت إليه : " آسفه " .

فقال : " لاتبال " . وسار بعيدا عنها ، واتخذ الطريق الذى أتيا منه ، ثم مرة واستـدار ليتطلع إلى نفايات المنجم البعيـدة ، ثم استدار ثانية ومضى .

وحين اقترب من مالى وكامب لحقت به وسارت بحذائه . ولفترة طويلة سارا صامتين . ثم رفعت عينيها ونظرت إليه وقالت :

- أنت عضبان .

- وماذا يهمك ؟ .

فقالت : " أنا آسفه .. لكنك لا تفهم ؟ .

ونظر إليهـا .. وبدا وجهها حـزينا ، فزايله غضـبه ولم يكن فى داخله الآن سوى الشعور بالوحدة .

وقال ها : " لست غضبانا " .

وسار صامتين طوال الطريق .

***

طوال تلك الليلة والناس يحتسـون الشراب فى بيت لياه . وحين عـاد اجزومـا واليزا كان البـيت أكثـر ازدحما عـما كان عليـه قبل أن يغادراه . وكانت الأم بلانا العـجوز تجلس فى نفس المكان فى الفناء ، وخلفها دنان فـارغان ، وأمامها دن يمتلىء إلى منتصـفه ، وكان الفناء مكتظا بالناس . وفى ركن آخـر من الفناء كان مع المرأة النحـيلة الملونة التى كانت قـد أصيـبت بالهذيان بعد الظـهيرة ، دون آخـر ، وكانت أيضا تبيع . وحين رآها اجزوما متزنة أصابته الدهشة .

وكـانت كـل حـجـرة فى البيت تمتلـىء برجال ونسـاء يحتـسون الجعـة ، وكـان ثمة نساء ملونات كـثيرات تلتف أذرعهن حـول رجال سود . أمـا الملونون مـن الرجال فلـم يكـن منهم هناك سـوى رجـل أو اثنين .

وأقبلت امرأة ملونة نحيلة قاسـية الملامح وأحاطت بذراعيها عنق اجزوما وقالت :

– اشـتر لـى شرابـا يـا بابا .. ويمكن بعـد ذلك أن نمضى لننام سويا .. نصف كراون فقط .

وتركته اليزا واتجهت إلى غرفتها . وراح اجزوما إلى الفناء ثانية . وكانت لياه متكئة إلى جدار تحـادث جماعة من رجال وتضحك بأعلى صوتها . وكان وجهها متوردا تسخر بعينيها من الرجال .

- اجزوما . وكـانت صاحبة هذا الصـوت الآم بلانك العجوز . واتجه ناحيتها فدعته للجلوس قائلة :

- اجلس هنا يا ولدى . وهيأت له مكانا على الدكة التي بجوارها . " لدي نقود كثيـرة ، وأريدك أن تأخذ بعضا منها وتبقيـه معك لتسدد منه للياه . هؤلاء الناس سكارى ، وقد يقع شيء من الـعراك ، وأنا امرأة عجوز " .

وناولته ربطة أوراق مـالية وربتت على ذراعه ، ثم دفـعته بعـيدا فابتـسم . وكان صوتهـا عذبا عطوفا ذكـره بصوت أمه العـجوز . ثم زعقت " تعـالوا .. أقبلوا يا أولاد الكلاب ! تعالوا واملأوا أمـعاءكم بالشراب ! ولم يكن فى صوتها شى من أمومة .

والتفت إليها اجزوما وضحك فغـمزت له بخبث وتغضن وجهها الجدى العجوز إثر ابتسامه داعرة .

وزعقت : " تعالوا يا كلاب . أين شلناتكم ! " .

وانصرف اجزوما .

- ها هو ابن الحرام .

واستدار اجزوما ، فمرق شيء مـا أمام وجهه ، فتراجع خطوات إلى الخلف .

وصاح دلادلا : "هذا لسرقتك المرأة التى كانت لى" ولوح بسكين.

وكان من ورائه رجـلان آخران يحمل كل منهـما سكينًا . وأحس اجزوما بدم يسيل على جـانب من وجهه . وضحك دلادلا وهو يشق

الهواء بسكينه . ودنا منه الرجلان الواقفان خلفه ، حيث تقدما بضع خطوات . وتراجع اجزوما خطوات إلى الوراء وهو يتلمس شيئا ما صلبا وجامدا .

وقال صوت نسائى : " خذ هذه " ودفعت إلى يديه بهراوة . وكانت لينا صاحبة هذا الصوت ، المرأة النحيلة الملونة التى كانت قد أصيبت من قبل بهذيان . ورفع اجزوما الهراوة وقال : " أقبل " .

وارتفع صوت لياه قائلا : " دع دلادلا هذا لى " .

وتراجع دلادلا خطوات إلى الخلف وأدار رأسه . ورفع اجزوما الهراوة وتقدم خطوات نحو دلادلا .

- لا .. هو لى أنا . راقب الاثنين الآخرين . وتقدمت إلى الأمام فى بطء ويداها فى خاصرتها وابتسامة ساخرة ترتسم على وجهها .

وتحرك الناس إلى الوراء مبتعدين عن المجموعة القليلة التى فى الوسط . وأدار أحد اتباع دلادلا عينيه صوب لياه فضربه اجزوما فسقط الرجل ساكنا . وهنا اندفع الآخر تجاه البوابة ، لكن رجلا طويلا دخل فى التو قبض عليه . لقد أمسك هذا الرجل الطويل برقبته وهزه ، وقال وهو يزأر " اسمى جيه .. بى . ليامسن ، وسأقتلك يا وضيع " .

وصرخت المرأة النحيلة الملونة : " جوهانز ! " .

ونظر إليها الرجل الضخم دون أن يفك قبضته .

وصاحت لينا : " لا تقتله .. ستذهب إلى السجن " .

وزمجر جوهانز : " سأسحق هذا الخسيس " .

وصرخت لينا : " لا " .. وكان فى صوتها سطوة .

وأطلق جـوهانز مـزمجـرا سـراح الرجل الذى هوى إلى الأرض فرقد ساكنا .

وقال دلادلا وهو يتراجع إلى الوراء أمام لياه : " لو اقتربت أكثر من ذلك ، طعنتك بالسكين " .

وقال جوهانز فى زمجرة وهو يخطو إلى الأمام " واحد آخر " .

فقالت لياه : " إنه لى أنا " .

وتراجع جوهانز إلى الخلف .

- لا تقتربى أكثر من ذلك يا امرأة .

وتقـدمت ليـاه خطوة ، فـحـاول دلادلا طعنهـا ، لكنه أخطأها فأمـسكت بذراعـه ودفعتـها بعيـدا . فـجاهـد هو ليـوجه السكين إلى كتفها ، لكنها أمسكت به كالمنجل .

وهمست له : "ابذل محاولة أشد " ونطحت وجهه برأسها فتفجر الدم من أنفه ، وبرزت عروق جبهته ورقبته حين جاهد ليهبط بالسكين وكانا فى أثناء اشتـباكهما فى هذا الصراع المخيف يتـمايلان من جانب لآخر . وحـاول يائسا أن يشل حركـتها فنخـرت ، ثم فى بطء دفعت بذراعه وراء ظهره ، وراحت تدفعـها وتدفعها ، فبـدت حبات العرق على جبـهته وتغضن وجـهه من الألم ، ثم تلقى بعدها ضربة عنـيفة فتـراخت يده ، وانزلقت السكين من بين أصـابعه ، وهنا تـركته لـياه

فتكوم على الأرض ، وألقت عليه نظرة ، وبصقت ، ثم رفعت كعب حذائها وهوت به على وجهه .

فقال اجزوما : " لا " .

فنظرت إليه بابتسامة ساخرة ومضت وهى تقول " ابعدوا هذه القذارة " .

وجذبت اليزا اجزوما من ذراعه قائلة " تعال .. سأغسل وجهك من الدم " .

ومضى معها إلى الغرفة فأحضرت طست ماء وغسلت وجهه وقالت " ليس الجرح غائرا لكن لابد من علاجه وإلا ازداد النزف . هيا " .

فقال : " الأمر بسيط " .

وبضيق صدر جرته وخرجت به .

***

عادا بعد ساعة وكانا قد وجدا طبيبا خاط جرح وجه أجزوما . ولم يكن بالفناء ولا بالدار أحد من الناس فقد انصرفوا جميعا ، ولم يبق سوى جوهانز الضخم ولينا ، ومن كل مكان كانت تفوح رائحة الجعة الكريهة قوية .

وتساءلت لياه : " أهو جرح سيىء ؟ " .

وهز اجزوما رأسه .

وقالت لياه : " جوهانز يعمل فى المناجم ولسوف يساعدك . هيه يا جوهانز ؟ " .

وأجاب جوهانز : " اسمى جيه . بى . وليامسن .. ولسوف أساعدك " .

ودخل دادى تعينه الأم بلانك . لقد كان نائما وهو الآن مفيق من سكره . ونظر اجزوما إلى جوهانز .. كان يشبه الملونين بيد أنه كان يتكلم ويتصرف كالآخرين . وكانت المرأة النحيلة الملونة تحبه ، وهو أمر باد للعيان .

ونظرت لياه إلى اجزوما ثم إلى اليزا وضحكت .

وقالت اليزا : " لقد فقد قدرا كبيرا من الدم " .

فقالت لياه : " دعيه ينم . وأنت ستساعديننا فى التخلص من الصفائح وترتيب المكان حتى يبدو كل شىء على ما يرام حين تداهمنا الشرطة فى الصباح " .

وأومأت اليزا برأسها . ومضى الثلاثة .. اجزوما ولياه واليزا إلى الفناء ثم إلى الغرفة . وجلست لياه ونظرت إلى اجزوما وقالت :

– ستنام هنا ، وستنام اليزا فى البيت .. ولكن كيف الحال معك الآن ؟ .

– على ما يرام .

– أتريد طعاما ؟ .

- كلا .

- شرابا ؟

- كلا .

- وهذه الفتاة ؟ .. وأومأت برأسها إلى اليزا .

وقالت اليزا : " لاتكونى حمقاء " .

وصمت اجزوما وتنهدت لياه وضحكت . ثم تذكر اجزوما النقود التى أعطتـه إياها الأم بلانك ، فأخـرجهـا من جيبـه وناولها لـلياه ، فنهـضت وبكف يدها ضربتـه على ظهره واتجـهت ناحية الـباب ، ثم أومأت مـرة أخـرى نـاحية اليـزا وقالت " البنت هذه تحـبك ، لكنها بلهاء ، والسبب هـو التعليم ، إنها تحبك ، بيد أنـها ترغب فى إنسان يسـتطيع قـراءة الكتب وارتـداء مـلابس كمـلابس البـيض ، ويتكلم لغتـهم ، ويرتـدى القطعـة الصغـيرة من القمـاش إلى يسمـونها ربطة العنق . خذها بالقوة ، وإلا كنت أبلها مثلها " .

ومع ضحكة أخرى خرجت من الغـرفة . ونظر اجزوما إلى اليزا وقال :

- هل الأمر هكذا ؟ .

لكنها لم تلتفت إليه . ثم قـالت : " فراشك معد ، ويمكنك أن تنام الأن " ، ثم مضت دون أن تجيب عن سؤاله .

- ٤ -

جـوهانز الثمل وجـوهانز المفـيق شخـصان مـتبـاينان . . الأول صاحب متبجح متغطرس ، يقول للعالم أنه جيه . بى ويليامن ، وأنه يسحق أى خسيس . يغتبط بالعراك ، ويعتز بقوته الشديدة . يتحدى أى إنسان فى أى وقت . أما الآخر فكان هادئا منطويا على نفسه لين الحديث ، وديعـا كالحمل ، يخجل فـيما يبدو من ضـخامة حجـمه وشدة قوتـه . يكاد يخشى النظر إلى أى إنسان ، وهو على اسـتعداد دائما للتنحى عن طريقه للناس ، ومن النادر تماما أن يغضب أحدا .

وفى هذا الصباح الباكر من يوم الاثنين كان جوهانز مفيقاً ووجهه جاداً ، وقـد تقارب حاجبـاه بالطريقة التى يكون عليهـا الإنسان حين يطيل التفكـير بشدة. وكان اجـزوما ينظر إليـه من وقت لآخر ، فى حين بقى جوهانز يتهادى فى مشيته مطأطىء الرأس . وكان فى جعبة اجزومـا كثير جـداً من الأسئلة التى يود طرحهـا عليـه. وقـد حاول ذلك ، بيد أنه لم يتقلق منه سوى كلمتى . . أجل ولا ، يرددهما فى صوت هادىء ينطوى على إحساس بالحزن . كان من الصعب الحديث معه . وتساءل اجزوما بينه وبين نفـسه عما يمكن أن يكون عليه شكل المناجم فى الحقيقة .

وقال اجـزوما : « الشـوارع الآن خالية » . وكـان يتذكـر كيف كانت هذه الشوارع مزدحمة يوم السبت .

فقال جوهانز : « نعم » .

وفكر جوهانز . . إنها تبدو على غير المـألوف ، خالية تماما . . لكنه لم يتفـوه بشيء ، وكأنها ينبـغى ألا تكون كذلك . . طويلة . . واسعة . . وخالية . . شارع بعد شارع . والمحلات كذلك . . مجرد واجهـات دون أناس يتفرجون عليـها . والطنين المفزع خـامد في كل مكان . وأضواء مصابيح الشارع الخافتة . . كل شيء بدا غير مألوف على هذه الصورة. . وكأنه الموت يفـترش المدينة . وجوهانز لا يحب ذلك ، فهو يكره التفكير فى الموت .

وقال اجزوما : « الحيـاة الآن هادئة تماماً ، وأنا أحبها على هذه الصورة . لاتعجـبنى حين تكون مزدحمة والنـاس موجودون فى كل مكان ، كما هو الحال يوم السبت » .

وغمـغم جوهانز « احـحم » وحدث نـفسه « أحبـها حين تمتلىء بالجماهير » .

- ماذا ؟ .

- لاشىء .

- حسبتك تتكلم .

- لا .

ومرة أخرى سارا صامتين لفترة طويلة ، فى طول الشوارع الخالية وفى عرضها ، مع البنايات المرتفعة الغافية على كلا الجانبين ، والسلع والملابس فى واجهات المحلات . لكن لـم تشاهد سيارة فى أى مكان

ولا إنسان . مدينة الذهب نائمة ، وكانا هما المستيقظين الوحيدين ، الشيئين السائرين فيها . وراح جوهانز يفكر .. إنها أشبه ما تكون بمكان مقفر ، وأنا لا أحب الأماكن المقفرة .. بينما راح اجزوما يفكر .. إنها جميلة هكذا .. جميلة وآمنة .

وقال جوهانز فى نفسه .. إنها تعجبه ، لكنى أحب الناس .. وليس مجرد شوارع خالية ومبان لاحياة فيها .. إنهم الناس .. الناس . وفى نفس الوقت كان اجزوما يفكر .. إنه إنسان غريب .. بالأمس كان صخابا متبجحا .. وهو الآن هادىء إلى حد أنك لا تكاد تسمع صوته حين يتكلم .. وإنى لأتساءل عما هو الحال فى المناجم . لقد ألقى هذا السؤال على جوهانز ، بيد أن جوهانز لم يجبه . وها هو يحاول ثانية :

- كيف تسير الأمور فى المناجم ؟ .

ونظر إليه جوهانز بعينين حائرتين .

وقال اجزوما موضحاً : « إننى لم أذهب إلى منجم أبدا » .

ظل التجهم المصاحب للحيرة واضحاً على وجه جوهانز . وساءل اجزوما نفسه عما إذا كان جوهانز قد أدرك سبب السؤال ، فراح يتكلم ثانية وقال :

- لست أهاب العمل . المسألة فقط هو أنى أريد أفهم وأعرف ما سأفعله .

- ستفهم .. فليس من الصعب أن تتعلم . وزم شفتيه ورنا ببصره بعيدا . لقد كره الشوارع الخالية . وكره الصوت الذى كان يصدر عن أقدامهما ، فقد زاد من إحساسه بخواء الشوارع ، والكلام

يجعل الأمر أكثر سواء . وفتح اجزوما فاه ليتلكم ، ونظر إلى وجة جوهانز ، ثم عدل عن رأيه .

وخلفا جوهانسبرج وراءهما غير بعيد منهما . لقد كانت تماماً خلف مرتفع بسيط اعتلياه ، وكانا لا يزالان قادرين على رؤية أعلى الأبنية لو أنهما نظرا إليها . وكانت قمم نفايات المناجم الشاهقة قبالتهما . وتطلع إليها اجزوما ، فبدت له الآن عادية مألوفة ، وليس كما بدت يوم السبت ليلا حين شاهدها مع اليزا . كان فيها آنذاك شيء جميل مذهل وشامخ ، أما الآن فهى مجرد جبال مرتفعة من رمال . . ولم تعجبه .

وقال جوهانز : « هاهم بعض رجال فى طريقهم إلى المناجم » وأشار إليهم . فبص عليهم اجزوما .

وكان يمتد على يسارهما وعلى بعد قليل تحتهما ، طريق أملس مرصوف بالحصباء ، وحول منعطفه الأيسر موكب من رجال يسيرون . ولم يكن الصباح قد انفلق تماما ، وكان يتعذر تمييزهم كأى شىء حولهم سوى أنهم أناس سائرون .

وقال اجزوما : « إنهم كثيرون » .

- أجل .

- من أين قادمون ؟ .

- من المجمع السكنى . وجلس على العشب بعد أن قال ذلك ، فجلس اجزوما بجانبه ، وراح يشاهد طابور الرجال وهم يقتربون .

وقال جوهانز بتؤدة « المجمع السكنى فى لانجلاجت . كل عمال المنجم الأفارقة لابد وأن يعيشوا فى المجمعات السكنية » .

فسأله اجزوما : « وأنت ؟ » .

وساد صمت لفترة قصيرة . ودنا صف الرجال الطويل ، لكنه كان لايزال بعيدا عنهم بمسافة كبيرة . وأشار جوهانز إلى الصف وقال :

- إنهم ليسوا من أهل المدينة .. هم قادمون من المزارع ، وبعضهم من بلاد البرتغال ، وآخرون من روديسيا . جلبهم الرجل الأبيض . وهؤلاء المجلوبون لابد وأن يعيشوا فى المجمعات . إنه القانون الذى يسرى هنا . ولكنى قدمت إلى المدينة مثلك ، وأنا رئيس عمال رجل أبيض ، ولهذا لا أقيم فى المجمعات السكنية . هم لا يأخذون عمالا كثيرين من المدينة ، لأنهم لايحبونهم » .

- وهل سيأخذوننى ؟ .

وأومأ جوهانز برأسه . ثم أخذ يلوك شيئا من العشب . ولما اقترب الطابور نهض جوهانز (وتمطع) قائلا :

- هيا .. سوف نسير معهم .

وتبعه اجزوما هابطاً منحدرا بسيطاً ، وانتظر معا على جانب الطريق .

وسار فى مقدمة الطابور الطويل واحد من الاندونا . وهو شرطى مناجم أسود ، مهمته الحفاظ على النظام بين العمال . بينما سار آخرون من الاندونا على جانبى الصف ، كل واحد منهم يبعد عشر ياردات عن الآخر . وقد حملوا جميعا نبابيت ورماحاً رفيعة . وكان الرجال فى الصف يدندنون فى أثناء سيرهم . واجزوما يشاهد ذلك بفضول ثم سأل :

- لمــاذا يحمل هؤلاء الآخرون رماحا رفيعة ؟ .

وأجاب جوهانز: « إنه القانون » .

ومر الطابور بمحاذاتهــما فقال جوهــانز بصــوت عــال: « صباح الخير » .

وصاح الاندونا الذى يتقدم الطابور : « صباح الخير ياوليامسن ، كيف الحال فى المدينة ؟ » .

فأجاب جوهانز: « كالمعتاد » .

وسار الاثــنان بمحاذاة الطابور الزاحف ، وإن بقــيا على جــانب الطريق . وتطلع اجــزومــا إلى وجوه الرجــال الســائرين ، ولم يكن يرتسم على وجــه أى منهم سوى تعــبير باهت . ثم وقع بــصره على كهل يبتسم له فبادله الابتسام ، فحياه الكهل بيده .

وسأل اجزوما جوهانز : « من ذلك الرجل ؟ » .

ونظر جوهانز ثم هز رأسه . وعاود اجزوما النظر إلى الكهل .

وسأل اندونــا المقدمة وقــد علا صــوته فوق أصــوات وقع أقدام الزاحفين المكتومة الرتيبة « من صديقك هذا ياوليامسن ؟ » .

وأجاب جوهانز : « إنه يدعى اجزوما » .

فقال الاندونا بصوت مرتفع: « مرحى يا اجزوما » .

ورد اجزوما : « مرحى » . . وأدار عينيه إلى الكهل ، وكان فى عينى ذلك الرجل شىء مــا . . كان فيهمــا رسالة من نوع ما ، لكن

اجزوما عجز عن ادراكها فهز رأسه . وبصوت مرتفع سأل الاندونا: « أذاهب هو إلى المنجم ياوليامسن ؟ » .

- سيعمل مع الرجل الأحمر .

وانحرف الطريق ، وحين استقام ثانية استطاعا أن يشاهدا بوابات المنجم في مواجهتهما . ثم بدأت أولى خيوط شعاع الشمس تلوح في الشرق . وكان الصوت المكتوم الرتيب الصادر عن أحذية الرجال الزاحفين يوالى الدمدمة . وظهر في مؤخرة الطابور أثر الغبار المثار . وطغى فوق ذلك كله طنين الزاحفين .

وانفتحت البوابات وزحف داخلها الرجال . ومن مبنى منخفض سود الدخان جدرانه خرجت جماعة من البيض وأخذت تراقب الزاحفين المارين أمامها . واتجه الطابور يساراً واختفى خلف نفاية منجم وبعض الأبنية . وخبا صوت وقع الأقدام الزاحفة . ثم عاد الصوت من جديد ، لكنه جاء في هذه المرة من جهة اليمين . والتفت اجزوما ثمة طابورا آخر من الرجال ، فنظر إلى جوهانز .

فقال جوهانز: « نوبة الليل » .

وزحف الرجال خارجين عبر البوابة محاطين بالاندونا ، ويقود مسيرتهم الاندونا . وكانوا يشبهون تماما رجال الطابور الذى دخل . بيد أنه كان ثمة شيء آخر في هؤلاء الرجال .. شيء ما غريب عن الطابور الذى دخل . ونظر اجزوما عن كثب يحاول إدراك ذلك الشيء ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يمكن إدراكه ، ومع أنه كان موجودا ، إلا أنه لم يستطع اكتشافه . واختفى الطابور عند منعطف الطريق ، وبدأ صوت وقع الأقدام يخفت ، إلى أن اختفى . وقال

جوهانز: « انتظر هنا » ومضى إلى البوابة . وهناك ، خطا واحد من الاندونا إلى الأمام ، ورفع جوهانز ذراعيه وأبقاهما ممدودتين ، فتحسس الاندونا جيوبه ، ثم سار جوهانز خطوات بعده واختفى خلف مبنى منخفض .

وجاء رجلان من البيض ، كل منهما فوق دراجة بخارية إلى منعطف الطريق ، ففتح الاندونا لهما البوابة وعبراها بدراجتيهما . ووصلت بعد ذلك ثلاث سيارات عبرت البوابة الواحدة تلو الأخرى ، ثم جاء جوهانز وقال له :

- الرجل الأحمر لما يأت بعد . . سننتظر هنا .

ومن مكان ما خلف البوابات دوى انفجار أعقبته دمدمة ، فقفز اجزوما قائلا : « إنه مكان غريب » .

- ستتعلم أن تعرفه .

واندفعت دراجة بخارية حول منعطف الطريق وانطلقت مسرعة تجاه البوابات ، فقال جوهانز :

- ذلك هو رجلى الأبيض .

وفرمل الرجل الأبيض دراجته فانزلقت مسافة عشر ياردات كاملة قبل أن تتوقف تماما . ونهض الرجل الأبيض من فوق الدرجة وهو يضحك . كان طويلا عريضا مثل جوهانز ، لكنه كان أصغر منه سناً ، كما بدا أقوى ، وكانت آثار الضحك بادية على وجهه ، ولمعت عيناه فى مرح وقال :

- من هناك ياجونز ؟ . من ذلك الذى يشرف على العمال وأنت هنا ؟

ظللت عليهم .. وكل شيء على مايرام .

- يا للعجب ! إنك مفيق ياجوهانز . وخبطه على صدره وضحك .

وقال جوهانز وظل ابتسامة يعبر وجهه : « الشرطة حطمت كل شيء » .

وبكفيه ضرب الرجل الأبيض فخذيه وضحك . وفجأة توقف ونظر إلى اجزوما . وهنا صاح أحد الرجال البيض عند باب الغرفة التى سودها الدخان :

- هيا يا كريس .

فرد عليه كريس صائحا :« أنا قادم » .

وعاد يدير عينيه فى اجزوما ويتفحصه عن كثب .. ثم أحنى رأسه ورفع ذقنه وقال : « ومن هذا ؟ » .

ورد جوهانز : « يدعى اجزوما » .

وسأل كريس ورأسه مائل : « يابو ؟ » .

فقال اجزوما : « يابو » وابتسم .

وبادله الرجل الأبيض الابتسامة وفجأة انطلقت قبضة يده وهوت بشدة على صدر اجزوما ، فاتقدت عيناه ، وتراجع إلى الخلف بطريقة غريزية ، ورفع ذراعيه وتكورت كلتا يديه فى قبضتين شديدتين ، وبسرعة أمسك الرجل الأبيض بيديه ، ولمعت عيناه وقال :

- آسف يا اجـزوما ، أردت أن أختـبر رجـولتك « وربت على كتف جوهانز بمودة قائلا » هذا الشخص امرأة . لايكون رجلا فقط ، إلا حين يكون ثملا . . مضبوط ؟ » .

ومد كريس يده ، ويتـردد صافحه اجزومـا . وفتش كريس فى جيبه فوجد علبة سجائر أعطاها لجوهانز وقال :

- اقتسمها مع اجزوما . ويمكن أن تدخله ، سأتفاهم مع الرجل الأحمر .

وصـاح الرجل من الـكوخ المسـود من الدخـان ثانـيـة : «هيـا ياكريس» .

فصاح كريس : « قادم » وسار ناحية البوابة .

ونادى جوهانز « اسمع يا أبيض » .

وتوقف كريس واستدار .

- قل لذلك الرجل عند البوابة أن يسمح لاجزوما بالدخول .

فقال كريس: « وهو كذلك » .

ودخل البـوابة وتكلم مع الاندونا الواقف بالبـوابة ثم انضم إلى الرجال البيض فى الكوخ المسود من الدخان .

وقال جوهانز لاجزوما : « هيا . . الأمور الأن على مايرام » .

- ولكن أين الشـــخص ذو الرأس الأحـمـر ؟ لقـــد قلت إنى سأشتغل لديه .

- حين يقـول ذلـك الشـخص إن الأمر علـى ما يرام ، فـهـو كذلك ، لأنه صديق حميم للأحمر . . هيا .

وقاد جوهانز الطريق ودخلا البوابة ، وهنا أمسك الاندونا بذراع اجزوما فانتزع منه ذراعه .

فقال له جوهانز: « لابد أن يفتشك . . هذه هى التعليمات » .

ودفع الاندونا بذراعى اجزوما عاليا ، وقام هذا بمدهما مثلما فعل جوهانز ، فقد رآه يقوم بذلك . وتحسس الاندونا جيوبه ثم أومأ له برأسه . أنه فى الحقيقه لم يفحص . . ولكنها التعليمات .

وابتسم جوهانز وغض من بصره حين نظر إليه اجزوما . وفجأة ابتسم اجزوما كذلك ، ثم مضيا بعيدا .

وقال اجروما : « يعجبنى رجلك الأبيض » .

فقال جوهانز: « هو إنسان طيب » .

وسأل اجزوما : « هولندى ؟ » .

– أجل . ورجلك قادم من وراء البحار . تعال من هذا الطريق .

وقاد جوهانز خطى اجزوما إلى نافذة زجاجية صغيرة بها فتحة . ثم نقر على قاعدة هذه النافذة فظهر رجل أبيض .

وقال الرجل الأبيض: « نعم ؟ » .

فقال جوهانز : « معى نفر جديد » .

– لمجموعتك ؟ .

– لا . . للرجل الأحمر . . رئيس عمال .

- الأحمر لم يأت بعد .

- رجلى الأبيض قال ذلك .

- تعنى رئيسك ؟ .

- رجلى الأبيض .

وحملق رجل النافذة فى جوهانز ، فبادله جوهانز الحملقة فشتمه رجل النافذة ، حول ناظريه إلى اجزوما .

- ما اسمك ؟ .

- اجزوما .

- أين جواز مرورك ؟ .

وناوله اجزوما الجواز ، وانصرف الرجـل ، ثم عاد بعد فترة من الوقت بقطعـة من ورق صلب زرقاء اللون ، ودفع بـها إلى اجـزوما قائلا « احرص عليها تماما » .

وتناول اجزوما قطـعة الورق الصلبة وأخذ ينظر فيـها ، لكنه لم يستطع قراءة ماكتب عليها . وكان ما كتب هو :

تصريح للوطنى اجزوما قائد جماعة السيد بادى أوشيا

وسأل اجزوما : « وجواز مرورى ؟ » .

وأجاب رجل النافذة « بعد العمل » ثم انصرف .

وتبع اجزوما جوهانز وسارا حول المبنى إلى مكان فـيه مجموعة

من رجـال كانوا يحـملون عربات بـالرمل ثم يدفعـونها . وكـان فى حراسة هـذه الجماعـة الـتى تبـلـغ الخمسين اثنان من الاندونا ورجل أبيض .

وقال جوهانز لاجزوما : « ستعمل هنا اليوم » .

وأخـذه جوهانز إلـى الرجل الأبيض وأبلغـه أن اجزومـا رئيس جديد لعمال الرجل الأحمر . لكن اجزوما لم يشعر بميل تجاه الرجل الأبيض . كانت عيونه تشى بأنه واحد من أولئك البيض الذى يحبون ركلك ودفعك وسبك .

وحين انتـهى جوهانز من التـوضيح جـذب اجزوما وانتـحى به جانبـا وقال له : « هذا الرجل لايتمتع بالـطيبة . لكنك ستـبقى هنا اليوم فقط ، غيـر أن كل شىء سيكون على مايرام . وعليك ألا ترد عليه فيما لو أغضبك . وهذا الشخص الواقف هناك سيصحبك عندما يحين موعد تناول الطعام . والآن على أن انصرف ياإجزوما . . أتمنى لك حظا طيبا » .

وراقب اجزوما جوهانز وهو يبتعد ، وشاهده يصل إلى مجموعة من رجال كـانوا ينتظرونه عند باب مـصعد المنجم ، ونـاوله أحدهم غطاء رأس مثبـت به مصباح ، أضاءه جـوهانز ، ووضع الغطاء فوق رأسه ، ثم لوح للرجال بالاتجاه نحو المصعد ، ولحق بهم ، وانطلقت صافرة فتـحرك المصعد هابطاً إلى أن اختـفى عن الأنظار مخلفا وراءه فراغا كبيرا فى المكان الذى كـان يشغله . وكان اجزوما يعلم أن ذلك لابد أن يحـدث . ومع ذلك أحس أنه صـدم ، ودق قلبـه بعنف ، وابتلت يداه بالعرق .

- ياهذا .. أنت ! .

ووثب اجزوما ، ونظر إلى الرجل الأبيض الذى اتقدت عيناه غضبا .

- ادفع هذه .

وتطلع اجزوما إلى الرجل الأبيض ثم إلى الشاحنة المحملة ثم رفع ناظريه إلى المنحدر الشديد الذى يقع على امتداده الخط الحديدى ، ثم ارتد بصره إلى الرجل الأبيض . واحتج أقرب اندونا إلى اجزوما همسا ، وتوقفت الزمجرات فى حلوق بضعة رجال كانوا على مسافة أبعد .

وهمس رجل : « إنه لايعرف الطريقة » .

وهمس آخر : « هذا عمل رجلين » .

وصاح الرجل الأبيض : « اخرسا » .

وتوقفت الهمسات والدمدمة .

وتعجب اجزوما .. لم هو حانق على ! ثم سار متمهلا نحو الشاحنة ، فتنحى الرجلان اللذان كانا ينتويان دفعها جانبا . واستجمع اجزوما قواه قبالة جانب الشاحنة ، ثم وجه بصره ناحية الرجل الأبيض . وكان فى عينى هذا الرجل وميض غريب . ورأى اجزوما خلف الرجل الأبيض تماما رجل جوهانز الأبيض وواحدا آخر . وكان لهذا الآخر شعر أحمر . نعم .. هذا هو الشخص الأحمر . وارتسمت على وجهى هذين الرجلين تغييرات غريبة . لكنها لم تكن نفس التعبيرات المرتسمة على وجه الرجل الآخر الذى أمره بدفع العربة . وزغق فيه الرجل الأبيض « هيا » .

ودفع اجزوما الشاحنة فتحرك جزؤها الأعلى لكن العجلتين بقيتا فى نفس موضعهما .

وهمس رجل آخر فى غيظ : « اخفض » .

لقد بقى الطرف الذى دفعه يتحرك إلى الأمام ، وأخذت العربة تميل ، وأيقن اجزوما أنها ستنقلب فجذبها . وكان أن تحركت العجلات إلى الخلف ، ولكن العربة بقيت مائلة إلى الأمام . . إن لم يقم بعمل شىء ما سريعا فستنقلب العربة ويلقى بالرمل فوق الخط الحديدى . ورأى اجزوما النظرة المرتسمة على وجه الرجل الأبيض وبريق عينيه وبسمة التشفى على شفتيه . وهمس اجزوما « خنزيرا ! » واستجمع قواه ومد رجله اليسرى إلى الأمام حتى اندفع محور العجلتين نحو قصبة رجله ، عندئذ مال إلى الخلف وجذب بكل ما لديه من قوة جبارة . وأحس بجلد ساقه يتمزق ، وأن دما حاراً يسيل إلى كاحله . وتصلب فكاه وجذب بطريقة أشد ، وفجأة عادت العربة إلى وضعها الصحيح وانسابت حبات العرق على جبينه ، وتنفست زمرة المشاهدين الصعداء بشدة ، وابتسم اجزوما رغم الألم الذى شعر به فى ساقه ، ثم انحنى ووازن نفسه وأخذ يدفع العربة التى تحركت ببطء فوق القضبان . وصدرت ضحكات من كل ناحية ، ضحكات تتسم بالعصبية . وحدث اجزوما نفسه . . الأمر سهل لو تعرف الطريقة .

- اجزوما .

وتوقف اجزوما واستدار . . وكان ذلك هو رجل جوهانز الأبيض . وتكلم الرجل وأقبل رجلان آخران وقاما بدفع العربة .

وقال كريس : « تعال هنا » .

وأخذ اجزوما نفسا عميقا ، ودق قلبه بعنف ، وآلمته ساقه ، وأحس بضغط جبهته وأمسك كريس بذراعة ، وأحس اجزوما بأصابع الرجل الأبيض ترتعش . وكان فى عينى الرجل الأبيض رغبة شديدة فى الاقتتال .

وابتسم اجزوما وقال :« كل شىء على مايرام » .

فقال كريس وهو يتطلع إلى الرجل الأبيض الذى طلب من اجزوما أن يدفع العربة : « أنت رجل قوى ياجزوما . . ها هو الرجل قوى الأحمر . . وهو أيضا رجل جدا . هل أصبت ؟ » .

- إنه جرح بسيط فقط فى ساقى .

- أتسمح لى أن آراه ؟ .

ونزع اجزوما بنطلونه وكشف عن الجرح الدامى . فقال كريس :

- سيأخذك الاندونا إلى حيث يمكن تضميده .

ونظر اجزوما إلى الرجل الأحمر ولم يسترح لمرآه . كانت عيناه قاسيتين كابيتين ، لا أثر للضحك فيهما مثلما كان فى عينى كريس ، كما كان فمه صارما . واستقر فى ذهن اجزوما أنه رجل منصف وإن كان صارما .

وكان الرجل أقصر قليلا من كريس وإن كان أعرض منه ، ذقنه ممتدة وعيناه زرقاوان . وبسبب شعره الكث الأحمر سمى بالرجل الأحمر . ولفترة طويلة أخذ يحملق فى اجزوما دون أن يتفوه بكلمة

واحدة . ثم التفت إلى الرجل الأبيض الذى أمـر اجزوما بدفع العربة وقال له :

- هذا عاملى ، ولو كنت مكانك ما حـاولت ذلك ثانية . وكان صوته عميقا وخفيضا ، ثم التفت إلى اجزوما وقال له :

- لا أستطيع أن ألوى لسـانى لأنطق اسمك بطريقة صحـيحة ، ولهذا اسميك زوما . . . موافق ؟ .

وأومأ اجزومـا برأسه وساءل نفسه عـما إذا كانت البسـمة تعرف طريقهـا إلى وجه الرجل الأحمر فى أى وقت من الأوقـات . وابتسم كريس لاجزوما ، ومضى الرجلان الأبيضان ، ومن مكان ما انطلقت صافرة الخامسة والنصف .

* * *

كان اليوم بالنسبة لاجزوما غريبا ، بل إنه كان أكثر غرابة من أى يوم آخر مـر به . وكان ثمـة صوت دمـدمة وصـياح وانفـجارات ، واهتـزازات أرضية ، وصـياح دائم من رجـال الاندونا وهم يدفـعون الرجال إلى العمل . وكان ذلك كله النـظرات المؤلمة والقسوة التى ثمة فضلا عن تبدت مـن ذلك الرجل الأبيض الذى أمره بدفع العربة وهو لايعلم الوسيلة إلى ذلك .

بيد أن كل هذه الأشـياء لم تكن أسوأ مافى الأمر . كـلها كانت مربكـة ومخيـفة ، وكـانت الغرابة فى الأمـر كله هى التى روعـته ، وكذلك نظرة عيون الآخرين الذين كانـوا يعملون معه . ولقد سبق له أن رأى هذه النظرة حين كـان فى مـزارع مـوطنه . . رآها حين كـان

يرعى قطيعه ، وحين أقبل كلب بين القطيع وأخذ ينبح . لقد كانت عيون هؤلاء الرجال كعيون الأغنام التى لم تعرف مكاناً تفر إليه حين نبح الكلب . وكان هذا ما روعه .

وعندما أقبل لورى تواثب الرجال مبتعدين عن الطريق وجروا كالخراف . وكان الاندونا ، فضلا عن ذلك ، يشبه الراعى يحمل رمحا فى حين جلس الرجل الأبيض متشابك اليدين .

ومع واحد آخر دفع العربة فوق المنحدر . وكان الممر الذى لابد أن يسير فيه ضيقا ، وكان من الصعب أن يحفظا توازنهما جيدا ، وصاح الرجل الأبيض : « أسرعا » ووالى الاندونا الصياح . وراحت العربات الصغيرة المحملة بالرمال الناعمة الندية تدفع واحدة وراء الأخرى فوق المنحدر إلى حيث يتكون مستودع جديد لنفايات المنجم .

ولكن كلما أسرعوا فى نقل الرمل ، أسرعت الكومة فى النماء .. شحنة عربة تمضى وشحنة عربة أخرى تقبل من جوف الأرض .. وشحنة عربة أخرى تمضى وشحنة عربة أخرى تقبل وأخرى وأخرى ، وهكذا استمر الحال طوال اليوم بلا انقطاع .

ولهث الرجال وأحمرت عيونهم ، وسالت حبات العرق على جباههم ، وتصلبت عضلات أيديهم من الألم وهم يصارعون كومة الرمل الناعم الندى . لكن الرمل بقى كما هو . عربة تأتى من باطن الأرض ، وعربة تصعد لتكوم نفاية المنجم . وتأتى أخرى وتمضى أخرى .. طوال اليوم . وبسبب عرقهم ولهاثهم ، وبسبب أحمرار عيونهم وخواء نظراتهم المحدقة لم يكن ثمة شىء يرى .

لقد كانت الكومة فى الصباح كبيرة للغاية وهى الآن على نفس الحال ، لقد بدا أن نفاية المنجم لم تتم هى الأخرى . وكان هذا ما أفزع اجزوما .. رؤية عدم جدوى عمل الفرد .. هذا الإحباط الذى ينتاب الفرد بسبب الرمل الذى دائما رطبا ودافئا وبسبب نفاية المنجم التى لا تنمو ولاتزيد .. وبسبب عينى الرجل الأبيض القاسية .. ذلك الرجل الذى كان يستحثهم على الإسراع .

وأدى به هذا إلى شعور باليأس والقلق .. لقد عمل بنشاط زائد ، معتصرا قوته خلف العربة المعبأة ، لاهثًا خلف العربة الفارغة ، ومتطلعا باهتمام إلى النفاية لمعرفة أنها قد نمت وكبرت ، ومراقبًا الرمل المجروف من الأرض للاطمئنان على أنه يتناقص .. لكنه كان كما هو ، نفس الشيء طول الوقت .. لاشيء يتغير . بيد أن حوله فى كل مكان كانت الضوضاء المروعة المفزعة والصافرات المنطلقة .. وأصوات الانفجارات وهسيسها من باطن الأرض .. وهذه الأشياء التى كانت ترتطم برأسه حتى احمرت عيناه مثل عيون الآخرين .

وحين أطلقت الصافرة تعلن التوقف عن العمل لتناول الطعام ، نادى أحد الرجال اجزوما . وكان المنادى واحداً من الرجال الذين يعبئون العربات ، وقال لاجزوما : « إننى نانا ، ولسوف تتناول طعامك معى » .

ووجدا بقعة ظليلة وجلسا تحتها على الأرض . وفى كل مكان وجد الرجال أمكنة لهم تناولوا فيه طعامهم . وكان لكل واحد منهم نفس النوع من العلب الصغيرة ، وفى كل علبة قطعة من عصيدة جريش الذرة مطهوة مع قطعة من لحم وكسرة خبز مخلوط خشن

جداً ،فتحولت إلى كتلة صلبة . وقسم نانا طعامه بينه وبين اجزوما . ومسح اجزوما جبينه واستند إلى الجدار المموج للكوخ المسود من الدخان . وكان على اليسار نفاية منجم شديده الضخامة ، وعلى يده اليمين كانوا يفرغون الرمل طوال الصباح دون أن يروا نتيجة لذلك .

وتابع نانا عينى اجزوما وقال له: « الأمر يستغرق وقتا طويلا » .

- أمثل هذا يحدث كل يوم ؟ .

- كل يوم .

- أنه مكان غريب .

- العمل شاق حين تكون مستجدا ولكن لاباس به . وهو يسير على هذه الوتيرة مع الشخص الجديد . . فى البداية تشعر بخوف شديد لأنك تعمل وتعمل دون أن ترى نتيجة لعملك . وأنت تنظر وتتأمل ، وكلما نظرت لاترى شيئا ، وهذا يؤدى إلى الخوف ولكنك فى الغد تفكر . . حسن ، ليس هناك شىء يمكن التطلع إليه ، وأنت لن تطيل النظر كثيرا ، وعندئذ يقل الخوف ، بل إنك حتى بعد الغد يقل تطلعك ، ثم يقل أكثر بعد ذلك ، وفى النهاية تكف عن النظر كلية . وحينئذ يولى الخوف عنك . . وهكذا يسير الحال .

واعترض اجزوما : « لكن عيون الرجال » .

- عيون الرجال ؟ .

- أجل . . لقد شاهدتها . . أنها تشبه عيون الغنم .

ونظر نانا إلى اجزوما وابتسم ابتسامة ألانت وجهه ، وقللت من التجاعيد التى تحيط بفمه ثم قال: « ألسنا جميعا أغناما تتكلم ؟ » .

ولفترة من زمن راحا يأكلان فى صمت . وحين فرغا من طعامهما تمدد نانا على الأرض وأغمض عينيه . ثم أخذ الآخرون يتمددون الواحد تلو الآخر ، إلى أن انتهى الأمر بتمددهم جميعا .

وقال له نانا : « تمدد أنت كذلك ، فالتمدد يريح جسدك » .

واستجاب اجزوما .

- أفضل . . هيه ؟ .

- أجل .

- دع جسدك كله يرتخى تماما .

ومن مكان ما راح رجل يدندن بصوت خافت ، وانضم إليه آخرون . وكانت الدندنة خفيضة رقيقة رتيبة . واشترك اجزوما معهم . وأدى به هذا إلى شعور أشد بالارتياح . . لقد أحس أن التقلص آخذ فى الزوال عن جسمه ، وأن ألم ظهره بدأ يقل ، فأغمض عينيه . وغطت الدندنة على الضوضاء والهسهسة وأصوات الانفجارات . وفتح اجزوما عينيه وتطلع إلى السماء . . لقد كانت زرقاء من فوقه - وهى الآن خضراء فى موطنه فى الريف ، وهناك القطيع على سفح التل . وابتلت عيناه فجأة فجففهما بظهر يده بشدة . وسأل صاحبه بصوت مرتفع :

- وكيف الحال تحت الأرض ؟ .

وأدار نانا رأسه والتفت إليه قائلا : « البعض يحبون المكان والبعض لا يحبون » .

وانطلقت الصافرة ، فقد انتهت نصف الساعة ونهض الرجال و (تمطعوا) وفى تثاقل عادوا إلى عملهم . العربات تعبأ بالرمل الناعم الرطب ، والرجال يدفعونها ويفرغونها . وتخرج عربات أخرى من جوف الأرض محملة كذلك بالرمل الناعم الرطب الدافىء . . وهكذا يمضى العمل .

* * *

حين أخذت الشمس تميل نحو الغروب ، خرج الرجال الذين دخلوا باطن الأرض فى ذلك الصباح . . كانوا أمواجا تخرج من أحشاء الأرض . وشاهدهم اجزوما وهم قادمون يظللون أعينهم بأيديهم يحجبون عنها ضوء الشمس . فراح يسأل نانا :

- هل الدنيا مظلمة تحت الأرض ؟ .

نظر إليه نانا وضحك : « أتعتقد أن هناك شمسا ؟ .

ودفع اجزوما جاروفه بقوة ، فأحدث ارتطامه بالرمل الناعم الرطب الدافىء صوتاً . لقد ظل يدفع العربات فى النصف الثانى من يومه ويعبئها بالرمل ، وكان يطوح فى قوة إلى العربة بعبوة الجاروف من الرمل .

- اجزوما ! .

وكان جوهانز يشق طريقه بين حشد من الناس . ونظر اجزوما إلى الرجل الأبيض الذى كان مسئولاً عنهم وانتظر .

وقال جوهانز : « إيه . . كيف تسير الأمور ؟ » .

وقال نانا لجوهانز الذى لحق بهما : « هذا الرجل قوى » .

وصاح الرجل الأبيض المسئول : « وليامسن ! » .

وقال جوهانز بلا مبالاة : « الأحمر يريده » .

ورفع اجزوما بصره صوت سمع حين جوهانز . . لقد عادت رنة التبجح إلى صوته . وفي عينيه بدا وميض العجرفة كذلك ، وفكر اجزوما . . ولكنه كان تحت الأرض ! .

وقال الرجل الأبيض غاضبا : « كان ينبغي أن تأتي إلي أنا » .

وسأل جوهامز بازدراء : « لماذا ؟ » .

وتوجه الرجل الأبيض إلى جوهانز وسأله: « مع من تتكلم ؟ » .

وأجاب جوهانز وهو ينظر في وجه الرجل الأبيض « معك أنت » .

ووقفا يحملق كل منهما في الآخر ، وقد احمر وجه الرجل الأبيض من الغضب . أما جوهانز فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة تتسم باللامبالاة فبدت وكأنها تقول « اسمي جيه . ب . وليامسن ، ولسوف أسحقك ياخسيس » . ثم استدار الرجل الأبيض ومضى .

- وقاحتك ستوقعك في مشكلات ياكافيري .

وقال جوهانز ضاحكا : « تعال يا اجزوما » .

وطوح اجزوما الجاروف بعيدا وتبعه . واصطحبه جوهانز إلى سقيفة طبيب المنجم ، وهناك كان كريس وبادي .

وصاح كريس فجأة : « مرحى يااجزوما ! . كيف سارت الأمور معك ؟ .

وأجاب اجزوما : « حسنة » .

وكان بادى الرجل الأحمر صامتا .

وقال الطبيب: « تعال هنا ياﺍجزوما » .

وخلع اجزوما ملابسه واستلقى على طاولة ، وراح الطبيب يفحصه ، فى حين وقف كريس وبادى وجوهانز يراقبونه - وحين فرغ الطبيب طلب من اجزوما أن يرتدى ملابسه وقال : « قوى كالثور ، لكن لايزال نزوله فى الغد أمرا مخالفا للقواعد » .

فقال كريس: « سيرعاه جوهانز » .

- هذا ممكن . . لكنكما دائماً ما تخرقان القوانين ، ويوما ما ستواجهان مصاعب . لكن ماذا تقول أنت أيها الأيرلندى ؟ .

فأجاب بادى باقتضاب: « سيكون على ما يرام » .

فسأل الطبيب :« أتود النزول تحت الأرض يا اجزوما ؟ » .

ورد اجزوما بلهفة: « أجل » .

فضحك الطبيب قائلا: « وهو كذلك » .

وخرجا .

- اجزوما ! .

والتفت اجزوما إلى بادى وانتظر .

- اذهب لتغتسل ، ثم عد إلى قبل أن تمضى . . فاهم ؟ .

وأومأ اجزوما برأسه . ومشى الرجلان الأبيضان إلى الكوخ الصغير حيث يوجد الرجال البيض الآخرون . وأرشده جوهانز إلى مكان اغتسال عمال المنجم المحليين ، وأزاح حفنة من الرجال عن

الطريق وهو يجأر « اسـمى جيه . ب . وليامـسن » . وهز اجزوما رأسه وتبـعه . وأفسح الرجـال لهما مكان ، فـاغتسلا ثم خـرجا ، وانتظر اجزوما ريثمـا يذهب جوهانز إلى الكوخ ليدعو بادى . وحين أتيا كان كل من بادى وكريس قد اغتسل .

وقال كريس لجوهانز : « أحضر الدراجتين » .

وقال بادى لاجزوما: « هيا » .

وسار اجزوما وبادى إلى البوابة ، وعلى بعد مسافة قصيرة منهما سار كـريس . وكان جـوهلنز فى المؤخرة يدفع الدراجـتين . وكانت الشـمس تختـفى وراء الأفق . وعند منعطف الطريق أقـبل صف من رجال يزحفون إلى البوابة ، يقودهم رجال من الاندونا ويحيطون بهم من الجانبين . وارتفع صوت وقع أقـدامهم الزاحفة على الأرض . . ترامب . . ترامب . . ولما دخلوا البـوابة اتجهوا يسـارا وأختـفوا . بينما خرج صف آخر يسير فى إتجاه المجمع السكنى .

وقال بادى لاجـزوما « لو أشـتغلت معى فـلا أريد حمـاقات . العمل تحت الأرض شاق . لكن الأمر سـيصبح على ما يرام لو كنت عـاملا جـيداً . إنك سـوق تتولى أمـر العـمال المحليين الآخـرين . ستجعلهم يشتغلون ، وهذه وظـيفتك . وحتى تكون قائداً قديراً لابد أن تكون عامـلاً جيـداً . فلو كان عـملك رديئاً فسـوف تكون رئيس عمال سـيئاً . وأحيـاناً ما يكون العمال كـسالى ، وعندئذ لا بد من استـخدام قـبضة يـدك ، ويجب أن تركلهـم ، هذا هو الوضع هنا . ولهذا السبب أريد رجلاً قويا ، لكن القوة وحدها لا تكفى ، لابد أن تكون قائداً ، فالرجال لا ينقادون فحسب إلا لإنسان لا يعرف الخوف قبله ، فكن ذلك الرجل . سـيعمل تحت رياستك خمـسون رجلاً .

وسيحاول البعض اختبارك ليروا ما إذا كنت لين العريكة . وهؤلاء ينبغي سحقهم بقبضتك ، وإن لم تفعل فلن تكون صالحا . سيحقد البعض عليك لأنك جديد وترأستهم وأنت لا تعرف العمل ، وعليك أن تتعامل معهم ، ويجب أن تتعلم العمل بسرعة . وإذا كنت إنسانًا صالحًا صرت لك صديقا،أما إذا كنت غير ذلك أصبحت لك عدوا ، وهذا كل ما أردت أن أحدثك به . فهل هو كلام معقول ؟ » .

فأجاب أجزوما :« معقول » .

حسن جداً .

ومد بادى يده . . . بادى يده فصافحه اجزوما ، وكانت القبضة قبضة رجلين قويين .

– أمعك نقود ؟ .

– كلا يا ريس .

– لا تقل لى يا ريس هنا .

وأخرج بادى من جيبه لفة من أوراق نقدية أعطى منها ورقة لاجزوما وقال له :« لدى بعض أشياء قديمة تحت الأرض يمكنك ارتداؤها فى الصباح . وهذا كل ما فى الأمر » .

ووقفا ينتظران الثنائى الآخر . ثم ركب كل من الرجلين الأبيضين دراجته ، وانطلق الاثنان . وصاح كريس وهو يلتفت وراءه: « لا تفرط فى السكر يا جوهانز » .

ولوح له جوهانز وضحك ، ثم قال لاجزوما :« هيا بنا » وأنطلقا إلى مالاى كامب .

- ٥ -

حين وصل الاثنان إلى لياه ، كانت مجموعة من النسوة تغادر المكان . وكانت لياه تقف بالبوابة تراقب انصرافهن ويداها فى خصرها وعلى وجهها ابتسامة ساخرة وقالت :

- أهلا يا اجزوما . كيف تسير أمور العمل معك ؟ .

- على مايرام .

- أهلا ياجوهامز .

- ها أنذا يالياه ، اسمى جيه . ب . وليامسن ، وسأسحق أى خسيس . فقط أرنيه يا أخت لياه وسأسحقه من أجلك . اسمى جيه . ب ...

وضحكت لياه وربتت على يد اجزوما وقالت :

- مرة أخرى ! من أين حصل على الشراب ؟ . إنه يأتى هنا حين يكون خالى الوفاض . وحين يكون معه نقود يذهب إلى مكان آخر . أين ذهبتما يا اجزوما ؟ .

- جئنا إلى هنا مباشرة .

فقالت لياه : « ياسلام ! » .

وقال اجزوما : « كان على هذه الحال حين خرج من المنجم » .

- هذا صحيح يا أختى . إنها الحقيقة والله . إذ كان مع رجلى الأبيض تحت الأرض ، فقدم لى بعضا منه .

فسألته وهى تنظر إلى اجزوما : « أو أعجبك ؟ » .

- لابأس به .

- لكنك تبدو بائسا .

- لست كذلك .

فطقطقت لياه بلسانها وقالت : « لاتكذب على . قلت لك إنك تكون كالطفل مع الناس » .

وسأل اجزوما وهو يتطلع بعيدا : « من هؤلاء النسوة ؟ » .

فرفعت لياه أحد حاجبيها وابتسمت قائلة : « كلهن نسوة بائعات للجعة . حين يتم القبض على أحد يأتين سوياً ويجمعن نقوداً من بعضهن البعض ، ويكفلن المقبوض عليه ، وكان هؤلاء النسوة هنا ليجمعن نقوداً من أجل الذين قبض عليهم بالأمس . بيد أن الشرطة تعلم هذا ، ولن تكون ثمة غرامات » .

فقال اجزوما ونظره يتجه إلى نهاية الشارع: « فهمت » .

وتأملته لياه لحظة ، ثم التفتت نحو جوهانز وقالت له :« ادخل .. خليلتك موجودة ولو أنها مفيقة . وقل للأم بلانك أن تعد الطعام » .

وحين انصرف ، قالت لياه لاجزوما :« اجلس » .

وجلس الاثنان على دكة خشبية طويلة قائمة على الرصيف تجاه الحائط .

- مازلت تعتقد فى قرارة نفسك أن وجود هؤلاء الآخرين فى السجن كان بسبب خطأ ارتكبته .

وتعتقد أنه كان ينبغى أن أبلغهم بقدوم الشرطة يوم الأحد

للتفتيش . . هيه ؟ .

- الأمر لايعنينى . . فهذا شأنك .

- ولكنك فى قرارة نفسك تلومنى .

- من أنا حتى ألومك ؟ .

- ولكنك تلومنى . رأيت ذلك الآن فى عينيك حين أخبرتك عن هؤلاء النسوة . . هيه ؟ .

وأدار اجزوما رأسه ونظر إلى لياه . ولفترة طويلة أخذ كل منهما يحدق فى الآخر .

وقال اجزوما : « نعم أنا ألومك » .

- آه . . وهذا مايجعلك غير سعيد . لماذا ؟ .

- لقد كنت كريمة معى .

- ثم ماذا ؟ .

وهز اجزوما رأسه « لا أدرى ! . . لا أدرى ! . . دعينى وشأنى يا امرأة » .

وابتسمت لياه وراحت تحملق فى الفضاء . وبقيا هكذا فترة طويلة . وكان الشارع حولهما مفعما بالحياة . الناس يغدون ويروجون . والأطفال يلعبون فى مجارى المياه ، ويلتقطون قشر البرتقال القذر ويأكلونه .

وكانت حركة ملاى كامب النابضة فى الليل تسرى فى كل مكان .. دافئة .. كثيفة .. تخفق وتضطرب .. أناس يغنون .. وأناس يبكون .. وأناس يتعاركون .. وأناس يحبون .. وأناس يكرهون .. وآخرون حزانى .. وآخرون مرحون .. وآخرون مع رفاق .. وآخرون وحيدون بلا رفاق .. البعض يموتون .. والبعض يولدون .

- تقول إنك لاتدرى . أنا أدرى ياجزوما .. أنا أدرى .

ونظرت إليه ، وقد علت شفتيها ابتسامة باهتة وإن بدت نظراتها جادة . وهمست : « أنا أدرى » ثم تمالكت نفسها وتغيرت نبرات صوتها وهى تقول :

- اصغ إلى ياجزوما ، سأحاول ثانية أن أمكنك من أن تفهم . الحياة فى المدينة على هذه الحال . أنت تصارع طوال الوقت .. تصارع وتصارع .. فى نومك وفى صحوك . أنت تهتم بنفسك فقط . فإن لم تفعل ينتهى أمرك . ولو كنت لين العريكة سيبصق كل واحد على وجهك . سوف يسرقونك ، ويغشونك ، ويخدعونك ، ولهذا لابد أن تكون صلبا إن أردت أن تعيش هنا .. صلبا كالصخر . والمال هو أفضل صديق لك . بالمال يمكنك أن تشترى الشرطى . وبالمال تستطيع شراء إنسان ليسجن بدلاً منك ، هكذا تسير الحياة هنا يا اجزوما . قد تكون الحياة بذلك شيئاً طيباً ، وقد تكون شيئاً سيئاً . ولكنها على هذه الحال . ولكى يعيش الإنسان هنا عليه أن يفهمها . إنها ليست على هذه الصورة فى المكان الذى قدمت منه . أما هنا ، فهى هكذا .

وساد بينهما ثانية صمت طـويل . وظهرت النجوم ساطعة تتلألأ في السماء ، وعلا القمر في الفـضاء ، وكان يمضى مسرعا في طريق درب التـبانـة راحلاً تجـاه الشـرق . وأدارت روزيتـا التى تسكن في الجانب الآخر من الطريق حاكيها ، وخـرجت إلى الشرفة تهز ردفيها الكبيرين . وجاء صوتها عـبر الطريق يحيى لياه « هالو » ورفعت لياه بصرها مروعة وكذلك اجزوما .

وقالت ليـاه لاجزومــا :« يجـب أن تــدخل ، سيكون الطعام معدا » .

فقـال اجزومـا : « رجلى الأبيض أعطانى جنيهـا ، هل لك أن تأخذى شيئا منه نظير طعامى ومبيتى هنا ؟ » .

ونهضت ليـاه وحدقت فيـه من عل ، ثم أشاحت عنه بوجهـها وقالت فى غلظة :

- كلا ، يمكنك أن تسـدد لى حين يدفعون لك بطريقـة لائقة ، هيا .

ودخل الاثنان . . وكانت النار مـوقدة فى صفيـحة زيت برافين مـثقـوبة الجـوانب وسط المطبخ ، وحـولهـا جلس على الأرض الأم بلانك ودادى ورجل غريب لايعرفـه اجزوما ، والمرأة البدينة المتـقعة التى تسمى ليـزا السكيرة ، ولينا النحيلة الملونة ، وجـوهانز ، وامرأة أخرى كـانت أيضا غريبـة . ولم يكن مغيب العـقل من هؤلاء سوى دادى وجوهانز وليزا السكيرة .

وقال دادى : « آه . . اجزوما ياولدى . . ستقدم لى شرابا . . أو ليس كذلك ؟ لقد وعدتنى بذلك » .

وعلقت الأم بلانك وهى تدفعه: « إنه ثمل » .

وقال جوهانز: « اجزوما الخسيس » .

وقالت لينا :« اخرس يا جوهانز » .

فقال جوهانز : « خسيس » وحك وجهة بمفاصل أصابعه بعد أن كور يده .

وابتسمت لينا فى تسامح وكانت تبدو وسيمة جدا وهى مفيقة . ونظر إليها اجزوما . وكان من الصعب التصديق بأن هذه هى نفس المرأه التى شوهدت تهذب يوم السبت .

وقالت لياه وهى تشير إلى الرجل الغريب : « هذا صمويل ، وتلك هناك . . ميزى » .

وأومأ اجزوما برأسه للرجل والمرأة وكانت صغيرة ، بيد أنها لم تكن وسيمة وإن كانت عيناها تضحكان على الدوام ، وهو ما يلفت أنظار الناس إليها .

وقالت الأم بلانك وهى تنظر إلى اجزوما: « اليزا ليست هنا » .

فقالت لياه : « أمسكى عليك لسانك ياعجوز » .

فضحكت الأم بلانك قائلة: « توجد أخريات غيرها هنا . هيه يا اجزوما ؟ . قد أكون عجوزا ؟ . قد أكون عجوزا لكن الجواد المتمرس شىء جيد أيضا . أليس كذلك يا اجزوما ؟ » .

فقالت لياه : « أمسكى عليك لسانك وقدمى للرجل طعاما » .

نهضت الأم بلانك ضاحكة ، وراحت تغرف الطعام ، فغرفت لكل واحد صحنا . أما اجزوما فقد بقى يتطلع لينا . فقالت له التى كانت تتابع نظراته :

- إنها إنسان غريب . لها ابن يتعلم فى المدرسة ، ولسوف يكون مدرساً عما قريب . ولابنتها بيت جميل وزوج يشبه الرجل الأبيض . ولكنها هنا تعمل فى حانة امرأة سوداء لارخصة لها لقاء شئ بسيط من الجعة والطعام . غريبة . . هيه ؟ » .

وطأطأت لينا رأسها ، وامتلأت عيناها بالدموع . وبسرعة استدارت لياه نحوها وضمتها بين ذراعيها كما لو أنها كانت طفلة . وتعلقت بها لينا ، فأخذت لياه تميل بها يمنة ويسرة ، ثم راحت تحادثها برقة وقالت :

- لم أكن أقصد أن أكدرك ياصغيرتى ، وأنا آسفه لذلك . الأمر هين . . هين . . فكفى عن البكاء . أنت تعلمين أننى أحبك ، ولكنه ذلك اللسان البذىء الذى يجعلنى أتفوه بمثل هذه الأشياء . كفى الآن بكاء ، وجففى هذه الدموع .

وقالت لينا وهى مازالت تبكى: « ليس الخطأ خطأ أبنائى . لقد حاولوا مساعدتى » .

وقاطعتها لياه :« كفى . . كفى . . لاتقولى شيئا ، فالأمر لا يعنيهم ، والخطأ خطئى أنا . لقد تلبسنى شيطان جعلنى أهزأ بك . . فهل تسامحيننى ؟ » .

ولان وجـه ليـاه واتسم بالحنو وهى تنظر إلى المرأة الملونة الضئيلة . وأومأت لينا برأسها وشدت على يديها .

- حسن ، والآن تناولوا ، طعامكم ، كلكم .

وأحاط جوهانز رقبة لينا بذراعه وجذبها نحوه . وحاولت هى أن تقاومه ، لكنها كانت كالريشة بين يديه ، وضحك الآخرون حين رفعها وأجلسها فوق حجره .

وتساءل اجزوما وهو متجه بنظره إلى لياه: « لماذا فعلت ذلك ؟ » .

فقالت لياه: « أنت أردت أن تعرف » .

فقال فى نبرة غاضبة: « أنت قاسية » .

وهزت لياه كتفيها استهزاء وانصرفت . ودار الحديث فى الغرفة همساً . وحين انتهى اجزوما من طعامه غادر الغرفة . وفجأة أحس بالاستياء والتعاسة فذهب إلى الشرفة وأخذ يتفرج على ما فى الشارع ، وأنصت إلى ضوضائه ، حاول التعرف على أصحاب هذه الأصوات . وتساءل ترى أين تكون اليزا الآن ، وماذا تفعل ؟ وكيف حال الأهل فى موطنه ؟ ، وماذا يفعلون ؟ . ثم ضحك ، فمن الطبيعى أن يعرف ما يفعلونه الآن . فأهله وكل الناس الآخرون لابد وأن يكونوا الآن قابعين أمام نار ضخمة متاحة للجميع ، ولابد أنهم يتجاذبون أطراف الحديث ويرقصون . ولابد أن آخرين يشدون ، ولابد أن الشبان يلهون ، والكبار يشاهدون . ومن الطبيعى أن يعلم ما يفعلونه الآن فى موطنه .

لكن الأمر هنا مـختلف ، لايثق أحد . لياه قالـت أن الحياة هنا صراع دائم . وجوهانز يخشى أن يكون مفيقاً . ودادى لايفيق أبدا . والأم بلانك تتكلم بصـوت عـال وكأن بهـا مس من جنون . والمرأة النحلية لينا شـخصيـة حين تسكر ، وحين تفيق تصبح إنسـانا آخر ، وتكون شديدة التعاسة .

واليزا . . اليزا الجميلة التى تستطيع أن تدرك الـكثير جدا غمضة عين . .هى أيضا إنسان غريب جداً طالما تعـيد النظر إليها مرة أخرى . هو يشعر أنه يحبها ويشتهيـها ، ولكن شعوره هذا يجعله تعيسا ، ألم تقل ليـاه إنها تريد إنسـان يسـتطيع قراءة الكتب وارتداء مـلابس البيض والتحـدث بلغتهم ؟ . ولكن لياه قـالت أيضا أن اليزا تشتـهيه وإن عليه أن يقتحم عـرينها عنوة . ولكنه لن يفعل ذلك أبدا . وهذا العائق بينهما منعها من الإقبـال عليه بمحض إرادتها . لقد استقر رأيه وهو يحملق فى درب التبانة على أن وسائل المدينة غريبة حقا .

لقد قال القدامى أن من ماتوا يصيرون نجوما . وتساءل إن كانت أمه نجمـا ، وإنها الآن فى السماء ، وإنهـا تستطيع أن تراه « أمى . . أمى . . أأنت هناك بين النجوم ؟ أو يمكنك أن ترينني ؟ » .

وضحك ضحكة خافتـة . يا لحمقى وأنا أتحدث إلى النجوم ! . وذكره ذلك بكلبه الذى كان ينبح دائما على القـمر . وكأن القمر يأبه لنباحه . .

وخرجت مـيزى من الغـرفة ولحـقت به وقالت له :« أمـا زلت غاضبا ؟ » .

والتفت إليها . . وكان يرتسم حول فمها إمارات دعابة ، وكانت عيناها الضاحكتان لامعتين وقال: « لا » .

- أتحبها بشدة ؟ .

- أحب من ؟ .

- أعتقد أن هذا سبب غضبك .

- لا أفهم ما تقولين .

- لايهم . لياه أخبرتنى أنك جديد فى المدينة . كم مضى عليك هنا ؟ .

- جئت منذ أربعة أيام .

- من أين ؟ .

وكان صوتها أجشاً وغليظاً ، ولكنه مع ذلك كان يتسم بدفء جذاب .

- من الشمال ، فيما وراء زوتبانسبرج . وأنت . .؟ .

- ولدت هنا .

- فى المدينة ؟ . ونظر إليها بطريقة ملفتة فضحكت . . وأعجبه صوت ضحكها الأجش .

- أجل . . فى المدينة .

- ألم تذهبى أبدا إلى المزارع ؟ .

- أجل .

- الا تتوقين إلى المزارع أحيانا ؟ .

- كلا . . لم أذهب إطلاقا إلى مزرعة ، ولهذا لا أشعر بحنين إليها .

- وأنت . . ألست بائسة كهؤلاء الآخرين ؟ . . وهز رأسه فى اتجاه من هم بالداخل .

وضحكت ميزى ، ورنت ضحكاتها فى الخارج عالية وخشنة وودودة ، فالتفتت إليها رءوس امرأتين ورجل كانوا يسيرون عبر الشارع وابتسموا ، ولوحت لهم ميزى بيدها فلوحوا لها .

وسألها اجزوما : « من هؤلاء ؟ » .

- لاأدرى .

ونظر إليها . لقد ولدت هنا وضحكت حين سألها عما إذا كانت تعيسة . وأمسكت بذراعيه وتشبثت بها إلى أن انتهت نوبات الضحك . ثم تطلعت إلى وجهه وجففت دموعها .

- كلا يا اجزوما ، لست تعيسة ، فأنا لا أحب التعاسة . أحب أن أكون سعيدة . وأحب أن أضحك . ، فالضحك شئ جميل . . يصل إلى صوت أناس يرقصون عن الناصية . . هيا بنا نذهب هناك .

- لا .

فجذب ذراعه بقوة وقالت فى إغراء : « هيا يا اجزوما . . هيا بنا » .

- لا .

فتركت زراعــه وواجهـته : « أنـت واقـف فى انــتـظارها هنا ، هيه ؟ » .

- من ؟ .

- أنت تعـرف من أعنى . اليـزا . . ولـكنهـا لن ترضى بك . لست كفئـا لها . تلك المرأة تحسب نفسهـا ملكة . . إنها تريد الناس الذين يدخنون السيجار كالبيض ، ولديهم سيارات ويرتدون الحلل كل يوم . هيا يا اجـزوما . . لاتضيع وقتك مـعها . إنها سـوف تشمخ عليك لأنفـها . وأنا سـأريك شيئـا من اللهو ! . سـأريك أن المدينة يمكن أن تكون شيئاً جيداً . . هيا .

- إننى متعب . لقـد بدأت العمل فى المنجم اليوم ، ويجب أن أستريح .

- سوف نزيل هذا التعب . هيا .

وجذبته من الشـرفة إلى الشارع . واقترب ضـجيج الناس الذين يصفـقون ويغنـون . وتعلقت ميـزى بذراعه ، تهـز ردفيهـا وتخطو خطوات قصيـرة رشيقة وهى تسيـر معه متجـهين نحوبداية الشارع . وكانت من حين لآخر تتجاوزه وهى تلف حول نفـسها ، فيصدر عن فسـتانهـا حفيف ، ثم تنحـنى له فى رشاقة ، ثم ترقـص مرتدة إلى الوراء لتتـعلق بذراعه ثانية . وكان دفء مـتعة الحياة لديهـا من القوة بحيث انتقل إليه . ولمعت عيناه ، وابتسم لها .

وعند ناصية الشارع وتحت ضوء مصباح تحلقت جماعة من رجال ونساء . كانوا يصفقـون بأيديهم ويضربون الأرض بأقدامهم مع إيقاع

الحركة السريعة ، ويدندنون ، وكانت إحدى النساء تغني . وفي وسط الحلقة اثنان يرقصان . . رجل وامرأة ، ويتبادلان الإشارات ، ويتحادثان بلغة الحركات ، ثم يخطوان عائدين إلى المتحلقين ، ليتقدم اثنان آخران وسط الحلقة ، يتكلمان بأيديهما وأقدامهما وأردافهما وغمزات عيونهما . وطوال الوقت يردد المتحلقون كلمات الإطراء والتشجيع للراقصين . كما تغنى امرأة بصوت صاف جميل ، ويدندن الآخرون ويصفقون ويضربون الأرض بأقدامهم ، ثم تشرق الوجوه بالضحك والبهجة وتتمايل الأجساد .

وانضم اجزوما وميزى إلى الحلقة ، وشعر هو بالسعادة وبجانبه ميزى بعينيها الوضاءتين وأسنانها البراقة ، وكانت تصفق وتتمايل يمنة ويسرة ، وتشجعه . وصفق هو وتمايل ، وافتر ثغره عن أسنانه ، وزومات ميزى برأسها تعلن موافقتها .

وخطا اثنان إلى الحلقة . وبحركات آمرة دعا الرجل المرأة أن تقبل عليه وتجثو أمامه على ركبتيها . وبترفع وأنفة رقصت المرأة بعيدا عنه . وأمرها الرجل ثانية فتجاهلته . وحاول الإمساك بها ، ولكنها رقصت بعيدا عنه متفادية إياه . وصفق لها النسوة فى الحلقة استحسانا . أما هو فقد شجعه الرجال . واستجمع الرجل قوته ونهض واقفاً تمام ، وأمر المرأة وهو يشتعل غضباً أن تجثو أمامه ، وبدا الخوف يشع من عينيها إزاء غضبه . وارتعدت وأخذت تتحرك إلى الوراء فخطا الرجل إلى الأمام . وتراجعت المرأة ، وأمرها مرة أخرى ورعدة جسدها تزداد عنفاً . ومع انكماشها من شدة الخوف ، ظلت ترفض أن تجثو أمامه ، واندفع بعنف تجاهها ، فأجفلت وترنحت فى ألم ،

لكنها ظلت رافضة أن تستلم . وفى يأس انصرف الرجل ، فواساه الرجال الذين كانوا فى الحلقة ، فى حين شجعت النسوة المرأة على المقاومة ومع هذا كله ، كان صوت المرأة الصافى يشدو .

وفجأة عاد الرجل وراح يثب راقصاً أمام المرأة . إنه الآن يتوسل ويستعطف . لم يعد بعد يصدر أوامر . وفى استعطاف راح يجثو على ركبتيه ، ورقصت المرأة رقصة الفوز المفعمة بنشوة النصر . وانضمت إليها النسوة اللائى كن فى الحلقة يشاركنها فرحة النصر . وشاركه الرجل الإحساس بالذل الذى لاقاه .

وتتوقف فجأة رقصة الفوز . ويبود راحت ترقص أمامه وتتواثب فى استعطاف كذلك ، كما راحت تجثو على ركبتيها ، وبعدها تعانقا .. وتراجعا إلى الخلف ، ليخطو اثنان غيرها داخل الحلقة وفى وسطها .. وهكذا دواليك .

ويرفق لكزت ميزى اجزوما بمرفقها وأشارت إلى وسط الحلقة فضحك وأومأ برأسه . وانتظرا .. وحينما خلت الحلبة خطا الاثنان إلى الأمام . وحين فرغا ابتعدا قليلا عن الحلقة ووقفا يضحكان . وكان وجه اجزوما مبتلاً بالعرق ، فراحت ميزى تجففه بمنديلها . وتنفسا بصعوبة ، ومال كل منهما على الآخر .

وسألته : « أليس شيئا جميلاً أن تكون سعيدا ؟ » .

فقالت وهو يتطلع إلى عينيها الباسمتين: « بل إنه جميل جدا ، فلننضم إلى الحلقة ثانية » .

فقالت له وقد أمسكت بيده: « لا .. الوقت متأخر ويجب أن تستريح . وأنا أيضا على أن أذهب إلى عملى صباحا » .

- فترة صغيرة فقط . . هيه ؟ .

- كلا يا اجـزوما . فى البدايـة رفضت المجيء ، والآن لاتريد مغادرة المكان . ولكن لابد أن نغادره ، لأن الآخـرين سوف يبحثون عنك .

- أنا لست طفلاً .

فضحكت قائلة :« هيا » . . وجرته بعيدا عن الحلقة .

وكانت لياه فى الشرفة حـين عادا . وراحت تتأمل اجزوما ، ثم قالت لميزى: « جعلت الوجه المتجهم يضحكياميزى » .

- الأمر هين ، هو يريد إنسانا يضحك ليضحك هو الآخر أيضا . . أليس كذلك يا اجزوما ؟ .

فقال مبتسما :« هذه إنسانة مرحة » .

- ورقصى ؟ .

فقالت لياه بطريقة جافة :« هذه المرأة راغبة فيك يا اجزوما » .

فتساءلت ميزى: « وهل هذا شيء سيىء ؟ » .

فقالت لياه: « اسأليه » .

فتساءلت ميزى وهى تتأمل لياه بدقة : « أو تريدينه أنت ؟ » .

فضحكت ليـــاه وشمخت بـرأسهـا وقالت :« اسأليه عن ذلك أيضا » .

ضحكت ميـزى ضحكة عريضة ومدت يـدها تتأبط ذراع لياه ، فربتت لياه يدها ، ثم مدت يدها الأخرى وتأبطت ذراع اجزوما .

وقالت لياه :« لقد جاءت اليزا » .

وهنا انتزع اجـزوما ذراعـه ، ولكن ميزى به ، فـابتسـمت لياه وقالت : « سندخل » .

وفى أثناء دخولهم رفعت اليزا عينيها ، كان بجوارها شاب نحيل فى ثيـاب مهندمة ، يبدو معـتل الصحة . ثم راحت تنقل بصرها بين اجزومـا ومـيزى . ورأت كـيف كانت ميـزى تميل على اجـزوما ، فقالت :

– تبدين سعيدة جدا ياميزى .

– أنا بالفعل سـعيدة يا اليزا . كنت أرقص مع اجـزوما ، وهو يرقص رقصا جيدا ألم تراقصيه ؟ .

– نعم .

– ثم إنه قوى جدا معجبة به .

فحملقت اليزا فى ميزى ، فبادلتها ميزى الحملقة .

وسأل اجزوما :« أين جوهانز ؟ » .

فردت لياه :« نائم » .

وقالت اليزا :« هذا ندولا ، مدرس . . وقد خرجت معه » .

فسألتها ميزى : « وهل أمضيت وقتا طيبا ؟ » .

– نعم

– ونحن أيضا . أليس كذلك يا اجزوما ؟ .

- أوه . . أجل . كان وقتا طيبا جداً .

وهنا قالت لـياه :« إننى متـعبة وأريد أن أنام . أين ستنامين يا ميـزى . . مع اليزا أم مع اجزوما ؟ » . وكـان فى صوتها سـخرية تتسم بالازدراء . وتجاهلتها ميزى وقالت فى عذوبه: «سوف أقدر » .

وقـست نظرات ليـاه ثم لانت وضحكت قـائلة: « لسـانك هذا سيجر عليك المتاعب » .

فـقالت أجـزومـا :« طابت ليلتكم » ومـضى إلى الفناء ثم إلى الغرفـة الخلفية . وجلس على السـرير وأمسك رأسه بيـديه . . لقد خرجت اليـزا مع ذلك القرد السقيم الـذى يرتدى مـلابـس البيض . لماذ ؟ . . حتى يديه كانتا لينتين . لكن مـيزى طيبة . . استطاع أن يفهـما . . وقد غـمرته السعـادة لأول مرة منذ قـدومه إلى المدينة . وميزى هى التى كانت من وراء ذلك . لقد رقـصا ، وكان ذلك شيئا جمـيلا . . وكـانت هى إنسانة جـيده . . تلك المرأة . وكـان فـى يعيها إغراء . . كما كانت أيضـا رقيقة . . لم تسخر منه ، وعاونته فى أمور لم يكن يعـيها . . وهى ناعـمة الملمس دافئـة . . لو أنها كانت معه الآن لولت كل التعاسة . إنه يدرك ذلك . ورغم هذا فإنه يتـوق لاليزا البـاردة والتى خرجت مع رجل آخـر . وأطفأ الشـمعـة وجلس فى الظلام وأشعل سيجارة ثم سمع دقة على الباب :

- نعم ؟ .

- أنائم أنت ؟ .

وكان الصوت لاليزا .

- كلا .

- أيمكنى الدخول ؟ .

- أجل . . أدخلى .

ودخلت ، فتحسس جيوبه إلى أن عثر على علبه الثقاب .

- لا تشغل ضوءا . سأفتح النافذة التى خلف السرير ، ونستطيع بذلك أن نرى على ضوء القمر .

واصطدمت به ودارت حوله وفتحت النافذة ، فتدفق ضوء القمر إلى الغرفة واستطاع أن يرى حدود وجهها بالقرب منه .

- أو يمكن أن أجلس هنا ؟ .

- أجل .

وساد بينهما صمت لم يخدشه سوى تلك الضوضاء التى تأتى عبر النافذة من العالم الخارجى .

- كيف كان حال الرقص ؟ . وكان صوتها خافتاً .

- كان جيدا .

- وجهك كان يطفح بالسعادة حين دخلت ومعك ميزى تتأبط ذراعك .

- كنت سعيدا .

- أتحب ميزى ؟ .

- أجل . أستطيع فهمها ، وهى إنسانة ودودة . وكنت سعيدا لأنها حاولت أن تسعدنى .

- لياه تحبها كذلك ، فهى دائمة الضحك والناس يحبونها .

وساد الصمت بينهما مرة أخرى . وبلا قصد عبثت اليزا فى جيبها فوجدت سيجارة .

- أشعل لى السيجارة .

وأشعل اجزوما السيجارة .

- كيف وجدت المناجم ؟ .

- على خير ما يرام .

- وماذ فعلت ؟ .

- عاونت فى تكوين نفاية منجم لن يزيد حجمها .

- أكان عملا شاقًا ؟ .

- أجل ، ولكنه ليس شديد المشقة .

وكانت سيجارة اليزا تتوهج كلما جذبت منها نفسا . ثم تنهدت .

وسألها اجزوما: « لماذا جئت ؟ » .

فقالت بنعومة : « لأنى أردت ذلك » .

- لقد خرجت مع ذلك المدرس .

- وأنت رقصت مع ميزى .

- هذا لأنك لم تكونى هنا . لماذ جئت . . ألتحدعيننى ؟

- كلا ، جئت لأنى لم أكن أود المجىء ، ولكنى أوده فى نفس الوقت . . أوه . . أنت لا تفهم .

- ما هو ذلك الذى لا أفهمه ؟ .

إنه شيء ما فى نفسى . شئ ما صعب يسوقنى ، لا أدرى ما هو .ولكنى فى لحظة أكون هكذا ، وفى لحظة تالية أكون غير ذلك . فى لحظة أعرف ما أريد ، وفى لحظة تالية لا أعرف .

- وماذا تريدين الآن ؟ .

- لا أعرف . . جئت لأنى وددت أن أكون معك ، وأنا هنا الآن ومازلت بائسة . . ولكن الا تفهم ؟ .

- اقتربى . وكان صوته قويا .

وإزدادت منه اقترابا . فطوقها بذراعه وعانقها . وبدأ صلابة جسدها تلين فى بطء إلى أن رقدت قبالته فى هدوء . وتنهدت وأوت أقرب ما تكون إلى دائرة ذراعه ، وهمست :

- إنك لاتكرهنى ؟ .

- أجل .

- أنت معجب بى . . هيه ؟ .

- أجل .

- كثيرا ؟ .

- كثيرا جدا .

- لعلك تحبنى ؟ .

- ربما . . لست أدرى . . فأنت كالشيطان يجرى فى دمي .

- إننى أستطيع الضحك والرقص مثل ميزى تماما . انتظر وسوف أريك هذا يوما ما .

وطوقت رقبته بذراعيها وتعلقت به .

- إنك قوى جدا . . ضخم جدا . . وهو ما يبعث الدفء فى دمي يا اجزوما .

وقبلته قبلة دافئة قوية عاطفية نحوه واعتصرها اعتصارا . وأمسكت هى به بكل مالديها من قوة . وغرد قلبه . . إنها تحبه ! . وأحنى جسدها إلى الخلف ومال فوقها . ولمعت عيناها . وحين راح يتأمل لمعان عينيها لاحظ حزنا يزحف إليهما ، ثم تصلب جسدها ، ودفعت يده بعيدا عن فخذها ، ووثبت بعيدا عنه ، فتركها تبتعد عنه. وصرخت : « لا » ثم صرخت بأعلى صوتها : « لا . . لا . . لا ! » وارتمت على الفراش ورقدت ساكنة ، وأشعل اجزوما عود ثقاب أو قد به الشمعه . ونهضت هى من السرير ، ووضعت منديلها بين أسنانها ، وانسابت دموعها على وجهها ، ولكن لم يصدر عنها صوت . ثم حاولت أن تتكلم ولكنها لم تستطع ، فخرجت .

ولفترة طويلة جلس اجزوما يحملق فى الفضاء . ثم أطفأ الشمعة وأوى الفراش ، ولكنه لم يستطع النوم فاستلقى يحملق فى السماء عبر النافذة المفتوحة ، وينصت إلى الضوضاء التى راحت تتلاشى تدريجا إلى أن بدا وكان كل شئ قد خلد إلى النوم ، فيما

عدا المدينة التى كان طنينها يتـناهى إلى أذنيه . وانفتح الباب ودخلت اليزا ثانية وألقت بنفسها على السرير بجواره ، ولم يلتفت هو إليها .

وقالت بنعومة : « اجزوما » .

- نعم ؟ . .

أنا لست طيـبـة ولا أسـتطيع أن أصلح من أمـر نفـسى . ومن الصواب أن تكرهنى . ينبغى أن تضربنى . ولكن فى داخلى شىء ما خطأ ، ذلك أنى أريد أشيـاء البيض . . أشتهى أن أكـون كالبيض ، أذهب حيث يذهبون ، وأفعل الأشيـاء التى يفعلونها . وأنا سوداء ، ولا أستطيع دفـع ذلك . إحساسى الداخلى أنـى لست سوداء ، ولا أريد أن أكـون إنسانة سـوداء . . أن أكون كـما يكونون . . فـاهم يا اجزوما ؟ . إنه أمر مشين ، ولكنى لا أستطيع دفعه . إنه هكذا تماما . وهو ما يؤدى بى إلى إيلامك . . افهم أرجوك .

- كيف يمكننى أن أفهم ؟ .

وتنهدت اليزا ثم خرجت ثانية .

- ٦ -

ولى الدفء عن الجو ، وأقبل الشتاء بطيئاً على مالاى كامب وفريديدورب وجوهانسبرج . وأصبح النهار الآن بارداً والليل أشد برودة . وتدثر الناس وازدادوا التصاقا بمدافئهم التماساً للدفء . وكانوا ينامون قريبين من بعضهم البعض ليكونوا أكثر دفئا خاصة فى مالاى كامب وفريديدورب .

وقد مضى على اجزوما فى المدينة حتى الآن ثلاثة شهور . ومنذ أكثر من شهرين ترك محل لياه وسكن فى غرفة فى مالاى كامب . ولم ير لياه منذ غادر محلها . ولم يكن يرغب فى الذهاب هناك خشية أن يلتقى باليزا ، فهى كالشيطان يسرى فى دمه .. وهو لم يستطع نسيانها . كان يشعر برغبة فى رؤية لياه والآخرين كذلك . أليسوا هم أول أصدقاء له حين قدم إلى المدينة ؟ .. ألم يهيئا له الطعام والمأوى ؟ .. ولكن لخشيته من رؤية اليزا ، لم يكن يذهب هناك ويبقى بعيدا .

وفى هذه الليلة وحين قبع فى غرفته الباردة بلا مدفأة وبلا إنسان يتحدث معه ، تاقت نفسه إلى دفء مكان لياه والى إشراقة عينيها ، والى اللغو المخمور الذى يصدر عن دادى ، والى عينى الأم بلاتك الماكرتين اليقظتين اللتين تشاهدان كل شئ ولا تتفوه هى بشئ . بل إنه اشتاق حتى لرؤية لينا ، المرأة النحيلة الملونة التى كانت تشبه الطفل وهى إلى جوار جوهانز . اشتاق إليهم جميعا .. وشعر بانقباض ، واشتدت البرودة فى الغرفة ، فأشعل غليونه وراح يدخنه فى شراهة ،

ثم نهض وارتدى سترته وخرج . وأحس بقشعريرة حين لفح هواء الليل وجهه .

كان ذلك فى ليل يوم من أيام السبت . ورغم برودة الجو ، ازدحمت الشوارع وإن لم يكن كازدحام أول سبت ذهب فيه يتمشى مع جوزيف . وكان الناس يتحركون فى تثاقل وقد التصق بعضهم بالبعض . ولم يكن بوسعك أن تميز الأشداء منهم ؛ كانوا جميعا متدثرين وقاية من البرد ، ولم تقف عند نواصى الشوارع جماعات من الناس يدردشون . . فالجميع يتحركون . ومضى فى الشارع متجها إلى سرة جوهانسبرج . ومر باثنين تحت ضوء مصباح ، رجل يحيط امرأة بذراعيه ، وتضحك هى فى وجهه . فأشاح اجزوما بوجهه ومضى مسرعا . وكان فى كل مكان يرى أزواجا من الناس . . كل رجل يصحب امرأة . . والكل يسيرون متلاصقين اتقاء البرد ، وقد بدت السعادة على وجوههم . أما هو فكان يسير وحيداً .

وكان حذاؤه واهياً رقيقاً يتسرب منه البرد . وبدأت أصابع قدميه تؤلمه . وفكر وهو يتذكر كل الملابس التى منحه إياها رجله الأبيض . ليس الأمر بالغ السوء . ومر به آخرون ممن ليس لديهم حتى أحذية ، وكان الكثيرون بلا سترات . ويمكن للمرء أن يلمح إحساسهم بالبرد . . وهكذا لم يكن الأمر شديد السوء معه . ولكن حتى أولئك الذين كانت عيونهم تفضح شدة إحساسهم بالبرد ، لم يكونوا وحيدين . كان معظمهم يسير وفى صحبته امرأة ، وكان مع آخرين أصدقاء من الرجال . . هو فحسب ، كان يمشى وحيدا .

واقتـرب من سرة جـوهانسبـرج وأصبح الناس أقـل عددا . وإن وجد كـثير من البيـض فى ذلك الوقت ، وكانوا مخـتلفين لم يكونوا يمشـون كما يمـشى بنو جلدته . وبدا الأمر وكـأنه لاوجـود لهم فى الواقع . وتنحى جانبـا حتى يمروا . وسمع أصـواتهم ، لكنهم كانوا غرباء .. لم يتطلع ناحـيتهم أو يرقبهم بدقـة ليتبين مـايقولون وكيف كانت عيونهم تبدو ، وماإذا كانت نظرات المرأة التى تتعلق بذراع رجل تكن له حبا . لم يأبه بكل ذلك لأنهم ليسوا من بنى قومه .

ومر بواجهة مطعم .. فى داخله جلس أناس من البيض يتناولون الطعام ويتحدثون ويدخنون ويضحكون مع بعضهم البعض . وبدا جو المطعم دافـئاً ومريحـاً وجذاباً .. فـأشاح بوجهـه سريعـا . وكان فى واجهة أخرى كعك .. فوقف يطل عليه . وأحس بخبطة خفيفة على كتفـه ، فالتفت ليرى شـرطيا . ودون أن يتفوه بكلمـة واحدة سحب جواز مروره من جـيبه وقدمـه للشرطى ، فاطلع عليه وراح يـتفحص اجزومـا من رأسه إلى قـدميه ثم رد إليـه الجواز . وأدرك اجـزوما أن الشرطى كان ودودا .

- أين ذاهب يا اجزوما ؟ .

- أتمشى فقط .

- آ .. ها . لم لا تذهب إلى بـيـتك وتجلس أمـام المدفـأة مع جعتك ؟ .

وابتسم اجزوما وقال : «أتريدنى أن أذهب إلى السجن ؟ .

وضحك الشرطى وقال : «حسن ، لكن عليك أن تحسن من سلوكك» .

وراقبه اجزوما وهو يمضى عنه .. ليس إنسانا سيئاً ذلك الرجل .. ربما كان مستجداً . ثم واصل سيره فى الشارع ، وانعطف فى شارع إلوف ، وهو سرة المدينة . وكان الزحام شديداً ، والتحرك وسط هؤلاء البيض صعباً ، إذ كان على المرء أن يستمر فى التنحى جانباً ، وأن ينتبه إلى السيارات التى تمرق سريعا .

وابتسم اجزوما فى مرارة .. المكان الوحيد الذى يتمتع فيه بالحرية كاملة وهو ذلك المكان القابع تحت الأرض فى المناجم . هناك هو السيد .. هناك يعرف طريقه . هناك لم يشعر حتى بالخوف من الرجل الأبيض ، لأن الرجل الأبيض يعتمد عليه . هو رئيس العمال ، يصدر أوامره لعمال المنجم الآخرين .. وهم يؤدون له مالا يؤدونه لرجله الأبيض أو لأى رجل أبيض آخر ، ولقد أدرك ذلك واكتشفه بنفسه .. تحت الأرض يحترمه رجله الأبيض ويسأله المشورة قبل الشروع فى أى شئ . هذا هو الحال تحت الأرض .. حيث يشعر أنه فى بيته ، وأنه مطمئن النفس .. حتى رجله الأبيض كان يحاول أن يصادقه لأن عمال المنجم الآخرين كانوا شديدى الاحترام له . لكن أبيض وأسود لايمكن أن يتصادقا . إنهما يعملان معا ، وهذا كل مافى الأمر . وابتسم . إنه لا يروم الأشياء التى يتمتع بها الرجل الأبيض . لايريد أن يعقد صداقة معه . هو يشتغل له ، أجل ، ولكن هذا كل مافى الأمر . ثم ألا يحترمه الآخرون أكثر مما يحترمون جوهانز ؟ .. السبب فى ذلك يرجع الى أنه لايقول للرجل الأبيض

يا «ريس» ولكنه يعرف كيف يتعامل معه .

ثم راح يفكر فى اليزا ثانية . . وتلاشى من نفسه الشعور بالازدراء . لقد حاول أن ينساها ، ولكنها كانت محاولات غير مجدية ، فحنينه إليها يزداد يومًا بعد يوم . . بيد أنها تريد أن يكون لديها مالدى البيض . . الأمر الذى جعله يحنق على الرجل الأبيض .

- بصى يادى . . هاهو زوما! .

والتفت اجزوما ليرى رجله الأبيض ومعه امرأة ، وكانت السعادة تشع من عينيه ، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها عينى رجله الأبيض بادى تضحكان .

- أهلا يا زوما .

ومد بادى يده ، وتردد اجزوما ، ثم صافحها وابتسم . وكان الرجل الأحمر سكراناً .

- هذه فتاتى يازوما . مارأيك فى ذوقى ؟ . وضحك .

ونظر اجزوما إلى المرأة فابتسمت له ومدت له يدها . وتوقف المارة من البيض وأخذوا يلتفتون إليهم . وأحس اجزوما بالتعاسة ، وود لو أن الرجل الأحمر أخذ فتاته وانصرف . وصافح يد المرأة ، وكانت يدها صغيرة ناعمة الملمس .

وقالت : «هذا إذن زوما!» .

فقال بادى : «اسمه ياعزيزتى يبدأ بحرف اكس» .

فقالت : «الرجل الأحمر يتحدث عنك كثيرا يازوما» .

فقال : بادى «إننا نعوق حركـة المرور» وأمسك بيد اجزوما وسار به فى طريق صغير يبتعـد عن وسط المدينة ، ثم انحرف إلى ممر صغير وقال له : «اسكن هنا» .

فقالت : المرأة «دعه يصعد يا أحمر» .

فصاح بـادى متحمسـا : «فكرة جيدة ! . . تعال يـازوما سوف تتناول طعامك معنا ؟» .

فقال اجزوما : «كلا» .

– هيا . وأصر بادى ودفـعه بعض الشئ ناحية المصـعد . وحين خرجوا منه تقدمت المرأة وسارت بهما إلى الشقة .

فقال بادى : «هذا هو بيتى» .

وتطلع اجزوما حواليه ، ولم يكن قد رأى مكاناً كهذا من قبل . لم يكن به مدفأة ولكنه كان دافئاً .

وقالت المرأة : «اجلس يازوما» .

وجلس اجزوما على حـافة المقعد ، وخلعت المرأة مـعطفها ، ثم مضت إلى غـرفة أخرى . وتمدد بادى على أريكة وابتسم لاجـزوما . ثم عادت المرأة بثلاثة كئوس ، وقالت لاجزوما وهى تناوله كأسا منها : «هذا سيدفئك» ورفع بادى كأسه وقال :

– فى صحة زوما أحسن عامل منجم .

فقالت المرأة : «فى صحة زوما» وابتسمت له .

وتجرع بادى ودى كأسيهمـا . بينما جلس اجزوما ممسكا بكأسه . إنه مازال يشعر بنعومة يد المرأة فى كفه . كانت صغيرة جدا وناعمة . وكانت هى على قـدر من الملاحة التى تدعو للتطلع إليـها ، ولكنه لم يشأ أن يفعل ذلك .

وقالت له : «اشرب كأسك يازوما» .

وبعث الخمـر فيه الدفء . وأخذت منه المرأة الـكأس الفارغة ، وأدارت المذياع وقالت لبادى :

- كل الأشياء معدة . . فضعها على الترولى وأحضرها هنا .

وخرج بادى ، وأخـذ اجـزوما يفكـر . . الآن أدرك مـا تشتهـيه اليـزا . لكن هذه الأشيـاء للبيـض فقط . . ومن الحـمق أن نظن أننا قادرون على الحصـول عليها . وتطلع إلى كل مافـى الغرفة . أجل ، هى جميلة . فـوق أرضها سجاجـيد ، وفيها كتب ومـذياع . . أشياء جميلة فـى كل مكان . . رائعة . . كل شئ رائع . . إلا أنها جمـيعا مقتنيات الإنسان الأبيض . . والحمق كل الحمق اشتهاء مقتنيات البيض . كيف يتـأتى لأسود أن يحتـسى الخمر وأن يحـتفظ بالزجاجـة فوق المنضدة دون أن يخـشى رجال الشرطة ؟ . . كـيف يمكن للأسود أن يفعل ذلك وكـيف يمكن لاليزا أن تكون مثـل فـتاة الأحمر البـيضاء تلك ؟ . وتابعت دى عينيه وهما تجولان فى الغرفة فسألته :

- أو أعجبتك ؟ .

- هه ؟ . وبدا مرتاعاً .

فقالت : «أعنى الغرفة» .

فقال : «إنها رائعة» ونظر إليها .

وتطلعت إليه فى ود ، وحين ابتسمت ظهر على وجنتيها غمازتان كغمازتى اليزا تماما . وبدا له أن عينيها أدركتا ماكان يفكر فيه ، فحول ناظريه عنها .

وقالت هى : «الأحمر يريدك أن تكون له صديقا» .

وعاد اجزوما ينظر إليها ، ومرة أخرى بدا أنها أدركت كل مايدور بخاطره . وفى أثناء ماكان يتطلع إليها كانت الابتسامة تفترش وجهها ببطء .

وقال اجزوما : «إنه أبيض» .

وهنا تلاشت البسمة من وجهها وبدا الحزن فى عينيها . وفجأة أحس اجزوما بأسى ، وأدهشه أن يشعر بذلك تجاه إنسان أبيض . ولم يكن ثمة سبب لذلك .

وقالت : «ولهذا لايمكن أن تكونا صديقين» وكان فى عينيها نفس النظرة التى رآها مرات كثيرة فى عينى الأحمر .

وأقبل بادى بالطعام ، وشعر اجزوما بالارتباك . لكن بادى ودى راحا يتحدثان دون أن يلتفتا إليه . وسرعان ما نسى ارتباكه وراح يتناول الطعام . وحين فرغوا من طعامهم تجرعوا مزيدا من الخمر . وأخذ اجزوما وبادى يتحدثان عن المناجم والأمور المضحكة التى تحدث

هناك ، وسرعان ماأخذوا جميعا يضحكون . ونسى اجزوما فى الحال أنهـمـا من البيض ، وأنـه يتحـدث مع المرأة . ثم قـام بادى بحـمل الصحون وبقايا الطعام خارج الغرفة . ونظر اجزوما إلى المرأة ، وفجأة أحس برغبة فى أن يحكى لهـا عن اليزا . لكنه لم يدر من أين يبدأ . وناولته سيجارة ، وتناولت هى سيجارة أخرى . . واليزا تدخن كذلك . ونظر اجزوما إلى دى وابتسم .

- فيم ابتسامتك ؟ .

- فتاتى تدخن كذلك .

- وما العيب فى ذلك ؟ .

وصمت اجزوما .

- ما اسمها ؟ .

- اليزا . وأراد أن يحكى لها عندئذ ، لكن الكلمات تعثرت على لسانه .

وقالت : دى «احك لى» .

- عما أحكى ؟ .

- عما تريد أن تحكيه لى . الأحمر سيعود حالاً ، وأنا أدرى أنك لاتريده أن يسمع .

- إنك تعرفين كل شئ .

- لا . . لكنى لا أعرف هذا . احك لى .

وحدق اجزوما فيها النظر ، فبادلته النظرات وابتسمت .

- أنت إنسانة ممتازة .

- شكرا لك . أنا صديقة لك فاحك لى .

- إنها مدرسة وتريد أن تكون كالبيض . تود مكاناً كهذا المكان وملابس كملابسك . وتريد أن تفعل كل ما تفعلونه . وكل هذا حماقة بكل معنى الكلمة ، لأنها ليست بيضاء . ولكنها لاتستطيع السيطرة على نفسها ، وهذا مايجعلها تعيسة أحيانا .

- وأنت ؟ .

- ويتعسنى كذلك ، لأنها تريدنى ولا تريدنى ، بيد أنه أمر يتسم بالسخف .

- إنه ليس سخفا يازوما .

- إنها لا تستطيع امتلاك أشيائكم .

- ولكن أليس القلب هو نفس القلب يازوما ؟ .

- كلا . . إننى أهتم فحسب ببنى جلدتى .

- لا يازوما .

- بل إنه لكذلك ، ثم أين يوجد الخير فى التمنى ؟ .

- اسمع يازوما . . إننى بيضاء وفتاتك سوداء ، لكننا من داخلنا سواء . إنها تود الحصول على الأشياء التى ابتغيها ، وأنا أبتغى الأشياء التى تودها . إننى واليزا سواء فيما تنطوى عليه نفوسنا . فتاة سوداء

وفتاة بيضاء . . أما الباطن فسيان .

– نفس الشئ ؟ .

– نفس الشئ .

– لكن هذا خطأ .

– بل صواب ياروما . . أنا أدرى .

– كلا .

– نعم .

– لايمكن أن يكون الأمـر كذلك . إنك طيبـة ، ولكنه لايمكن أن يكون كذلك .

– إنه لكذلك . أنت لا تصدقنى ، ولكنه كذلك .

ودخل بادى ونظر اجزوما إلى دى ونهض واقفاً وقال :

– يجب أن أنصرف .

فقال بادى : «ليس الآن ياروما ، مازال الوقت مبكرا» .

وقالت : دى «هو فعلا كذلك ياروما» .

ونظـر بادى إلى دى ثم إلى زومـا وابتـسـم قائلاً : «أو تعـجبك فتاتى ؟» .

وابتســم اجزوما وقـال : «إنها إنســانة ممتازة ، وأنـت مـحظوظ يا أحمر» .

وقال بادى : «سأنزل معك أوصلك» .

وصافحت دى زوما ونظرت إلى عينيه وابتسمت .

- إننى على صواب .

- ربما .. وإن كنت لا أعتقد ذلك .

وتبع بادى إلى المصعد .

* * *

عاد بادى متمهلاً وأغلق الباب خلفه ، ودى تتابعه بنظراتها . واتجه إلى الأريكة وجذبها لتجلس إلى جواره ، ولف ذراعه حول كتفها ، وجلسا هكذا فترة من زمن . وأخيرا سألها :

- ما ظنك به ؟ .

- ماذا به يستحق منى التفكير ؟ .. إنه مجرد عامل منجم .

- إنه رفيق ممتاز .

- أجل ممتاز .. ولكنه ليس كائنا بشريا بعد .. مجرد عامل منجم . فتاته إنسانة ، وهو يعجز عن فهمها . إنه لايستطيع أن يدرك توقها إلى الأشياء التى أتوق إليها وأقتنيها . وثمة شئ آخر أنت مخطئ فيه يا أحمر .. وهو أنه لايكرهك . إنك فقط لست من نفس عالمه .

- هذا لغو بادى .

- تدبره بنفسك .

- هذا الرفيق إنسان مثلى .

- كلا يا أحمـر ، هو يرضى بما لن ترضى أنت به . وهذا سبب من الأسباب التى تجعله محبوباً جداً بين كل الآخرين من البيض . هو شخص يعتمد عليه ، لكنك لاتستطيع أن تقول نفس الشئ عن رئيس عمال كريس .

- أعتقد أنك مخطئة يادى .

وابتسمت فى مرارة ونظرت إليه وقالت :

- نعم . . أدرى يا أحـمـر ، فـالرجل هـو الرجل فى كل هذه الأمور . الرجل هو الرجل فى إصراره على فرض رأيه على الآخرين ، لكن لايوجد ما يمكن الجزم به فى عامل منجمك . ثمة خلط وارتباك وتسليم ، ولاشئ أكثر من هذا . آه . . هو آدمى . . لا بأس . . فهو يتكلم ، ويتناول الطعام ، ويحس ، ويفكر ، ويشعر بالوحدة ، وهذا كل مافى الأمر .

- لديه كرامة وكبرياء .

- ولدى الحيوان ذلك يـا أحمـر . لقـد أخطأت فى كل هذا . فالإنسان لم يبرز بعد فى (روماك) هذا ، وهو لذلك يبدو جميلا وقويا وكـامـلا ولديه كـرامـة ، وأنت لذلك تقـول بأن ذلك هو مـواطنك مستقبلاً . وليس هذا صحيحاً .

ونظر إليها بادى وقد تكدر وجهه . وظلا صامتين فترة طويلة من زمن ، ثم نهضت دى وذهبت إلى المطبخ فصاح بادى :

- إنك تعقدين الأمور يا دى ، تجعلينها تبدو وكأنه لا أمل فى أى مكان .

وضحكت دى ، وكان لصوت ضحكاتها حلاوة وقالت :

- لن أعاشر ايرلنديا أبدا مرة أخرى ، فأنت بين لحظة وأخرى تكون على طرفى نقيض .

- كونى جادة يا دى .

وران صمت على المطبخ ، وانتظر ، ثم جاءه صوتها . . وئيداً متردداً ، ولكنه كان يتسم حقيقة بالواقعية الشديدة .

- لدى كثير من الناس ممن يعدون أنفسهم تقدميين أفكارهم الغريبة عن المواطن الأصلى ، لكنهم جميعا يشتركون فى شئ واحد . فهم يريدون أن يحددوا من هو المواطن الأصلى الصالح ، ويرغبون فى أن يقوموا من أجله بأشياء حميدة . إنك تدرك ما أعنيه . هم يريدون أن يمسكوا بزمام أمره . . أن يحددوا له مايقوم به . . وأن يفكروا نيابة عنه ، وعليه أن يتقبل أفكارهم . وهم يحبونه أن يعتمد عليهم ، و (زوماك) هذا يشكل مواطنا أصليا صالحا ممتازا للتقدميين . . وهذا سبب حبكم له .

- ليس هذا صحيحا يا دى ، وأراك فى هذا غير منصفة .

- آسفة يا أحمر ، ولكنى أؤمن بذلك بصدق .

- نظريتك الواهنة على أية حال لا تصدق مع زوما ، فهو لايكن لى وداً .

- أجل ، تلك هى العقبة الوحيدة وإن كانت لا تثبت أى شئ ، عـلاوة على أنه ليس معـاديا لك ، أنتـما فـقط تنتمـيان إلى عـالمين مختلفين . والمسألة برمتـها أن المواطن الأصلى الذى يتوق إلى الأشياء التى يقتنيها البيض مشكوك فى أمره إن لم يطلبها من القيادة .

وعادت دى إلى الغرفة وجلست فى مواجهته فقال لها : «ثم ؟» .

- ثم لا شئ .

- إن هذا يخلف إلى حد ما وضعا ميئوساً منه بالنسبة لأصحابك الذين يفترض أنهم تقدميون .

- أجل .. إلى أن يقبلوا حـقيقة أن الوطنيـين يمكنهـم أن يتولوا القيادة ، لا قيادة أنفسهـم فحسب ، بل وقيادة البيض كذلك .

- وماذا عن زوما ؟ .

- إننى أكـثر اهتـماما بفـتاته . إنـها تحس بالرغـبة .. وتشـعر بالاستياء ، فهى حيوان اجتماعى ، أما هو فليس كذلك .

- أنت مخطئة يا دى . فالفتاة مأسـاة بالفعل . أما بالنسبة لزوما فمازال ثمة أمل . إنك تترجمين أمانيك إلى حقائق . ولايكفى مجرد الرغبة والاستياء .

- ولكنهما شعوران إنسانيان .

- أجل ياعزيزتى .. إنهـما شعوران إنسانيـان . ولكن حتى هذا غير كـاف . إنك تستطيعين السخـرية بشدة كما تحـبين ، لكـن زوما قوى ، والقوة مهمـة . والشئ الذى يفـوتك أنه إنســان مثـل فتاته

أو مثلى أو مثلك ، ولسوف توقظه هذه الإنسانة ذاتها . . اسخرى قدر ماتشائين من التقدميين أصحابك يادى ، ولكنى استحلفك بالله أن تؤمني ببنى البشر . لا يكفى أن تهدمى ، ولكن يجب أن تبنى كذلك . كونى ذخيرة من الإيمان فى قلبك بالمواطن زوما ، عامل المنجم ، الذى ليس لديه وعي اجتماعى ، والذى لايستطيع القراءة أو الكتابة ، ولايستطيع إدراك رغبة فتاته فيما ترغبين أنت فيه ، وسأحكى لك شيئا ياعزيزتى . فى أول يوم وصل فيه إلى المناجم طلب منه سميد أن يدفع عربة لم يكن يدرى أى شئ عنها . . .» .

* * *

شعر اجزوما بالسعادة حين بعد عن الشخصين الأبيضين . لم يكن الجو هناك مريحا . وكلما حاولا إدخال الاطمئنان إلى نفسه وتخليصه من الارتباك ، ازداد الأمر صعوبة لديه . بيد أن الأمر مع المرأة فقط ، لم يكن شديد السوء . فقد كان لديها وعى كبير إلى حد بعيد ، وحكمة عظيمة . ثم إنه شاهد الأحمر يبتسم له هذه المرة فقط . وعندما كان وحده مع المرأة ، شعر بالارتياح تماما . وتعجب . . ترى ما الذى دعاه إلى أن يحكى لها عن إليزا ! . ربما كان ذلك لأنها تعى وأنها حكيمة إلى حد بعيد . ولكنها لايمكن أن تكون شديدة الحكمة . ألم تقل عن رغبة اليزا فى اقتناء الأشياء التى يقتنيها البيض أنها أمر طيب ؟ . . وهذا سخف ، لأن اليزا لاتستطيع أبدا اقتناء هذه الأشياء . لكنها أشياء جيدة . لقد شاهدها بعينى رأسه ، وأدرك الآن لم كانت اليزا تشتهى هذه الأشياء . إنه يعرف الآن ماتريده . وقد أدت هذه المعرفة إلى جعل الأمور أقل صعوبة على نفسه .

وعبر الشارع واتخذ طريقه منطلقا إلى مالاى كامب . ولم يكن البرد الآن شديد السوء . وكان الطعام الذى قدماه له جيداً ، ولكنه لم يكن يحتاج إلى مضغ . لم تكن فيه ذرة مطحونة ، وطعام دون ذرة مطحونة أو قطع من الخبز لايشبع الإنسان تماما . وابتسم . . كانا رقيقين . . وقد أضمرا شعوراً رقيقا . وهذا الأحمر محظوظ تماما لاقتنائه هذه المرأة التى كانت ودودة حتى مع شخص أسود .

وكانت هى ودودة بطريقة مختلفة عن الرجل الأحمر . مع الرجل الأحمر يشعر الإنسان أنه يريدك أن تثق فيه وأن تلجأ إليه حين توجد مشكلة . ومن الصعب أن تكون ودودا مع شخص أبيض كهذا ، وكان الأمر مختلفا مع المرأة . حين تسأل عن أفكار امرأة لايكون فى رأسها شئ تخفيه ، ومن ثم يمكن أن يتحدث معها .

وبالتدريج أحس أنه خلف وراءه سرة المدينة ، وأن أعداد البيض تناقصت ، وأنه يرى أبناء جلدته فقط يزدادون كثرة ، وأن شعوره بالانتباه وتعديل مساره لإفساح الطريق قد زايله أكثر فأكثر . لقد كان الآن يصطدم بأبناء قومه فى أثناء سيره دون أن يفسح الطريق لأحد . كان يرتطم بهم ويحس بدفئهم ورقتهم . كان الحال هنا على مايرام . وكان هذا مالاى كامب . وكانت مجموعة البيض القليلة هنا من السوريين الذين يبيعون الخمر للسود وللملونين . ولم يكن أحد يعاملهم معاملة البيض . والسبب فى هذا هو أن بعض نسائهم كان لهم معاملات مع السود من الرجال . وكانوا جميعا مأمونى الجانب . وانعطف هابطا إلى شارع جبه . وفى نهاية الشارع وقفت جمهرة من الناس ، كانوا يتطلعون إلى أعلى . وهبط مسرعا ، وحين وصل

إليـهم وقف ورفع بصـره ، لكنه لم يشـاهد شيـئـا . فسـأل رجـلاً بجواره :

- ماذا هناك ؟ .

فقال الرجل : «لا أدرى» .

وابتعد اجزوما وهو لايـزال يتطلع إلى أسطح البيوت ، ثم التقى بامرأة .

- ماذا هناك ؟ .

فقالت المرأة : «ثمة رجل فوق تطارده الشرطة» .

- أين ؟ .

وأشـارت المرأة ، فـتطلع بدقـة . أجل . . هاهو هناك . وكـان يزحف فـوق سطح مـائل ، ومن خلفـه وعلى مقـربة منه شـرطى . وحبس اجزومـا أنفاسه . لقد كان السطح ينحدر بشـدة ، وأية حركة خاطئة سوف تهوى بالرجل إلى أسفل ، فـيلقى حتفه أو تتكسر عظام جسده . وكان الشرطى معـرضا لنفس الخطر . وصدرت عن الجمهور صرخـة فزع . وفقـد الرجل السيطرة على نفـسه ، وراح ينزلق ببطء فوق السطح المائل . كان يهبط . . يهبط . . حتى صار الآن عند حافة السطح . إن لم يستطع أن يتوقف فسوف يسقط على الأرض . هاهى رجل تدلت . . ثم الرجل الثانيـة . وهاهو الآخر . . إنه على وشك السقـوط . وحبس اجـزوما أنفاسـه ، وراح قلبه يخـفق بعنف . ثم أمسك الرجل حافة السطح بكلتـا يديه وأخذ يتأرجح . وسادت الناس موجة من خوف . . وازداد الشرطى اقتراباً من الحافة .

وحدث صخب بين الناس ، وشق رجل نحيل أنيق الملبس طريقه إلى الصفوف الأمامية . وكان يرتدى ملابس كملابس البيض ، ويتصرف فى مسلكه تصرف البيض . لقد دفع الناس بعيدا عن الطريق . وبشعور معاد حول الناس نظرتهم من المتأرجح على ذلك الجانب من السطح إلى ذلك الرجل . وأخذ كل واحد منهم يسأل الآخر «من هو؟» وتساءل آخرون أيضا «وماذا يظن فى نفسه ؟» وهمس واحد لآخر «إنه الدكتور . . الدكتور مينى» وسرى الهمس بين الجمهور ، فتطلع اجزوما إلى الدكتور . ورفع الدكتور بصره محملقا فى الرجل المتأرجح .

- من هو ؟ .

ولم يتلق ردا . فتكلم ثانية بصوته الحاد الرفيع :

- ماذا فعل ؟ ألم يشاهد أحد منكم شيئا ؟ .

فقال رجل رث الثياب بغضب : «كان يلعب النرد» .

وصرخت امرأة ، فالشرطى الذى كان يقترب منه لحق به شرطى آخر . كلاهما كانا يشتدان قربا منه بحذر وفى تمهل . بيد أن هذا لم يكن سبب صراخ المرأة ، إذ إنها شاهدت انفلات إحدى يدى الرجل . هو الآن يمسك بيد واحدة فقط ، وتوتر الجمهور . . هذا هو القتل . وبحركة آلية تقدموا إلى الأمام كتلة واحدة ، وكان الدكتور يتقدمهم . واندفع اجزوما إلى الأمام . ثم فك الرجل المعلق بين السماء والأرض قبضته ، كما لو أن التعب حل به . وصدرت عن الجمهور تنهيدات

متـوالية . . ففى لحظة كـان الرجل فى الفضـاء ، ثم سقط فى ارتطام مكتوم على الأرض . ولبرهة قصيرة ظل الرجل ساكنا فى البقعة التى سقط فيها . وتسمر الناس فى مكانهم .

ثم تحرك الرجل ، فانفـرط عقد الجمهور ثانية . وتـقدم الدكتور مسرعاً وجثا بجواره . وضغط الجمهور وهو يتحلق قريبا منهما .

فقال الدكتور «أتيحوا له منفذا للهواء» .

وأزاح اجزوما الجمهـور إلى الخلف وهو يردد : «أتيحوا له منفذا للهواء» .

وتحسس الدكتور جسم الرجل كـله ثم قال : «لا بأس به ، فيما عدا حدوث كسر فقط فى ذراعه . ونظر إلى اجزوما .

وقال الرجل همسا : «أعينونى على الانصراف من هنا» .

وفجأة تفـرق الجمهور وتراجع إلى الوراء ، فـاندفع بينهم رجال شرطة ، وصاح من فى المقدمة «تراجعوا إلى الخلف» .

وتراجع اجـزومـا مع الجـمهـور إلى الخلـف ، ولم يبق سـوى الدكتور .

وقال الشرطى للدكتور : «أنت ! . . ألم تسمع ؟» .

ونهض الدكتـور وتطلـع إلى الشرطى ، ثم قـال : «أنا الدكـتور مينى» .

وضحك الشـرطى ، واندفع آخر من ورائه وصفع الدكـتور على وجهه . وكور اجزوما قبضته وأخذ نفسا عميقا .

وقال الدكتور : «سنرى عاقبة هذا» .

ومرة أخرى رفع الشرطى الثانى يده ، فقال شرطى آخر وهو يخطو إلى الأمام :

- من الأفضل ألا تضربه ، فهو دكتور .

ونظر الآخران كلاهما إلى الشرطى الأكبر سنًا ، وقد بدا فى عيونهما عدم التصديق .

فقال الأكبر سناً : «هذا حقيقى» .

وقال الدكتور وهو ينظر للشرطى الأكبر سناً «أريد أن أصحب هذا الرجل معى . ذراعه مكسورة على نحو خطير ، وهو فى حاجة إلى رعاية» .

فقال الشرطى الأول : «لا مدعاة لهذا الخوف اللعين . . سيذهب إلى المكان الذى يلائمه . . إلى السجن» .

وأخرج الدكتور بطاقة وناولها للشرطى الأكبر سنًا وقال : «إننى أعمل بالمستشفى العام ، وهذا عنوان بيتى فيما لو أردتنى . سآخذ هذا الرجل معى ، ويمكنك أن تأتى لتأخذه خلال ساعة واحدة من زمن . وحين تأتى أريد أن أشكو هذا الرجل لاعتدائه على» .

ونظر رجال الشرطة إلى بعضهم البعض فى ارتباك . وكان فى عينى الأول نظرة عنيدة ، فى حين بدا الخوف فى عينى الثانى . وبدا الشرطى الأكبر سناً متعبا ومكدودا . وتناول البطاقة من يد الدكتور وأومأ برأسه . وفغر الشرطى الأول فاه ، وهز الثانى رأسه ، وبقى الأول صامتا .

وقال الدكتور «أما من أحد يعيننى على حمله إلى سيارتى ؟» .

واستدار الشرطى الأول كالبندول وتطلع إلى الجمهور . وكان فى نظراته وعيـد ، وأمسك بهراوته مهـددا ، فبقى الجمـهور فى مكانه . وحاول الدكتور أن يرفع الرجل ولكنه لم يستطع ، فأخذ اجزوما نفسا عميقا وكـور قبضتيه وخطا إلى الأمام . فأحكم الشـرطى قبضته على هراوته ولوح بها من جـانب إلى آخر ، وحملق فى اجزومـا بشدة ، فبادله الحملقة وظل يتقدم ، واندفع متجاوزا الشرطى .

ورفع الدكتور ناظريه إليه وابتسم :

- ارفعه ولكن كن حريصا على تلك الذراع .

فقال الشرطى وهو ينخس اجزوما بهراوه : «لحظة واحدة» .

ونهض اجزوما وجسده ينتفض ، وقبضتـاه مضمومتان وقد تحولتا إلى كرتين صلبتين .

- أين جواز مرورك ؟ . . أرنيه .

وأخرج اجـزوما جواز مروره وقـدمه إلى الشرطى ، فـتطلع إليه فترة طويلة ثم رده إليه . ورفع اجزومـا الجريح ، وأفسح الجمهور ممراً تقدم فـيه الدكتـور ، وتبعه اجـزوما ، وفتح الدكـتور سيـارته وعاون اجزوما على أن يريح الرجل بلطف على المقعد الخلفى .

- أو يمكنك أن تأتى معى لتساعدنى على إدخاله إلى بيتى ؟ .

وأومأ اجزوما برأسه .

- ادخل إلى جواره وأمسكه حتى لا ترتطم ذراعه بأى شئ .

وأغلق الدكتور الباب وجلس هو فى المقعد الأمامى وأدار السيارة . وقبل أن تتحرك أدار الدكتور عينيه وراح يتطلع إلى المكان الذى كان يقف فيه الجمهور ، وكذلك فعل اجزوما . وكان الجمهور قد تفرق فى كل اتجاه ، إذ راح الشرطيان يطاردانهم ، وبقى الشرطى الأكبر سناً وحده واقفا فى المكان الذى تركاه فيه . . وقف بتلك النظرة المكدودة البادية على وجهه .

وتحركت السيارة فى بطء وحرص . وتناول الدكتور سيجارة وناول اجزوما العلبة وسأله : «ما اسمك ؟» .

- اجزوما .

- فى المدينة من فترة طويلة ؟ .

- من ثلاثة شهور .

- مفهوم .

وأمضيا بقية الطريق صامتين . وظل اجزوما يدير نظراته بين الرجل الذى بجواره والرجل الذى أمامه . كلاهما من بنى قومه ، ولكنهما مختلفان كثيرا . فالرجل الذى بجواره لايحظى بكثير من الاحترام ، ومثله كثيرون . إنهم يحتسون الخمر ويتقاتلون ويقامرون . وفى المدينة كثير جداً من مثل هذه الحالات . إنه يشاهدهم . . وهو يعرفهم . ولكن ذلك الآخر مختلف . . مختلف عن كل الذين كانوا يقفون حوله هناك . حتى البيض رأوه مختلفا وعاملوه بأسلوب مختلف . لم يستطع أحد ممن عرفهم اجزوما أن يفعل مثلما فعل ذلك الرجل . ومع ذلك فإن هذا الرجل واحد من بنى جلدته .

وتوقف الدكـتور عند الطرف الآخـر من مالاى كامـب ، وحمل كلاهما الرجل إلى بيت . وعند الباب لقيـتهما امرأة ملونة تكاد تكون بيضاء ، وترتدى ملابس البيض ، ويدا البـيت من الداخل أكثر جمالا من مكان الرجل الأحمر ، فقد احتوى كل ماشاهده فى بيت الأحمر ، إن لم يكن أكثر .

وحملا الرجل إلى حجرة العـمليات ، وعاونت المرأة الدكتور فى خلع معطفـه ، وناولته معطفا آخـر رقيقاً أبيض اللون . وفـى سرعة وخفة وحرص راح الدكـتور يعمل بنجاح فى ذراع الرجل ، وفى أثناء ذلك كله كانت المرأة تناوله أشياء وتساعده وتتحادث معه ، وقد جلس اجزوما علـى مقعد صغـير وراح يتفرج . وظن اجـزوما أن المرأة ربما تكون زوجته ، وحـين انتهيا من تضـميد الرجل وغسل الدكـتور يديه وقبلته المرأة ، أيقن اجزوما أنها زوجته .

وقال الدكتور لاجزوما وهو يبتسم له : «تمام» .

وابتسمـت المرأة كذلك ، وحدث اجزوما نفـسه . . «ربما وجب علي أن أنصـرف الآن» . ثم دخلت امـرأة أخرى سـوداء إلى الغرفـة تحمل كوبا سقت الجريح شيئا منه . وانتصب الجريح جالسا وقال :

- شكرا لك يادكتور ! . . أو يمكننى أن أنصرف ؟ .

- كلا ، ليس الآن . لقد أبلغت الشرطة أن تأتى خلال ساعة . لا أظن أنهم سيأتـون ، ولكن يحسن أن ننتظر ونرى . عليك الآن أن ترقد وتسترد شيئا من عافتيك» .

- ولكنهم سيقبضون على .

- لو فعلوا ذلك فسأقاضى الشرطى الذى اعتدى على ، لكنك لو انصرفت فسأواجه مصاعب . وأدار الجريح عينيه فى الغرفة ولكنه لم يقل شيئا .

- ربما انتظرت أنت كذلك يا اجزوما لتكون حينئذ شاهدى ، فقد رأيت كل شئ .

وأومأ اجزوما برأسه . وغطت المرأة الملونة الجريح ببطانية . ثم قال الدكتور لاجزوما :

- هيا يا اجزوما نتناول الشاى .

وخرجوا مخلفين وراءهم الجريح وحده . وكان فى الغرفة الأخرى مدفأة كبيرة ومذياع ونور من ذلك النوع الذى يمكن أن يضاء بالضغط على شئ صغير فى الحائط . لم يكن ثمة مصباح زيتى ولا شموع . وأدار اجزوما ناظريه فى الغرفة ، وتابع الدكتور حملقته وابتسم .

والتفت إليه اجزوما ورأى الابتسامة ، لقد شعر بمثل ماشعر به فى بيت الأحمر ، ولو أنه لم يشعر بالانتماء إلى ذلك المكان ، وكان من الخطأ أن يذهب هناك .

ورأى الدكتور سحابة من حزن تعبر وجهه فسأله : «ماذا بك ؟» .

- بيتك هذا مثل مكان البيض .

فقال الدكتور : «لا يا اجزوما ، ليس كمكان البيض . إنه مجرد مكان مريح . إنك لا تقلد الرجل الأبيض حين تعيش فى مكان كهذا .

هذا هو نوع المكان الذى ينبغى على الإنسان أن يعيش فيه لأنه مكان صالح له . بغض النظر عما إذا كان أسود أو أبيض ، فمكان كهذا جميل بالنسبة إليه ، أما ما يخص البيض فهى بيوت أخرى . . وأنت تعيش فى الأماكن التى يقيمونها» .

- دكتور . . دكتور .

لقد أقبلت المرأة السوداء إلى الغرفة ، وارتسم على وجهها أسى وارتياع .

- ما الأمر يا اميلى ؟ .

- الرجل الذى كنت تضمده مشى يا دكتور . . خرج من النافذة .

- أوه . . .

وشاهد اجزوما وجه الدكتور . . لبرهة قصيرة ملأه حزن ويأس ، كوجوه الرجال الذين كانوا يعملون فى كومة الرمل الناعم الرطب الأبيض والذى لا ينقص أبدا . كان ذلك لبرهة ، ثم زال عنه ما ألم به ، وعاد وجهه رزينا هادئا ومن الصعب أن تكتشف ما وراءه . ونهض الدكتور وذهب إلى حجرة العمليات ، وتبعته الأخريان . وكانت البطانية ملقاة على الأرض ، والنافذة مفتوحة يهب منها نسيم بارد . . لقد ذهب الرجل . وأمسكت المرأة الملونة بذراع الدكتور واتجهت اميلى إلى النافذة وأغلقتها .

وقال الدكتور لاجزومـا فى خشونة ودون أن ينظر إليه : «يمكنك أن تنصرف الآن يا اجزوما» .

وشعـر اجزومـا بالاستيـاء ، إنه لم يفعل شـيئا . لـقد بقى لأن الدكتـور طلب منه ذلك . ولأن الرجل الآخر مشى ، فقـد تكلم إليه الدكتور بصوت قـاس . وشعر بالغضب ، لكن شعوره بالاسـتياء كان أشد من شعوره بالـغضب . واستدار على نحو مفاجـئ ومشى ناحية الباب . وتبعته زوجة الدكتور . ومدت إليه يدها وابتسمت ، ثم قالت :

– شكرا جزيلاً لك .

وتناول يدها . . وكانت ناعمة وصغيرة كيد المرأة البيضاء .

- ٧ -

الوقت يمضى لكن اجزوما لايريـد العودة إلى حجرته . لم يكن هناك شئ يمكن أن يـفعله هـناك ، اللهم إلا أن يجلس فى البـرد أو يدخل إلى فراشه البارد . ولكن هذا أيضا شئ سئ . كان يعلم أنه لن ينام ، وهو لايريد أن يرقـد يقظا فى فـراش بارد . وابتـعـد عن بيت الدكتور . وتطلع إلى السماء التـى بدت شديدة البعد ، والتى كان من الصعب رؤية مافيها من نجوم . ثم رأى واحـداً منها لبرهة قصيرة جداً ثم اختفى ثانيـة . وانعطف إلى ناصية ، فجـأة أدرك مالاى كامب . لقد أصبح يعرفه أكثر من أى وقت مضى .

مـالاى كامب . . صـف من شوارع يتـلاقى مع صف آخـر . . أغلبها شوارع ضيقـة . . شوارع قذرة . . شوارع مظلمة . وصف من بيوت يتلاقى مع صف آخر . . وهكذا يستمر الحال . . شوارع تتلاقى مع شوارع . . وبيوت تتلاقى مع بيوت . . بيـوت فقيرة المظهر مظلمة تخفى داخلهـا الحياة والموت والحب والبـغض ، ولا تظهر أى شئ لمن يمر بها من الغـرباء . وبرك من ماء قذر ملوث فوق أرصـفة رملية . وأطفال صغار يلعبون فى هذه البرك . ومجموعات من أناس يقامرون عند نواصى الشوارع . . ومجموعات مـن أطفال يسيرون عند الأطراف الدنيـا من الشوارع ، يفـتشون بدقـة قنوات المجارى ويتـبارون مع بعـضهم البـعض فى الانقضـاض على القـاذورات الصالحـة للأكل ، ويتقـاتلون من أجلها . والسـاقطات عند نواصى الشـوارع والقوادون يرعون أمورهن .

ومن مكان ما وصل إلى سمعه عويل خفيض رتيب لمعزف معطوب يصدر إيقاعا مكتوما لايتغير ، وصوت مكتوم لحركة أقدام ترقص على أنغامه . وصيحات وصرخات وسباب . واقتتال وارتكاب سرقات وإفك .

ولكن فضلا عن ذلك كله ، كان مالى كامب الحقيقى . . بدفء هوائه حتى فى الليالى الباردة . . بدفء الأجساد الحية فيه ، بدفء الناس الذين يمارسون فيه حياتهم ، ويتنفسون ، ويتنقلون ، إنه دفء كان أشد قوة من الهواء ومن الأرض والشمس ، أقوى من كل الأشياء . دفء الحياة وهى تنبض ، دفء القلوب وهى تخفق ، دفء السكون والصوت ، دفء النشاط والركود ، دثار الحياة الدافئ السميك الداكن . كان هذا مالى كامب . إنه شئ ما مغمور ومفعم بالحياة . إنه تيار من حياة مظلمة .

وحاول اجزوما أن يفكر بصفاء وأن يرتب أفكاره فى أساليب نموذجية من الكلمات ، لكنه أخفق . فحين تطلع إلى الشوارع والبيوت والناس ، رأى أنها مجرد شوارع وبيوت وناس . وكان الإحساس الذى انتابه يشبه حلما غير واقعى .

وحدث نفسه : «سأذهب إلى مكان لياه» . . وانعطف يخطو فى اتجاه ذلك المكان .

كان ذلك مساء يوم سبت ، وتوقع جمهرة من الناس عند محل لياه . ولكن المكان كان ساكنا حين وصل إليه ، وكانت بوابة الفناء مغلقة من الداخل . فذهب إلى الباب الأمامى ودقه ، وانتظر ثم دق

ثانية . وتذكر تلك الليلة الأولى التى جاء فيها إلى هذا المكان ، وبدا له أنه قد مضى الآن على ذلك وقت طويل جدا . وكان من الصعب عليه أن يصدق ذلك . لقد وقعت أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت . إنه لم يستطع حتى أن يتذكر كيف كان شكله آنذاك . ثم دق مرة أخرى .. وكان صوت الدق أعلى .

وانفتح الباب وأطلت منه الأم بلانك ، واستغرق منها التعرف عليه بعض الوقت . ثم انفجرت تطلق ضحكتها المجلجلة المتقطعة وجذبته إلى الداخل .

- اجزوما ! أين كنت طوال ذلك الوقت ؟ .. لم نكن نكف عن الحديث عنك أبدا .. ادخل ! ادخل ! .

كان ذلك يشبه العودة إلى موطنه .. وها هى الأم بلانك كما كانت دائما . نفس الشياطين الماكرة فى عينيها التى تنبؤك أنها تدرك الكثير رغم أنها قليلة الكلام .

وقال لها : «المكان ساكن الليلة» .

- الشرطة حول المكان .. وقد قبض على كثير من النسوة فى أثناء البيع .

- وكانت لياه على علم بذلك ؟ .

- لياه تدفع لتعرف .

- وهل حذرتهن ؟ .

ورفعت له الأم بلانك حاجبيها وضحكت فى سخرية وقالت : «لاتزال أبلهاً» .

وكان البيت ساكناً كـذلك ، مثلما كان عليه الحال حـين استيقظ في أول صـباح له فـيـه . وتبع الأم بلانك إلى المطبخ . وكـان فـيـه مدفأة ، وعلى الأرض بالقرب منها استغرق دادى فى نوم مخمور فاغر الفم ، وسيل من لعاب ينساب على جانب من وجهه .

- أين الآخرون ؟ .

- ذهبوا إلى السينما . . لياه واليزا وميزى ، وجوزيف قبض عليه منذ أسبوعين ، سيقضى فى السجن ستة أشهر ؛ لم يدفع الغرامـة .

- ميزى معهم ؟ .

- ألم تسمعنى ؟ . ونظرت إليه الأم بلانك شزرا .

- أنت تكذبين ياعجوز ! .

فضحكت وجاراها هو فى ضحكها .

- لم أقل شيئا .

- لم تقولى بلسانك ولكن قلته بعينيك . وقد كذبت .

- آه . . وفيم كذبت ؟ .

- تحسبين أن بينى وبين ميزى شيئا ما .

- صحيح ؟ .

- نعم . ليس من المفـيـد جلوسك هنـا تقولـين كلامـاً كـهـذا وتحـاولين أن تكونى كالنـعامـة . ولكـــن للنعـامة ريش وأنت امـرأة عجوز .

واهتز خدا الأم بلانك وهى تقهقـه ضاحكة . وحاول اجزوما أن يبقى جاداً وأن ينظر إليها فى صرامـة . لكن هذا كان شبيها بما يحدث فى موطنه ، وكـان من الصعب ألا ينخـرط فى ضحك المرأة العـجوز المرح ، وحين توقف اهتزاز خـديها ومسحت دموع عـينيها ربتت على ذراعه ولان وجهها المغضن المتهدل العجوز .

– أهكذا علمتك المدينة أن تتكلم . . هه ؟ هـذا أمر طيب . لقد كنت شـديـد الصـمت فى أول قـدومك ، ولايصـح لرجل أن يكون صامتا . . قل لى ، هل تناولت طعاما ؟ .

– أجل . قـابلت رجلى الأبيـض واصطحـبنى إلى مـكانه لآكل معه .

– آهاه . . . سيـد حقـيقى الآن ، هيه ؟ . يأكل مـع البيض ، ويعتنى بملابسه ! فلا عجب أن يهجرنا . وطرفت عيناها .

وقال اجزومـا : «أنت عجوز حمقـاء ! . وتطلع إلى ملابسه ، ونظر إلى المدفأة «احكى لى عن إليزا» .

– أما زلت تفكر فيها ؟ . وكان صوت المرأة العجوز رقيقا .

– أجل .

– مازالت كما هى . تبكى أحيانا ، وتتعارك أحيانا ، وتمتنع عن الكلام مع أى أحد أحـياناً ، ثم تكون مرة أخـرى على ما يرام ، وإن كان ذلك يحدث فى بعض الأحايين .

– وذلك المدرس ؟ .

– لست أدرى من تعنى ، فهم كثيرون جدا . . إنهم يأتون وتحس تجاههم بالملل ، ثم يكفون عن المجئ بعد ذلك .

– مفهوم .

- وأنت ؟ .

- أشتغل . . . وهذا كل ما فى الأمر .

- ظننا أنك ربما اتخذت لك خليلة .

- لا .

- جوهانز يحكى لنا أنهم يحبونك فى المناجم .

- هل هى تخرج كثيرا ؟

- تخرج أحيانا . وأحيانا تقبع فى البيت طوال الوقت . أنا أدرى ماتخشاه ، لـكنى اعتقد أنك مخطئ ، فهى ليـست امرأة منحلة ، قد يتعـرف عليها إنســان ما ، ثم تعود ثانيــة دون أن تكون على علاقــة بأحد ، ذات مرة كان ثمــة رجل ، لكنه راح ومضى . وكان ذلك من فترة طويلة .

- وأنى لك أن تعرفى ؟ .

- لأن لى عينين ، ولست غيورة مثلك . أنتم دائما تقولون عنى أنى (امرأة عجوز) ، لكنى أستطيع أن أدرك الأمور .

وحـملق اجـزوما فى المدفـأة ، وكـان دادى على الأرض ينخـر ويرفس برجليه وهو نائم . ومن فمه كانت تتدفق الشتائم . ثم استدار لينام على جـنبـه ويبدأ يتـبـول . وتكونت على الأرض بركـة مـاء ، وشاهدها اجزوما فارتسمت على وجهه علامات التقزز .

ونخر دادى ثانية ثم تدحرج إلى البركة التى كونها .

- أنت تحتقره يا اجزوما . . هيه ؟ .

وباغته صوت الأم بلانك .

- إنه إنسان ولكن انظرى ماذا يفعل .

- لقد رأيت يا اجزوما ، بل رأيـت حتى ماهو أسوأ من ذلك . وتنهدت .

وظل اجزوما مركزا بصره على المدفأة .

- إنك تحتـقره .. هيـه ؟ . رغم أنه حين قـدم إلى المدينة لأول مرة كان نعم الرجال . كان قويا ومهابا ومحترما . ربما تظن أننى امرأة عجوز ولكن اسمع يا اجزوما ، لقد كان رجلا من ذلك النوع الذى لم أر له مثيلا أبدا .

وابتسمت الأم بلانك وهى غارقة فى تفكيرها وتطلعت إلى المدفأة ، وحـين عاودت الكلام كـان فى صوتهـا مرارة «حـين كان يهـبط إلى الشارع تتوقف النسـوة وتتطلع إليه ويحييه الرجال . كل إنـسان احترم حكمـته .. وكـانوا يلجأون إليـه حـين تواجهـهم المشكلات ، فكان يعينهم . حتى البيض كانوا يحترمونه ، وأنت الآن تحتقره . كان لديه يومذاك المال والأصـدقاء الكثيـرون ، وكان الرجال يرون فى صداقـته شرفا لهم ، وتاقت إلـيه النساء . وحين تقع مشكلـة تتعلق بجوازات المرور كان يتقدم صـفوف الناس ويتحدث إلى المئات منهم ، فخـشيته الشرطة . كان على وعى فقاتل من أجل بنى قومه ، وحين اشتد وعيه أشقـاه هذا الوعى وجعله مـثل اليزا ، ولكـنه كان يكافح فـحسب . اسمع يا اجزوما .. هذا الشخص الراقد هناك فى بوله أكثر حكمة من اليزا ؛ فى إمكانـه أن يقرأ ويكتب أفضل حـتى من اليزا . لقـد عـثر على ليـاه فى الشارع ورعـاها . أجل يا اجـزوما .. أنت تحـتقـره . ولكنى أقول لك إنـه كان رجـلا مـن ذلك النـوع الذى لم أر له مثيلا أبدا ..» .

ونظر اجزوما إلى الأم بـلانك . كانت عيناها مبتلـتين ، تنحدر دموعـهما على وجنتيـها دون انتبـاه . بيد أن عينيـها كان فيـها بريـق غريب ، كـما لو أنهـا مازالت ترى الرجل الذى كـان موضع احـترام الناس جذابًا .

ونظر إلى دادى . . وكانت ملابسه قد امتصت البركة التى كونها . وأراد اجزوما أن يقول شيئا ، بيد أنه لم يكن لديه ما يقوله ، ونظرت إليـه الأم بلانك من خلال دمـوعهـا . فـربت يدها على نحو أخـرق وحدق فى إحدى أركان الغرفة ، ونهضت الأم بلانك وقالت :

- سأعد الشاى .

ونظر اجزوما إلى دادى وكان نائما نوم مـخمور غارقا فى بوله ، وحاول أن يتـصوره رجلا مفـيقا يحتـرمه الناس ويتبعـونه ولكن كيف أصـبح كذلـك ؟ . إنه لم ير دادى أبدا مـفيـقـا . . لم يره أبدا يقف مـعتـدلا دون أن يترنح من جـانب لآخر . ومع ذلك قـالت عنه الأم بلانك إنه كان رجلا من ذلك النوع الذى لم تر له مـثيلا أبدا . وكان ذلك أمرا حقـيقيا ، لأن صوتهـا كانت فيه رنة صدق ، كـما كان فى عينيها شعاع صدق . وهاهو الآن ملقى على الأرض هناك منقوعا فى بوله . ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ وهنا أعلنت الأم بلانك :

- لقد عاد الآخرون . . أستطيع سماع أصواتهم .

وتنصت اجزومـا لوقع الأقدام . . لقد كانوا يقـتربون . ترى هل ستسر اليزا لرؤيته ؟ . . وماذا ستقول لياه ؟ والأخرى . . هل مازالت عيناها تضحكان ؟ . وانفتح الباب . . ورفع ناظريه . وكانت لياه أول من دخل . فارتفع حاجـباها وارتسمت ابتسامة على طرف فـمها حين

رآته . وكان هذا كل مـاحدث . ثم أقبلت اليزا فنظرت إلـيه ، وكان في عينيها شعاع غريب ، ثم أشـاحت عنه بوجهها . ثم دخلت ميزى والضحك يشع من عينيها ، وحـين رآته غطى الضحك كل وجهها . وكانت هى الـوحيدة التى حـيتـه . وشعر اجـزوما بالاسـتيـاء . لقد تصرفت ليـاه واليزا وكأنـه كان موجـودا معهـما طوال ذلك الوقت . وكان ذلك أمرا عاديا جدا . وكتم فى نفسه بهجة الترحاب التى كانت تغمر القلب .

ومضت لياه ووقفت على رأس دادى ، ثم انحنت والتـقطته كما يلتقط الإنسان طفلاً ، وحملته وخرجت به من الغرفة فى يسر وبمقدرة تنم عن القوة . أما اليزا فقد خلعت معطفها وحلت الوشاح الذى كان حول رأسها ، ثم جلست ومدت يديها إلى المدفأة . ونظر اجزوما إلى اليدين . . كانتا ناعمتين . أحس بنعومتهما دون أن يلمسهما . . تماما كـيدى المرأة البـيضـاء . . ويدى زوجـة الدكتـور . وراح يتطلع إلى الذراعين والكتفين ، إلى ارتفاع الصدر وهبوطه ، إلى الاستدارة التى تتصل عندها جيدها ووجهها ، إلى نعومة وجهها الأملس ، إلى سواد عينيها ، فاشتعلت لديه الرغبة .

وكانت الأم بلانك قـد أعدت الشاى ، فـراحت تقدم لكل منهم قدحاً ، ولم يكن فى الغـرفة أحد سواهـمـا . لم يكن وجود الآخرين مهـماً . . وهم فى حـقيقـة الأمر لم يكونوا مـوجودين . . هو وهى فحسب كانا فى الغرفة .

وتحت تأثير حدة نظراته رفعت عينيها وتطلعت إليه . . كان الظلام يحيط بهما . ولم يستطـع أن يرى سوى طيف وجهها وبريق عينيها . وكان الأمر بالنسبة إليها كذلك . كل شئ تلاشى إلا هو وهى فحسب . . كانا هناك وحدهما فى هذا العالم . . وحدهما فى كل مكان .

وراحت ميزى تدير بصرها بين اجزوما واليزا ، ثم إلى الأم بلانك ، وبحركة بسيطة أومأت الأم بلانك برأسها فأشاحت ميزى بوجهها ، ثم عادت لياه ، وهى تتطلع إلى اجزوما «حسن» . مرة أخرى كانوا كلهم هناك . . الأم بلانك وميزى والمدفأة والغرفة والنافذة وصوت الشارع . وفى مقدمتهم جميعا . . لياه . . ورفع اجزوما ناظريه إليها .

فسألت لياه : «كيف حالك» ؟ .

وأجاب اجزوما مبتسما : «كالمعتاد» .

وقدمت الأم بلانك قدح شاى إلى لياه .

– مضى وقت طويل . قالت ذلك وأدارت ناظريها بينه وبين اليزا .

وفكر اجزوما . . إنها تفهم كل شئ . . كالعادة دائما وقال : «نفس الحال» .

وطأطأت رأسها وحدجت فى المدفأة . ثم رفعت بصرها وركزت عينيها على ميزى .

– هذا الشخص اشتاق إليك .

وتطلع اجزوما إلى ميزى . لم يكن فى عينيها ذلك الضحك وهى تنظر إلى وجهه مباشرة ، وضحكت لياه برقة ؛ وغطت دفقة احمرار بشرة ميزى المتقعة ، وغضت من بصرها ، وحين رفعته ثانية كانت الضحكة قد عادت إلى عينيها . وكانت دفقة الاحمرار والضحكة جذابتين تماما ، وشاهد اجزوما وسامتها . لقد بدت هذه الوسامة فى عينيه وكأنها تعويذة سحرية .

ودارت عينا اليزا بين اجزوما وميزى ، ثم انتقلتا إلى لياه ، وفجأة نهضت واقفة وغادرت الغرفة ، فضحكت لياه ثانية برقة .

- مازالت كما هى ، لكنها لم تنسك .. وأنت ؟ . وكان فى صوتها تهكم وخشونة وحدة .

ونظرت الأم بلانك بحدة إلى لياه ، وأتت ميزى حركة عصبية برأسها وضحكت ، وبدا ضحكها مصطنعا . ونظر اجزوما إلى لياه ، وكانت عيناها جامدتين شاردتين وقدتركزتا على وهج المدفأة الأحمر

وقالت ميزى فى تردد : «التقيت بعامل من المناجم وسألته عنك» .

وقال اجزوما بلا اهتمام : «نعم» .

وقالت ميزى : «لكنه لم يكن من منجمك» .

وقال اجزوما : «لياه» .

ورفعت لياه بصرها ، وكان صوته أجشًا صارمًا فهزهًا .

- نعم ؟ .

هل تريدننى أن أنصرف ؟ .

- أجل .

ونهض اجزوما واقفاً .

وقالت الأم بلانك وميزى معا : «ولكن يالياه . . .» .

فقالت لياه : «اخرسا» .

فقال اجزوما : «طابت ليلتكن» وانصرف .

ونهضت ميزى وهرعت إلى الباب ، فصرخت لياه : «عودى» فترددت ميزى ، ثم عادت إلى مقعدها . وراحت لياه تراقبها . وقد

عادت إلى جانب وجهها البسمة الملتوية ، وكانت عيناها صارمتين وشاردتين ، ثم فجأة خرجت من الغرفة . وأرادت ميزى أن تلحق بها لكن الأم بلانك أشارت إليها بأن تعود إلى مقعدها .

وأسرعت لياه تهبط الشارع وراء اجزوما ، فلحقت به عند الناصية ونادته : «اجزوما» .

توقف وانتظر . لم يستدر وكانت هى الآن قريبة منه . وتوقفت ونظرت إلى ظهره : «اجزوما» .

- نعم .

وسادت لحظة صمت طويلة . كان يعلم أنها تريد منه أن يستدير ، ولكنه لم يقو على ذلك ، لم يكن يدرى أهو يريد ذلك أو لايريد . لكنه فقط لم يستطع .

- اجزوما . . وكان صوتها رقيقا وفيه رجاء .

وقفز قلبه فرحا . . كان صوت لياه رقيقا وفيه رجاء . . واستدار . . وكانت قريبة منه وفى عينيها دموع ، وسلمت عليه وفعلت يداها فعل السحر . . وانطلق تيار من الدفء مجهول إلى جسده . . وابتسمت من خلال دموعها . ثم أمسكت به بسرعة واحتضنته ، وأسندت رأسها على صدره ، وراح جسدها يهتز من النشيج . ولف ذراعه حولها واحتضنها بشدة . وأخذ المارة يتفرجون عليهما . ثم وبالسرعة التى أمسكت به دفعته بعيداً عنها . ومرة أخرى عادت صلبة وقوية . ثم جففت الدموع من عينيها وابتسمت وقالت :

- يتلبسنى الليلة شيطان . هيا ، سنتمشى قليلا قبل أن نعود إلى البيت . . هيه ؟ .

وانعطفا عند الناصية ومشيا صامتين . . وكان من حولهما أناس . . أناس صاعدون وأناس هابطون . . بعضهم متمهلون ، والبعض مسرعون . ومن حولهما ، ومن حول الناس ، ومن حولهم جميعا ، كان ضجيج المدينة .

لقد خلقت دمدمة الترام والقطارات وضجيج السيارات وأصوات الناس ووقع الأقدام ، خلق كل هذا ضجة انسلخت فى آن واحد عن أسبابها وكان لها خصوصيتها المتفردة . . دمدمة واضحة مميزة تتردد من باطن الأرض ومن أفواه الناس وقلوبهم ومن الآلات ، وترتفع ، وترتفع عاليا فوق مسبباتها . ومرا بعمود إنارة مقوس . وكان تحته رجل وفتاته متشابكين فى حضن دافئ . وتكلمت لياه : «ألقوا القبض على جوزيف . أعتقد أن ثمة واحد يشى بى ، ولا أستطيع اكتشافه ، إننى أشعر بذلك وتطلعت إليه ، ثم أشاحت عنه بوجهها .

وسألها : «أغاضبة أنت منى ؟» .

وضحكت: «أنت إنسان بسيط يا اجزوما. .وساذج مع الناس» .

وابتسم اجزوما . كان ثمة سلام غريب فى قلبه . كان يعجبه أن تقول عنه إنه ساذج مع الناس . إنه لا يؤمن بأن هذا صحيح ، ولكنه يعجبه . وإنه لشئ طيب للغاية أن يتمشى معها . . كأنه فى موطنه فى الريف ثانية . يتمشى فقط فى هدوء . . هكذا كان يتمشى مع أمه . . وهكذا كانت أمه تؤنبه ، وكان فى جو مالاى كامب وداعة . . ربما كانت موجودة طوال الوقت ، ولكنه لم يلحظها إلا الآن فقط .

وكان هذا يشبه الليلة الأولى حين التـقى بلياه . إنهما لم يتحدثا كثيرا ، ولكنهما تفاهما . أدركت أنه إنسان يدعو إلى الاطمئنان بمجرد النظر إليه . وهو نفس مايحدث مع الناس فى الريف . إنهم يتفاهمون ويتعارفون . . وكان الموقف الآن شبيها بذلك مرة أخرى .

وقال لها وهو يتأبط ذراعها : «أنت إنسانة طيبة» .

وتركته يتأبط ذراعـها بعضاً من الوقت ثم انتزعتـها منه وقالت : «يجب أن نرجع» . وراحت النعومة عن صوتها . لم يكن صوتها ينم عن شخصيتها ، كان خاليا من العاطفة مرة أخرى . وحين عادا كانت اليزا قد ارتدت إلى المطبخ وجلست تقرأ أمام المدفأة . لم ترفع ناظريها حـين دخلا ، فى حـين نظرت إليـهمـا الأم بلانك وميـزى . وولى الضحـك عن عينى مـيزى وإن كان كـامناً فيـهمـا ، يلوح من خلف الأستار ، على استعداد لأن ينفجر ثانية ، وكانت الأم بلانك كما هى دائما ، ترى كل شئ ولا تقول شيئا .

وقالت لياه لاجزوما : «ستنام هنا . . هيا الآن فالوقت متأخر» .

وتساءلت الأم بلانك : «أين سينام ؟» .

– فى الغرفة الصغيرة . يمكن لميزى أن تنام معى ، ويمكن لاليزا أن تنام فى غرفتها .

وقالت اليزا وهى توجه بصرها إلى اجزوما : «سأقرأ لك» .

وقالت لياه وعيناها على اليزا : «الوقت متأخر» .

وقالت ميزى : «طابت ليلتكم» ومضت .

وقالت الأم بلانك : «دعيها تقرأ» واتجهت ناحية الباب .

هزت لياه كتفيها استهجاناً ، وتغضن جانب فمها الأيسر ، ثم لحقت بالأم بلانك ، وخفق ضوء الشمعة حين انغلق الباب خلفهما .

ورفعت إليه اليزا عينيها وابتسمت .

- هل أقرأ ؟ .

- أجل .

وفتحت الكتاب وراحت تقرأ . وكان الكتاب يضم قصة حروب الزولو . والزولو لغة جميلة ونابضة بالحياة ، وكان صوت اليزا رقيقا ، وظلت العبارات تتدفق حتى وقع اجزوما فى سحرها . ومرة أخرى كانت جماعات كبيرة من الزولو متأهبة للهجوم على الرجل الأبيض الذى سيسلب أراضيهم . وفقد الكثيرون حياتهم ، ولكن من تقدم للقتال كانوا أكثر ، بيد أنهم هزموا فى النهاية ، وانتزعت منهم أراضيهم ، لأن الرجل الأبيض كان أقوى . واشتد الأسى فى قلب اجزوما لأنهم خسروا الحرب وبدا ذلك فى عينيه . وأغلقت اليزا الكتاب .

فقال لها : «جميل ، ولكن من المحزن أننا خسرنا» .

- أجل .

واحترقت الشمعة وتوهجت منها آخر ومضة ثم خمدت . وجلسا فى وهج ضوء المدفأة ، ومالت اليزا إلى الأمام وأشعلت سيجارة من المدفأة ، وذكره ذلك بخليلة الأحمر البيضاء .

وقال لها : «لقد شاهدت مقتنيات الرجل الأبيض» .

- نعم . . ولم يكن فى صوتها ماينم عن الاهتمام .

فقال لها سأذهب الآن لأنام .

فنظرت إليه ولكنها لم تتـفوه بشئ . وخرج إلى الفناء وهبط إلى غرفة عند الناحية البعيدة . وكانت الغرفة كما هى تماما عندما تركها . لم يتغير فيها شئ ، فخلع ملابسه ودخل الفراش وأطفأ الشمعة .

لقد كان يحس بأن هذا بيت حـين لم يكن فيه سوى الأم بلانك ودادى ، ولكن الوضع اختلف حين قدم الآخرون ، فلم يكن الوضع كما كان قبل أن يغادر المكان . حتى لياه تغيرت .

وانفتح الباب فدخـلت اليزا وأسنانها تصطك . وأحس هو بطوق محكم حول قلبه ، وتذكر تلك الليلة السابقة فقال لها :

- دعينى .

- كلا .

وأشاح بوجهه عنها فدخلت الفراش ، وكانت مقرورة . شعر هو بذلك . وارتجف بدنها وتحسست يده فانتزعها بعيدا . واسترخت هى ، وكفت أسنانها عن الاصطكاك ، وتوقفت رجفة بدنها ، ورقدت ساكنة تماما ، لا تحاول أن تلمسه أو تتزحزح بعيدا عنه .

وأحس اجزوما بجنـون الرغبة يثور داخله ، وأنه سيـفتك به فى الحال ، فكرر القول :

- دعينى .

واستدارت على جنبها وضغطت بجسدها عليه مرغمة إياه على أن يشعر بقربها منه ، وقالت له : «احبك» .

فما كان منه إلا أن عصر جسدها الناعم الدافئ تحت جسده فالتصقت به فقال لها : «احبك» .

وحين انطفأ اللهيب من جسديهما وفرغا من إشباع رغبتهما استلقت فى غور كتفه تتحسس عضلات ذراعه ، فجذبها إليه برفق وحنان كما يمسك الإنسان زهرة .

وسألته : «لم أقمت بعيدا عن هنا ؟» .

- لم تكن بك رغبة فى .

- ليس هذا صحيحا . لقد آلمتك فى تلك المرة الأولى .

- لم يكن شيئا ذا بال .

- آلمتك . وحين عدت لم تدرك مدى رغبتى فى أن تستحوذ على .

- أنت رغبت فى ذلك . . لماذا ؟ .

وضحكت برقة : «لياه على صواب . . أنت ساذج مع الناس» .

- لماذا جئت لأستحوذ عليك ؟ .

- أوه أيها الأحمق ! كنت أرغب فيك أنت فحسب .

- إننى أحبك .

- أعرف .

- أحببتك منذ البداية .

ورسمت دائرة على صدره .

- هل عرفت ذلك ؟ .

- أنا لست ملائمة لك يا اجزوما .

- هراء .

- هذا صحيح . بداخلى شيطان يريد أشـياء لا أستطيع الحصول عليها .

- أنت جميلة .

- شئ طيب أن تقول هذا .

- إنها الحقيقة .

- إننى أحبك يا اجزوما .

قالت ذلك والتصقت به واستسلمت للنوم .

- ٨ -

استيقظ اجزوما من نومه العميق الهادئ فى تراخ وعلى كره منه ، ومد يده يتحسس اليزا ، وكان طوال الليل يحس بوجودها بجواره .. بكل حركة .. بكل تنهـيدة .. بكل غمغمات طفوليـة فى أثناء نومها .. باستكانتهـا لصيقة به . لقد فرضت كل هذه الأشيـاء البسيطة فى أثناء نومه وجود اليزا وجعلت نومه هذا عميقاً وهنيئاً .

استيقظ مرة فى الليل وراح ينصت إلى انتظام تنفـسها ، فاستولى على قلبه حنان شديد وإحساس كبير بحمايتها . وعندئذ وبلمسة واثقة رقيقة غطاها ، كما تغطى الأم طفلاً لا يقيه شئ .

وتحسس الوسادة فقط .. فانتصب جالساً شديد اليقظة على نحو مفاجـئ . لم تكن موجودة ، لا فى الفراش ولا فى الغـرفة . وفكر .. ربما راحت تعد الشاى . ولكنه أدرك أن الأمـر ليس كذلك . كان موضع نومها باردا ؛ لابد أنهـا خرجت منذ فترة طويلة . وأدرك دون أن يدرى سببا لذلك أنها مضت ولن تعود إلى الغرفة . فنهض وارتدى ملابسه .

كانت الشمس فى الخارج مشرقة ، بيد أنها كانت باردة غير مؤثرة لاتستطيع تبديد برودة الجو القارس .

وصاحت الأم بلانك : «صـباح الخير يااجزومـا ، هل نمت نوما هنيئا ؟» .

فقال اجزوما : «هنيئاً جداً .. وأنت ؟» .

ومن نافذة المطبخ صاحت ميزى «كنت على وشك أن أحضر لك القهوة» .

فقال اجزوما : «شكرا لك ، سآتى وأتناولها منك» .

واغتسل تحت صنبور ماء فى الفناء ، ولسعه الماء البارد .

وقالت ميزى : «يوجد هنا ماء ساخن» .

فرد : «لقد اغتسلت» .

وضحكت ميزى ، وكان فى صوتها بهجة صباح صيفى ، فابتسم اجزومـا وذهب إلى المطبخ ، فقالت له مـيزى وعينـاها تضحكان فى وجهه : «يبدو أنك فى حالة جيدة» .

فقال : «أشعر أنى كذلك» .

وتسـاءلت الأم بلانك : «مـا الذى جـد عليـك ؟ . . فى الليلة الماضيـة كنت نكداً متجـهماً ، والآن تـبدو كمن اسـتطاع الوثب فوق الشمس ، هيه ؟» .

- ربما استطعت ذلك .

وبنظرة طويلة مـتأنية قـدمت له ميـزى قدح القهـــوة وقالت : «أجل ، ربما أنه استطاع .

- أين الآخرون ؟ .

فقالت ميزى : «اليزا فى غرفتها» .

وقالت الأم بلانك : «وليـاه ذهبت تبحـــث عن ذلك الذى يشى بنا» .

واحتسى اجزوما قدح القهوة بكامله ثم نحاه جانبا ، فسألته ميزى : «المزيد ؟» .

- كلا .

- أهى نائمة ؟ .

- كلا .

وعبر اجزوما الغرفة فقالت ميزى : «لاتذهب» .

أمال اجزوما رأسه وابتسم ، فأدارت له ظهرها وأطلت من النافذة .
وانطلق اجزوما ودق باب اليزا ، فلم يتلق رداً ، فدق ثانية ثم دخل .
وأدارت اليزا رأسها الذى كان يواجه الحائط ونظرت إليه ، فقال لها : «أهلاً» وأراد أن يضمها بين ذراعيه فدفعته وابتعدت عنه .

- لا يا اجزوما .

وتوقف اجزوما وراح يتطلع إليها .

- ماذا دهاك ؟ .. أمعتلة أنت يا حبيبتى ؟» .

- كلا ! لا أريدك أن تلمسنى .

- لكنك يا اليزا فى الليلة الماضية فقط ...»

- كنت حمقاء فى الليلة الماضية . اتركنى أرجوك .

- ولكن ...

- امش من فضلك .

- لو أنك تبتغين مقتنيات البيض فلا بأس . سوف ندخر مالاً ونحصل عليها ، هيه ؟ .

- امش من فضلك يا اجزوما ! .

وحاول اجزوما أن يتكلم ثانية فأشارت إلى الباب : «اخرج من فضلك» .

وكور اجزوما قبضتيه ومضى ، ودفنت اليزا وجهها في الوسادة وهز النشيج جسدها كله من رأسها إلى أخمص قدميها .

وراح اجزوما إلى الفناء ولحقت به ميزى وقالت له : «آسفة» .

- ليس ثمة ما يدعو للأسف .

وتطلع إلى السماء ، وكانت الشمس تغطيها سحابة .

- حاولت أن أحذرك . ودست يدها في يده وضغطت عليها .

وأحس بصلابة يدها الصغيرة . لم تكن رقيقة كيد المرأة البيضاء ، أو زوجة الدكتور أو يد اليزا ، لكنها أراحته . فضغط هو الآخر على يدها وقال لها : «أنت شفوقة» .

- لست شفوقة .

وصاحت الأم بلانك : «الطعام جاهز» .

ودخلا ، وكانت لياه قد عادت ، وبدا وجهها ذابلا من البرد ، ورغم ذلك بدت أقوى من ذى قبل .

وسألتها الأم بلانك : «هل عثرت على أى شئ ؟» .

- كلا ، يوجد شخص ما يشى بى ، هذا أمر يقينى ، ولقد رأيت الشخص الذى يحذرنى . استجوبوه بدقة ، وهو خائف حتى من أن يتكلم معى . نعم ! ثمة شخص ما يشى بى ، ولكن لايستطيع أحد أن يخبرنى من هو ذلك الشخص . ولقد لقيت المفتش فى أثناء عودتى وأبلغنى أنه سوف يقبض على .

فقالت الأم بلانك : «توقفى إذن عن البيع فترة قصيرة» .

ونخرت لياه : «وأظن أن السماء ستمطر علينا نقودا . يجب أن أبدأ فى الحال ، ولكن يجب قبل ذلك اصطياد الخنزير الذى يخوننى ، لو اصطدته . . .» وفردت كفيها ثم كورتهما بعنف .

- ولكن كيف تكتشفينه ؟ .

- إنه نفس الشخص الذى خان رجلى والذى خان جوزيف . هذا ما أوقن به الآن . . .

وانغلق الباب الأمامى بعنف .

وقالت الأم بلانك : «اليزا» .

ووثب اجزوما وهرع إلى الباب الأمامى ، فرأى اليزا تسرع فى هبوط الشارع ، فناداها ولكنها مضت فى طريقها دون أن تلتفت إليه .

ورجع إلى المطبخ ، والتقت عيناه بعينى ميزى ، وقال : «لقد خرجت» .

وتحولت بهجة الليل إلى مرارة فى نفسه وكان توقه إليها أكثر من أى وقت مضى ، لأنه خبرها ووجدها دافئة جدا ، وجذابة جدا .

والآن . . كل شئ قاتم ومؤلم .

وبقوة أمرته الأم بلانك : «كل !» وإن بدت الشفقة فى عينيها .

وازدادت ميزى منه اقترابا وقالت : «أنا ذاهبة إلى بعض صديقاتى ، فلن أعمل اليوم . تعال معى ، ولسوف يعينك هذا على السلوان . إنهم أناس طيبون ، ولسوف يكون فى هذا خـير لك .» وكان صوتها رقيقا يحاول استمالته .

وقالت الأم بلانك : «تناولى طعامك يالياه» .

وتساءلت لياه : «أين دادى ؟ . . هل أحضرت له شرابا ؟» .

- أجل ! وهو على مايرام . إنه لايستطيع أن يتحرك الآن ، لكن الشراب سينعشه فى الحال ، وسيأتى ليأكل .

وقالت لياه وهى مستغرقة فى التفكير : «سوف أنصب فخاً» .

وقالـت الأم بلانك : «لعلها تكون تلك المرأة الـصفراء . . لـيزا السكيرة» .

- كلا .

- وأنا على يقين من أنه لن يكون جوهانز أو لينا .

- ليسا هما بالطبع .

وقالت ميزى تستميل اجزوما : «خير لك أن تأتى معى» .

وقال لها : «أنت حمقاء لانشـغالك بى . وأنا أحمق لرغبتى فى اليزا ، تلك المرأة ، وإنك لحمقاء بقلقك على» .

- أعلم أنى لست حمقاء . هل ستأتى معى ؟ . وكان فى صوتها وعينيها استجداء له .

إن رغبة إنسان ما فيه بعد المعاملة التى لقيها من اليزا جعلته يحس بشعور أفضل . وكان من الأمور الطيبة إدراكه أن شخصاً ما يهتم بأمره

وقالت ميزى : «أعرف أنها كانت معك طوال الليلة الماضية» .

ونظر إليها . . لقد عرفت ، ورغم ذلك تريده أن يخرج معها ، فقال لها : «أنت إنسانة غريبة» .

وابتسمت . . وكان ثمة شئ ما قاتم يختفى وراء ضحكات عينيها . كانت تريد أن تخبره أن اليزا لاتصلح له ، ولكنها تدرك أن ذلك سيكون أمرا مميتاً . كانت تعلم أن الشئ الوحيد الذى يجب تجنبه هو الحديث عن اليزا .

- هل ستأتى ؟ . . المسافة بعيدة جدا ويجب أن ندرك الحافلة حالاً . ستعجبك . . ستشعر هناك وكأنك فى الريف . هناك عشب فى الأرض وأشجار ، وهناك نهر وهناك أبقار ومزارع . هل ستأتى ؟ .

وضحك . . أدرك من طريقة وصفها للمكان أنها تحس بالغربة حين تبعد عن المدينة .

- لماذا تضحك ؟ .

- ألم تذهبى أبدا إلى المزارع ؟ .

- أجل . لم أذهب .

- هذا هو سبب ضحكى . حين تتكلمين عنها يمكن للمرء أن يدرك أنها غريبة عنك .

وقالت لياه للأم بلانك : «نعم ! سوف أنصب لهذا الكلب فخا» .

ونهضت ميزى وذهبت إلى غرفة أخرى . وحين عادت كانت ترتدى قبعتها وسترتها . ورجته عيناها أن يأتى . فقال فجأة :

- نعم ! سآتى معك .

وخرجت ميزى وأحضرت قبعته وسترته وعاونته فى ارتدائهما . ثم قالت للياه : «إنى ذاهبة إلى هوبفلاى ، واجزوما ذاهب معى كذلك» .

وقالت لياه فى شرود : «وهو كذلك» .

وقامت الأم بلانك بتوصيلهما حتى الباب . وخرج دادى من إحدى الغرف يزرر فتحة بنطلونه . لقد كان فى أولى مراحل سكره .

وقالت الأم بلانك : «لياه قلقة» ثم ابتسمت لهما وواصلت «لاتكونا شديدى الفحش» وربتت على عجيزة ميزى .

وقال اجزوما : «كفى عن هذا ياعجوز» ، وضحك .

وقالت الأم بلانك «اسمعى ما يقول» ودارت حول نفسها ببراعة وضربت بكف يدها فى نفس الوقت عجيزتها بصوت مدو . «وهو يعيرنى بأنى عجوز . . إننى أستطيع أن أؤدى أفضل مما تؤديه كثير من

الفتيات الصغيرات . وإذا شككت فى هذا يا اجزوما فى أى وقت فتعال واكتشف ذلك بنفسك» ودفعتهما إلى الخارج ووقفت فى الشرفة تضحك .

ونظر اجزوما إلى ميزى وابتسم قائلا : «إنها امرأة فكهة» .

- هى تتهكم ، لكنها طيبة وحكيمة جدا . فهى لا تتفوه بشئ ، وإن كانت تشاهد كثيرا من الأمور .

وتوقفا عند الناصية ولوحا لها فلوحت لهما ، وكان دادى يقف بجوارها .

وهرعا إلى محطة الحافلات ، فشاهدا حافلة هوبفلاى تتحرك فى التو ، فعدت ميزى خلفها بأقصى سرعة وتبعها اجزوما وقفزا إليها فألفياها مزدحمة ، لكنهما وجدا مكانا فى المؤخرة . وجلسا متلاصقين يضغط كل منهما الآخر . وكان ذراع اجزوما مدفوسا فى جنب ميزى فاستله ووضعه حول كتفيها . ورنت إليه ببصرها فسرى إليه ما فى عينيها من ضحك ، وضحكا بلا سبب .

وقالت ميزى شيئا ، لكن الجلبة كانت من الشدة بحيث لم يستطع معها اجزوما أن يسمع ما قالت . وأحنى رأسه وكررت هى المحاولة ولكنه ظل عاجزا عن سماعها ففتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر ، وتناولت منها واحدة ووضعتها بين شفتيه وأشعلتها ، ثم أغلقت بعدها عينيها ، واستسلمت للنوم على كتفه . وفجأة شعر اجزوما بالغبطة كالشعور الذى انتابه فى تلك الليلة التى أخذته ليشارك فى حلبة الرقص ، هذه الإنسانة تعرف كيف تسعد نفسها ، وتعرف

كيف تضحك . وجميل جدا أن تجعل الآخرين يضحكون ويسعدون كذلك .

وبعد مضى ساعتين استيقظت ميزى التى نامت نوما متقطعا ، وراحت تتلفت حولها لتحدد اتجاههما ثم قالت :

- نحن فى المكان تقريبا . سوف نسلك طريقاً صغيراً ، ثم نمشى هابطين . المكان مبهج وسيعجبك .

وسارا ميلين بعد ذلك . وأخذت ميزى يده وسارت به فى ممر ضيق . لقد كانا فى منطقة ريفية متسعة تكاد تخلو من المبانى ، ذكرته باتساع موطنه . . بسكونه وطمأنينته وثراه الطيب . لم تكن الطرق صلبة مرصوفة بالحصباء ، لكنها كانت تراباً متماسكاً رقيقاً .

وقالت ميزى : «انظر الآن» .

ووصلا إلى منعطف ، ومن تحتهما قام الوادى ، الذى استقرت فى أحضانه هوبفلاى - وادى الرجاء - فى جوفه مجموعة من بيوت ، وبعض من الشوارع ، ومن ورائه كان النهر يجرى .

وقال اجزوما : «الجو جميل» وأخذ نفسا عميقا .

وقالت ميزى : «كنت واثقة أنه سيعجبك» .

وقال اجزوما : «إنها الأرض الزراعية والتربة . كل شئ جميل» .

وقالت ميزى : «هيا» . وجرت هابطة الممر الضيق .

لقد جرت برشاقة ويسر ، تثب فوق الأحجار وتتفادى الحواف الصخرية الناتئة . وتبعها اجزوما فى حركة أكثر بطئًا ، يمتص الهواء النقى ويتطلع حواليه بعيون نهمة . لقد كان شوقه إلى الأرض الزراعية أشد مما كان يتصور ، ها هى الآن ، بمساحاتها المتسعة . ومرة أخرى ، كانت السماء تقترب من التربة .

وصاحت ميزى : «تقدم» .

فصاح فى مرح : «وهو كذلك» .

وسرت إليه عدوى ضحكها الصافى البهيج . . أجل ، كان الجو يشبه موطنه . وجرى هابطا الممر الضيق المنحدر . وحين أصبح على بعد عدة ياردات منها اندفعت بعيداً عنه وصاحت : «حاول أن تمسك بى» .

واندفع اجزوما وراءها وأمسك بها ، ولكنها أفلتت منه ، ووثبت متجاوزة إياه وهى تضحك .

- أمسك بى .

- سأفعل .

وكان يشعر بمثل ما شعر به فى تلك الليلة التى راحا فيها يرقصان . شعر بأنه متحرر تماما وسعيد . وأخذا يعدوان يطارد أحدهما الآخر وهما يهبطان الممر الضيق المنحدر ، ميزى فى المقدمة وهو فى أعقابها وقريبا منها . وكانت ميزى تعدو فى سهولة وسرعة . وما من مرة يدنو منها ويمد يده ليمسك بها ، إلا وتروغ منه ، ويسمع رنات ضحكها المرح .

وخفف اجزوما من سرعتـه وكذلك فعلت ميزى ذلك أيضا ، ثم انطلق فجأة وأمـسك بها من خصرها ، وهوى كلاهما يتـمرغان فوق العشب ورقدا يلهثـان ويضحكان ، يلفهما دفء لم يشعـر معه ببرودة الجو .

وقالت له : «خدعتنى» .

- عجبا ! ولكنك تستطيعين الهرب .

ووثبت مـيزى واقـفة وقـالت : «يجب أن نمضى الآن . سيـرى أصدقائى الحافلة ، وسيظنون أننى لست قادمة إليهم . هيا بنا» .

وسارا منحدرين بجوار النهر . وراح اجزوما يقذف فيه حصوات ، وميـزى تتراقص قريبا منه وبعـيدا عنه كما فـعلت فى تلك الليلة التى ذهبا فيها للرقص . وكان اجزوما سعيدا . . وأدركت هى ذلك ، فهى التى أسعدته . إنه ربما يـجرى وراء إليزا ، ولكنه كان معـها مرتين ، وفى المرتين كان سعيداً ، ولسوف يتذكر ذلك . . فهكذا هم الرجال .

وقال اجزوما : «كـأنه الموطن ، وهو كذلك لأنى معك ، وأنت تعرفين الأشياء التى تجعل الإنسان سعيداً» .

ورمقته ميزى بنظرة سريعة . . وكان هو ينظر إلى الأرض ، وفى عينيه خواء وطمأنينة . وتطلعت هى إلى مصب النهر ، وأسرعت من خطوها وأبطأ اجزوما من سيره ، وراح ينصت إلى اندفاع الماء الرقراق فوق الحصى ، ويشاهد الدوامات التى تنشـأ عن اعتراض صخرة ناتئة تدفق الماء ، أو بسبب فرع صـفصاف يتدلى فى الماء . وكـانت السماء صافـية ونائيـة ، ومع ذلك كانت جزءا من الثـرى والعشب الأخـضر

الذى يمشى فوقه . لو أن اليزا فحسب كانت معه ، لو أنها كانت موجودة لتسير بجواره ، وربما لتلمس يده ، لو تم ذلك ، لاكتمل كل شئ ، لكنها أبت أن تكلمه فى ذلك الصباح ومضت عنه خارج البيت ، وميزى هى الإنسانة الصالحة . . لقد فهمته . ونظر إليها ، وكانت تسبقه على الطريق ، وقد خلعت سترتها وحملته على ذراعها . وأطارت نسمة باردة رداءها فوضحت معالم جسدها . هذه إنسانة طيبة ، إنسانة تفهم . . ثم إنها الإنسانة التى رغبت فيه . لم لا تكون هى ؟ . . لماذا اليزا ؟ . إنها لن تسبب له ألما كما فعلت اليزا . وهى تعرف ما يطيب له من أمور وتهيئة له .

- ميزى !

وانتظرت ، وقد بدت شديدة الصغر شديدة الاشتهاء ، وضياء الضحك يشع من عينيها . ونظر إلى عينيها فضحكتا فى وجهه ، فابتسم . وقال لها : «أنت طيبة» ولف ذراعه حول خصرها ومال ناحيتها فتراجعت برأسها إلى الوراء وتطلعت إلى وجهه وقد خبا الضحك من عينيها وهزت رأسها فى تؤدة وقالت :

- لا يا إجزوما . إنك تفكر فيها وليس فى أنا .

وتملصت من ذراعه ومشت بعيداً عنه وعيناها تفحصان العشب . وأراد اجزوما أن يقول لها إن الأمر لم يكن كذلك ، ولكنه أدرك أنها ستعرف أنه يكذب ، ثم راح يتبعها .

هما الآن قرب مستوطنة السود والملونين الصغيرة ، وأمكنهما أن يريا المساكن بوضوح ، وأن يريا الناس يتنقلون فى الأفنية ويجوار

البيوت ، وكان معظم الناس فى هذا الجانب من المستعمرة من الملونين ، وكـان الوطنيون فى الجـانب الآخر . وهويفـلاى مغـامرة أخـرى من مغامرات الرجل الأبيـض فى إبعاد الوطنيين والملونين عن المدن . ولم يكن الوطنيون يحبون المستوطنات ، فضلا عن أنها مزدحمة ، ولذلك بدأ الرجل الأبيض فى إقـامـة المسـتـوطنات فى ضاحـيـة مـتاخـمـة لجوهانسبرج على أمل القضاء على فريديدورب ومالاى كامب ، وبهذا تم القضـاء على كثيـر من الأماكن . وقـد يبقى مالاى كـامب خلال خمس سنوات أو عـشر مجرد اسم فقط . حـتى فريديدورب ، قلب سود المدينة الخفاق ، قد يصبح حلما يراه طفل نائم لايتذكر منه عندما يستيقظ سوى نتف غامضة . إنه قد يصبح كذلك خلال خمس سنوات من عمر الزمن .

وسارا يمران ببيوت وبعمال من الرجال والنساء وبأطفال يلعبون ، وساد الصمت بينهما ، ومن قبل كان يسود بينهما صمت ، ولكنه كان صمتـا ينطوى على تفاهم . أما هذا فكان صمت الغرباء . لقـد شعر اجزوما أنه أساء إليهـا ولم يدر كيف يمحو هذه الإساءة . وهنا أحس بالاستياء .

ويصوت عال قالت ميزى : «انظر !» .

وجـرت إلى جـواره وأمسكت بـذراعه وأشـارت . وكـان على الجـانب الآخر من النهـر صبى بلا قـمـيص يسوق قطيـعا من بقـر . وضحك اجزوما وقال : «ينبغى أن تنتمى إلى المزارع» .

– ألست معجبا بها ؟ .

– فقال بصوت ضاحك : «إنها جميلة جدا» .

ورنت إليه ببصرها . وكـان الضحك الذى بدا مع صوته يبين فى عينيه أيضا . لقد عاد الضحك إلى عينيه .

أوشك الليل أن ينتصف ، وكـانت آخر سيارة أجرة مـزدحمة ، واضطرت ميـزى إلى الجلوس على حجر اجـزوما . وكان فى المقـعد الخلفى للسيارة ثمانية ، وكان يتعذر على أى منهم أن يتحرك .

لقد ولى اليوم بسرعة كبيرة ، وقبل أن يدركا ذلك كان موعد آخر حافلة قد حان ؛ ومن ثم فـاتتهما الحافلة . وكان أصدقـاء ميزى أناسا أفاضل ، إذ كـانوا ضحوكـين بشدة مـثل ميزى ، وسـرعان ماشـعر اجزوما أنه يعرفهم طوال حياته . لقد تصرفوا معه وكأنه رجل ميزى ، وكانت هى تحط عـينيها عليـه تنتظر منه أن ينكر ذلك ، ولكنه لم يقل شيئـا . وقدموا له جعة ليست كـتلك التى تصنع فى المدينة ، ولكنها كانت كـتلك التى تصنع فى المزارع . وتحادثوا ، وظلت مـيزى طوال الوقت لصيـقة به . ونسى هو اليزا ولـياه ودادى والأم بلانك والمناجم وكل مـايربطه بالمدينة . وبدت مـيـزى وكأنهـا لا صلة لهـا بالمدينة . وامتلأ الجـو بالضحك والتحرر والسعادة ، تماماً كالأيام الخوالى بالمزارع

ولقد تحـدثوا كثيرا عن المزارع لأن خـليل صديقه ميـزى قدم من المزارع ، وأحب المزارع كـثيرا ، وتحـدث عن العودة إلى المـزارع حين

يتجمع لديه مال يشترى به قطعة أرض . ولكنه حين قال ذلك نظرت إليه خليلته كما ينظر المرء إلى طفل يلعب فى الماء .

وتحت تأثير دفء صداقتهم ، وحرية الكلام التى أتاحتها له الجعة ، راح يتحدث ويده على كتف ميزى عن موطنه وأهله . . عن جمال الصباح فوق منطقة الهايفيلد العشبية عندما ترتفع الشمس وتغنى الطيور وتساق القطعان إلى المراعى . . وتحدث عن عذوبة أمه وقوة أبيه الضخمة حين كان هو وأخوه صغيرين . . وكيف اعتادوا صيد الأرانب . لقد حكم لهم كل شئ كان يعمله فى طفولته وفى صباه .

ثم أقبل أناس آخرون وتدفق المزيد من الجعة . وكان ثمة غناء وضحك كثير ورقص ، فرقص مع أناس لم يكن يعرفهم ، وتكلم معهم وتكلموا معه . وألقت صديقة ميزى بيدها حول رقبته وأجبرته على أن يحملها ، وضحكت ميزى وألقت بذراعيها حول رقبة رجل صديقتها ، وصفق الجميع وضحكوا . وحمل الرجال النساء بين أذرعهم ، وكونوا حلقة وأخذوا يدورون فى الغرفة إلى أن ضاقت بهم كثيرا فخرجوا إلى الفناء ، وهناك كونوا حلقة ، وراحت امرأة تغنى ، والناس فى الحلقة يصفقون ويدبدبون بأقدامهم ، ودخل رجل وامرأة وسط الحلقة وأخذا يرقصان ، وحين أصابهما الإجهاد تدفق المزيد من الجعة ، فراحا يرقصان ثانية . وجاء رجل بجيتار وجاء آخر بآلة كونسيرتينا ، وأقبل أناس من كل جهة ، وأحضرت النسوة طعاما وجعة ، وكان هناك وفرة من الطعام والشراب . ومن خلال كل هذا أضاء وجه ميزى الضاحك وعيناها الوضاءتان . وكانت هى بجانبه ، مفعمة بالسرور مغمورة بالسعادة ، وكانت تفيض بهذا كله عليه .

وسط كل هذا أخذها من يدها وسارا معا إلى النهر تحت ضوء القمر . وبلا سبب انخرطا في الضحك . . واسترسلا فى ضحكهما حتى دوى على طول النهر . ثم أقبل الآخرون يبحثون عنهما فاختبأ ، واستغرقوا وقتا طويلا فى العثور عليهما . وحين وجدوهما حملوهما على الأكتاف إلى البيت يغنون .

وعادت الجعة تتدفق ثانية . وكانت الدنيا جميلة لأن الجعة كانت من المزارع . . لم تكن كسم المدينة التى تسكرك فحسب ، ولا تؤدى بك إلى الشعور بالسعادة .

ثم جذبته ميزى وهزته وقالت له إن وقت الحافلة قد حان ، وارتدى كل منهما سترته ، واصطحبهما الآخرون جميعا إلى محطة الحافلة . لكن الحافلة كانت قد غادرت ، ولن تكون هناك حافلة أخرى حتى الصباح . وعرضت صديقة ميزى عليهما أن يبيتا عندها . لكن ميزى رفضت وبررت رفضها بأنه لابد أن يكون فى المنجم فى الصباح الباكر ، أما هو فقال أن ليس فى الأمر شئ . . كان يود البقاء . لكن ميزى كانت حاسمة وقالت إنه مخمور ، ذلك أنهما احتسيا كثيراً من الجعة .

ثم وجدا سيارة أجرة .

وفى سيارة الأجرة المزدحمة جلست ميزى على حجره . وأحس هو بالأسى لانتهاء الليلة . لقد كانت ليلة جميلة ، وكان يريدها أن تستمر . ووضعت ميزى ذراعها حول عنقه ، فلطف هذا من أحاسيسه . وانطلقت السيارة مندفعة بأقصى سرعة وسط الليل متجهة إلى

جوهانسبرج . ولم تستغرق الرحلة هذه المرة سوى ساعة واحدة ، وحين خرجا من السيارة لم يدر اجزوما أين هو ، لكنه لم يعبأ بذلك .

وقال لميزى : «أنا سكران» .

فقالت له وهى تمسك بذراعه : «سأعنى بك» .

وابتسم . . فمع ميزى وعنايتها به لن يصيبه ضر . . وكان هو على يقين من ذلك .

وبعد برهة قصيرة قادت خطاه إلى ممر ضيق ، وتركته ينتظر إلى أن فتحت باباً . ثم جذبته إلى غرفة صغيرة وأغلقت الباب وأضاءت المصباح وتطلع هو إلى المصباح الكهربى . . ضوء الرجل الأبيض .

– ماهذا المكان ؟ .

– غرفتى . . وهذا هو المكان الذى أعمل فيه . ويحسن أن تبيت هنا ، فأنا أستطيع إيقاظك صباحا فى الوقت المحدد .

ومضى إلى السرير وجلس فوقه ، وراح يتطلع إلى كل أركان الغرفة ، فرآها تشبه غرفة الرجل الأبيض ، ولكنه لم يكن واثقا . ولم يستطع أن يرى الأشياء بشكل مباشر . . كل شئ كان يدور . . وبدا وكأن رأسه يدور . . فأمسكها بكلتا يديه ، محاولا أن يبقيها ثابتة . . لكنها ظلت تدور لاتريد أن تتوقف .

وقالت له ميزى : «استلق على الفراش» .

وأطاعها ورقد ، وكان ذلك أفضل ، فلم تعد الأشياء تدور كثيرا

. لكنه كان من الصعب الآن إبقاء عينيه مفتوحتين .

- ميزى .

هيه ؟ .

- تعالى هنا .

وذهبت إليه ، فمد إليها يده . وأمسكت بها وراحت تربت عليها .

- أنت لن تتركينى .

- أجل .

- سوف تعنين بى .

- نعم ، سأعنى بك .

فقال : «هذا أمر طيب» واستغرقه النوم .

وخلعت ميزى له ملابسه ، وهيأت لنفسها فراشاً على الأرض . وللحظات وقفت تتأمله ، ثم أطفأت النور .

- ٩ -

- استيقظ ! اجزوما ! استيقظ !.

وتقلب فى فراشه وفتح عينيه وقال فى تذمر : « مازالت الدنيا مظلمة » .

فقالت ميزى : « يجب أن تذهب إلى العمل » .

ونهض اجزوما ودعك عينيه ، فتذكر الليلة الماضية . أنه فى غرفة ميزى . وكان معها فى نزهة طوال الأمس . فى رأسه صداع بسيط ، لكن الجعة كانت جيدة ولم تكن رديئة .

وقالت ميزى : « ارتد ملابسك ، ولسوف أحضر لك الطعام » ثم خرجت .

وارتدى ملابسه وأخذ يتفحص الغرفة . كانت جميلة .. غرفة امرأة . ورأى الفراش على الأرض . ثم دخلت ميزى ومعها قدح ينبعث منه البخار ، وخبز ولحم فى صحن .

وسألها وهو يشير إلى الفراش المبسوط على الأرض : « هل نمت على هذا الفراش ؟ .

فأومأت برأسها ثم قالت له : « يجب أن تسرع » .

- كم الساعة الآن ؟ .

- الخامسة ... يجب أن تذهب إلى حجرتك لتحضر ملابس العمل .. وأومأ برأسه ولم يكن قد فكر فى ذلك .

- لماذا نمت على الأرض ؟ .

- لاتجلس هكذا تتكلم .. أسرع .

وكانت قد أحضرت إلى الغرفة وعاء ماء ، فاغتسل ثم راح يأكل . وحين فرغ من طعامه نهض ووقف يتطلع إليها ، وكان من الصعب أن يفهمها . لقد كانت ترغب فيه ، وحين نالته نامت على الأرض .

وقال لها : « كانت كريمة معى » .

فقالت : « هيا » .

وتبعها خلال الممر الضيق ، وكان اليوم باردا ، لكن القهوة أدفأت معدته بطريقة أشعرته بالراحة .

- سر فى هذا الطريق إلى أن ينعطف يساراً ، امض فى المنعطف ، ولسوف يؤدى بك إلى مالاى كامب .

لم يكن يريد أن ينصرف .. ونظر إلى وجه ميزى التى لم تكن تنظر إليه طوال هذا الوقت ، فرفعت ناظريها إليه والبسمة فى عينيها امتزج بالنعاس .

فقال لها وقد أمسك بيدها : « كان الأمس يوما جميلا » .

- أننا مسرورة .

- أنت إنسانة جميلة ، أيمكن أن نذهب هناك ثانية ، هيه ؟ .

- لو أردت .

- أريد بشدة .

- امض الآن وإلا تأخرت .

وكانت يدها باردة . وأحس من يدها أن بدنها يرتجف ، فهى لم تتناول قهوة .

وقال لها : « وداعا » .

- وداعا .

ولكنه كان يشق عليه أن يتركها بهذه الطريقة . شيء آخر كان لابد أن يحدث ، لكنه لم يكن يدري ماهو ذلك الشيء . ثم سحبت يدها من يده .

- امش .

ومشى بضع ياردات ثم توقف ، والتفت وراءه لكنها كانت قد دخلت ، فأسرع يهبط إلى الطريق الواسع المحفوف بصفين من الأشجار . كانت برودة الهواء لاسعة فدس يديه في جيوبه بعد أن رفع ياقة معطفة . سيكون الوضع حسنا تحت الأرض في يوم كهذا ، لكن الأفضل من ذلك الجلوس أمام نار متقدة كتلك التي ستكون في بيت لياه اليوم .

وفي حجرته بدل ملابسه ثم انطلق إلى المناجم . وعند بواباتها التقى بجوهانز .

- هاأنت . . اجزوما الخسيس .

وابتسم اجزوما . . جوهانز مازال مخمورا . لم يكن شديد السكر ، لكنه ليس مفيقا .

- كيف الحال معك ياجوهانز ؟ .

- أنا جيه . ب . وليامسن ، أنا ! . قوي كالثور وسأقتحم سجنهم . . ولسوف ترى ! .

وتأبط اجزوما ذراعه وعبرا البوابة .

- ماذا يسوءك ؟ .

- إنه عار ياأخى اجزوما . .

- أخبرنى . . ماذا عندك ؟ .

- لقد أخذو المرأة صاحبتى .

- أخذو خليلتك - لينا ؟ .

- نعم ، رجال الشرطة الأنجاس - سوف أقتل واحدا منهم .

لماذا ؟ .

- سبعة أيام أو جنيه .

- لماذا أخذوها ؟

- مخمورة وكثيرة الضوضاء .

- لاتبال ، سنحاول الحصول على النقود لنطلق سراحها . وربما تقرضك إياها ليـاه . سأطلب منها ذلك ، ويمكنـك أن تسددها فـيما بعد . هيه ؟ .

فقال جوهانز صاخبا : « لا » .

فقال اجزوما : « لاتصرخ » .

- سيكون هذا لصالح الخسيسة . دعـها تشتغل مقابل هذه الأيام السبعة ! .

- لماذا تريد اقتحام السجن إذن ؟ .

فألقى جـوهانز بذراعه حـول كتف اجـزوما وابتسـم . ثـم قال هامساً :

- لست أدرى ياأخى .

وأخذه اجـزوما إلـى صنبور الماء وطلب منه أن يغـسل وجهـه ، واعترض جوهانز لأن الماء كان شديـد البرودة ، لكن اجزوما أجبره ، ووسط أيمانات مغلظة غسل جوهانز وجهه .

وحول المنعطف جـاء طابور من عمال المنجم فى مشـية سكرية ، يقودهم ويحيط بهم رجـال الاندونا . أقدامهـم ضجيجـا رتيبا ، ومن ورائهم تخلف ذيل من غبار ناعم .

وخرج بادى ورجل أبيض من الكوخ الذى يسـتريح فيـه البيض ويحتسـون الشاى ، فرأى اجزوما فناداه ، وهنا ترك اجـزوما جوهانز عند الصنبور وذهب إلى الكوخ .

- اهلا يااجزوما ! .

- أهلا ياأحمر .

- كيف حالك ؟ .

- جيد .

- أراك تعين اجزوما على أن يفيق . أهو شديد السكر ؟ .

وصمت اجـزوما ، وبقى هـكذا صامتـاً ، فابتـسم بادى وناوله سيجارة .

- أنصت إلى يااجزوما ، سـوف نعمل إلى أن يحين وقت تناول الطعـام ، وعندئذ سنصعـد ولن نعمل حـتى منتصف الليل . وبـعد سوف نشتغل فى الليل فقط . وسيسرى هذا لمدة شهر ، واضح ؟ .

- واضح .

- حسن ، ستبلغ عمالك بذلك .

واستدر اجزوما ومضى .

- اسمع يااجزوما ! .

فالتفت وراءه ليجد أن المنادى هو كريس ، الذى كان قد خرج لتوه من الكوخ .

- نعم ؟ .

- بلغ جوهانز أننا لن نهبط إلا عندما يحين وقت صعودكم أنتم ، واشرح له نوبات العمل الجديدة ، أو ستفعل ؟ .

ومن اليمين سار صف من رجال ، مشوا خارج البوابة وحول المنعطف فى طريقهم إلى المجمع السكنى . وكان جوهانز مازال واقفا ورأسه تحت الماء البارد . ودمدمت الآلات وصاح رجال الاندونا يطلقون الأوامر . . ووقفت جماعة من الرجال عند مدخل المصاعد التى سوف تنطلق هابطة بهم إلى باطن الأرض بحثا عن الذهب .

وذهب اجزوما مباشرة إلى جوهانز .

- رجلك الأبيض يقول إنكم لن تعملوا إلا بعد أن يحين وقت تناول الطعام .

وكان جوهانز بسبيله إلى الإفاقة ، وبدا أقل شبها بشخصية جيه . ب . وليامسن . وتأبط اجزوما ذراعه .

- نوبات جديدة ؟ .

- أجل .

- كيف تسير ؟ .

وشرح له اجزوما الأمر .

فقال جوهانز : « إذن سوف أذهب لأنام قليلا » .

وسأله اجزوما : « هل موضوع خليلتك حقيقى ؟ » .

- أجل .

- سنحاول إذن الحصول على النقود من لياه .

- لا . . إننى مدين لكثير جدا من الناس . ومازالت مديناً كذلك للياه ببعض النقود .

وبدا جوهانز خجلا من نفسه ، خجلا من سكره ، من حجمه الضخم ، من استدانته من الناس . وقال له اجزوما « اذهب إلى حجرتى وهاهو المفتاح . نم حتى يحين موعد عودتك ، ستجد خبزا وعلبة سردين . كله . فإنه سيفيدك » .

وقضم جوهانز شفته السفلى وأشاح بوجهه . . لم يكن اجزوما فى المناجم إلا منذ فترة قصيرة فقط ، لكن لديه غرفة خاصة به وطعام وملابس لايدين لأحد بأية نقود .

ونظر اجزوما إلى جوهانز وأدرك ماكن يدور برأسه ، فلكم صدره وقال له :

- ألسنا أصدقاء ؟ .

فقال جوهانز : « شكرا لك » ومضى .

وكان رجال اجزوما ينتظرونه ، لقد ارتفع المصعد ، وحان وقت الهبوط . وكان جوهانز قد سار مسافة قصيرة ثم توقف وعاد أدراجه وقال :

- رأيت دلادلا . كان معه نقود كثيرة ، وكان ثملاً ومتبجحاً . وقال إن لياه ستندم بسبب مافعلته معه . وقال إن رجلها وجوزيف أحسا بالندم ، ولسوف تندم هى كذلك . لعله يشى بها لدى الشرطة ، فحذرها حين تراها .

فقال اجزوما : « سأفعل » .

إذن كان هو دلادلا . لماذا لم يفكروا فى ذلك ؟

وقال جوهانز كما لو أنه كان يعتذر : « لقد طرحته أرضا بلكمة نام بعدها » .

- خيرا مافعلت .

وناداه واحد من الاندونا ، فأسرع اجزوما إلى المصعد المنتظر . وكان الرجال فى انتظاره ، فحيوه حين جاء . فقال :

- حسن .

واصطف الرجال داخل المصعد ،. فقال اجزوما :

- كفى ثم صاح .. تحركوا .

وتحرك المصعد هابطا فى بطء ، وحل مكانه مصعد آخر .

- حسن .

واصطف فيه رجال كثيرون .

- كفى ! . . تحركوا ! . .

كان اجزوما هنا هو الرئيس الأمر الذى يعنى بكل الرجال ، وكان معتدا بنفسه ، معتدا بقوته ، واثقاً من سيطرته على الرجال ، واثقاً من احترامهم له .

وبالقرب منه وقفت جماعة من البيض يرقبونه . وكان اجزوما أفضل عامل فى ذلك المنجم .وأصبح فريقه تحت رياسته الفريق الأفضل ، ومعنى هذا أن مال بادى قد نما . ولهذا كان البيض يراقبونه باحترام . وقال أحدهم لبادى :

- محظوظ أنت ياملعون .

وأومأ بادى برأسه .

وقال آخر : « ينبغى أن تعطيه منحة أسبوعية » .

وامتلأ المصعد الثالث وانتظر اجزوما بادى الذى تقدم مسرعا . وكان اجزوما - وفقا لما ينبغى أن يتبع - آخر من يركب المصعد . لقد كان على رئيس العمال أن يعى بكل فرد ويتأكد أن كل واحد فى المصعد آمن ، ثم يعطى الإشارة ، ويقفز بعدها إلى المصعد حين يبدأ فى الهبوط . وكان هذا هو واجب رئيس عمال المنجم .

وانطلق المصعد بسرعة يهبط . . ويهبط . . ويهبط . وران الصمت عل الرجال . وكان الوضع هكذا « دوما » . فالهبوط إلى باطن الأرض يفرض الصمت عليهم . وكانت قلوبهم تخفق بشدة . ومع أن الكثيرين منهم كانوا يهبطون يوماً وراء يوم طوال شهور ،

فإنهم لم يتعـودوا على ذلك . دائمـا ماكان يحدث خـفقان شـديد في القلوب ، وانسـداد في الحلـوق وإحسـاس مصحـوب بألم في المعـدة . وكـان هذا الإحـسـاس الذي ينتـاب عـامل المنجم . . وهو إحساس يعرفه الجميع .

بيد أنهم لم يكونـوا متأكدين أن ذلـك يحدث للرجل الأبيض ؛ ذلك أن الرجل الأبيض لم يـكن يظهـر أي شيء على الإطلاق . لم يكن يبـدي خوفـا أبدا . ولم يكن قلقـا أبدا . كان يلقي بأوامـر ، ويكون في المقدمة مع رئيس العمال . وإذا ماوجد رئيس عمال جيد ، كاجـزوما أو جوهانز ، فـإن هذا الرئيس كذلك لايبدي خـوفا أبدا ، ولاينتـابه القلق أبدا ، ويصـدر الأوامر . وكـان الحال هكذا أيضـا . وكان هذا أيضا مايعرفه الجميع .

وهبطت المصـاعد مـندفعـة ، وأخذت تـهبط وتهـبط . وراحت مصابيحها تومض وتخبو . وكان ثمة صفير حاد يتخلل الهواء في أثناء انطلاق المصاعد هابطة في أعمق أعـماق باطن الأرض . وكان الضوء الوحيد هو الضـوء المنبعث من مصابيحـها . وأصبح الهواء أكثـر دفئا وبدا التنفس صعبا . . وكان هذا مايحدث أيضا دوماً .

وتباطأت المصاعد في هبوطهـا ، وقفز منها الرجال ، وفي مكان قريب وقفوا جماعـات ينتظرون . ومشى اجزوما بجوار بادي ، الذي راح ينظر في دفتـره الصغيـر . . ومضيـا سوياً يفحـصان المكان الذي ينتويان العمل فيه ، وبقي الآخرون ينتظرون قريبا من المصاعد ، فلقد كان من واجب الرجـل الأبيض ورئيس العمال اسـتكشاف مـاإذا كان العمل لاينطوي على مخاطر . والتيقن من أن كل شيء منظم .

ووصل مصعد آخر ، وكان فيه أربعة من البيض ، وقفوا على بعد قليل من الآخرين ينتظرون بادى واجزوما . وفى أثناء سيرهما معا فحص اجزوما جوانب النفق وسقفه . ففى المكان الذى يفضى فيه النفق إلى الجدار الذى يتوجب العمل عنده أقيمت دعامات تشبه الهيكل الذى يشيد للبوابات ، وكان سقف هذا المكان قد هبط . ولفترة طويلة راح اجزوما يفحصه ، ثم زجع بادى الذى كان قد سار قدما ، ووقف بجانبه .

وسأله : « ماذا ترى ؟ » .

وأجاب اجزوما : « ربما لايكون فى الأمر شىء . ولكنى أرى أنه من الواجب إقامة عمودين أقوى على كل جانب » .

وأومأ بادى وقال : « أجل . وربما نقيم عمودا مستعرضا تحت السقف ، هيه ؟ » .

- تمام .

- ألك رأى خلاف ذلك ؟ .

- ماتراه صحيح تماما .

واتجه بادى إلى تليفون ممتد فى كل المكان حتى يكون هناك اتصال بسطح الأرض .

وصاح فى بوق التليفون : « كل شىء على مايرام بالنسبة لطاقة العمل » .

وهبط اجزوما النفق واستدعى الآخرين . ومشى الرجال البيض

قدما ، ومروا باجزوما . وجاء العمـال الوطنيون ووقفوا أمامه . وبعد أن تفحصهم انتقى أقوى أربعة منهم ، وقال لهم :

- ستحضرون أعمدة وتقيمون هذا المكان .

ومضوا ليحضروا الأعمدة .

وقال اجـزوما للآخرين : « هيـا » وهبط بهم متجـها إلى المكان الذى كان فـيه بادى ، الذى قام بتـوزيع البيض الأربعـة على أماكنهم ليعملوا فيـها . بينما قام اجزوما بتصنيف العمـال ، وقدم عشرة منهم لكل رجل أبيض . وأحضر العمـال الأربعة الأعمدة وبدأوا فى تدعيم الجانب الضعيف من النفق .

وقال بادى : « تمام » وابتسم لاجزوما .

وصاح اجزوما : « إلى العمل » وراح ينتقل بين الرجال ، يساعد واحدا هنا ، ويرى واحدا آخر أفضل وسـيلة للحفر . وفى مكان آخر راح يبين لواحد أفضل طريقة لوضع صخرة على السير المتحرك . كما راح بادى يتنقل بين رجل أبيض وآخر ، يراقبـهم وهم يثقبون الأرض ويعلمون الأماكن التى من الممكن أن تكون شبيهة بعروق الذهب .

وطـنـت المشـاقب وقـرعــت المطارق . . كـان هســيس وأزيز وطنــين . وكان رنـين المعاول وصرير الجـواريف . ورويداً رويداً التأم وقع سير العـمل . وابتسم اجزوما ، كان يعـرف هذا الإيقاع ، وكان هو الذى يضـبطه - . وكـان هو الذى يبـقيـه مطردا . كـان هو مع الأحمـر سيد هذه البقـعة ، هو الذى يصدر الأوامـر ، وكان يعلم أن الأحمر لن يعارضه ، لأنه خبر حكمة مايصدره من أوامر .

وأخذ بادى مثقبا وأداره وثبته جانب الجدار الصخرى . ومع طنين المثقب راحت عضلات ذراعيه وصدره تتماوج . وانتزع اجزوما نفسه من بين جماعة العمال وتناول مثقبا آخر ، وخطا بجوار بادى ووضع المثقب إلى جوار الجدار الصخرى . وتماوجت كذلك عضلات ذراعيه وصدره مع طنين المثقب ، وعملا معا كتفا لكتف . . رجلان قويان . . رجل أبيض وآخر أسود .

وأز السير المتحرك ، وهوت المعاول ، وحفرت الجواريف وطنت المثاقب . وفى كل مكان كان الرجال يعملون ، وأجسادهم تتصبب عرقاً . . . لم يكن فى رأس اجزوما مكان لأى شىء سوى عمله . ويدون أن يتوقف كان يلتفت ينادى واحدا من العمال أن يؤدى هذا أو ذلك ، أو يحذر واحدا يتباطأ ، أو يقول لأحد أن يترك مايعمل فيه ليؤدى عملا آخر . وربما كان يرفع بصره فتلتقى عيناه بعينى بادى ، وتبدو من بين أسنان الأحمر ابتسامة ، فى حين يقوم كل منهما بشق الجدار الصخرى . وعلى الدوام ينقل إلى السطح سيل متزايد من صخور وبلورات متلالئة وغبار ناعم ، لينخل ويصحن ويصنف إلى معدن أصفر رقيق يحبه الناس ويسمونه ذهبا . . .

وحدث أن واحدا من العمال الذين كانوا يقيمون الأعمدة فى البقعة الضعيفة فى النفق ،ربت على كتف اجزوما ، فتوقف عن الثقب واستدار ، وصاح الرجل : « يوجد ماء يتسرب خلال الصخر » .

وتبعه اجزوما إلى المكان وأخذ يتطلع . كان ثمة بلل وخيط رفيع من ماء يتسرب فى الداخل .

واستدعى اجزوما بادى وأراه المكان . وفحصه بادى لبرهة قصيرة ثم راح إلى التليفون وصاح يطلب مجيء مهندس ليفحص البقعة .

وهبط المهندس وراح يتطلع إلى المكان ويفحصه ، ثم قال إنه لاوجه للخطورة . ونظر بادى إلى وجه اجزوما ، ورأى الشك فى عينيه ، فسأل المهندس عما إذا كان واثقاً مما قال ، وكان المهندس شديد اليقين . فعاد كل منهما إلى عمله وتدفق غبار الذهب مرتفعا إلى الأعالى ، ليجعل الناس موسرين وأقوياء .

وعندما حانت ساعة الطعام طوح الرجال مابأيديهم من أدوات جانبا ، ووقفوا قريبين والإجهاد باد على وجوههم العرق يتصبب من أبدانهم . واستدعاهم اجزوما معا ويلغهم بالنوبات الجديدة ، ثم اندفعوا نحو المصاعد دون اهتمام فيما يبدو بما قيل . وسعل رجل بالقرب من اجزوما ، فتدفق من فمه سيل رقيق من بصاق أحمر سقط عند قدمى اجزوما الذى حملق فيه لقد سمع من قبل عن مرض الرئتين وكيف أنه يذوى عود الرجل ، ولكنه لم ير أبدا إنسانا مصابا به ونظر إلى الرجل الذى التمعت عيناه فى صفاء وارتجف خيشوماه . لقد كان رجلا مسنا .

وقال له اجزوما : « تعال هنا » .

وخطا الرجل إلى الأمام ، وانتظر الآخرون جميعا والخوف يملأ عيونهم . وأحس اجزوما بخوف يسرى فشى بدنه ، فالرجل الذى يقف أمامه مازال بشرا . ولكن العلامات كانت بادية عليه بالفعل . كان نحيلا . وكان رجلا من ذلك النوع الذى كان قويا وضخما يوما ما . وقد بدا هذا من نحوله .

وقال اجزوما للآخرين : « يمكنكم أن تنصرفوا » .

فمشوا متمهلين وعلى كره منهم . وعندما ولوا أخذ اجزوما يتحدث إلى الرجل :

- كم مضى عليك من وقت وأنت مصاب بهذا ؟ .

وأجاب الرجل : « شهران حتى الآن » .

- هل زرت الطبيب ؟ .

فقال الرجل وقد طرق برأسه : « لا » .

- ولم لا ؟ .

ونظر الرجل إلى الأرض وتململ فى عصبية بدت فى حركة يديه .

- اسمع يااجزوما ، أنا رجل لدى زوجة وطفلان وقد استنفدت كل شيء . لدينا مزرعة صغيرة وأنا أدين لرجل أبيض بثمانية جنيهات ، وسيستولى على المزرعة إن لم أرد إليه نقوده . وإذا استولى عليها ، فأين تذهب زوجتى وطفلاى ؟ لقد استنفدت كل شيء يااجزوما ، استنفدته حقيقة . إننى أقوم بالادخار منذ أربعة أشهر ، وإذاماادخرت لمدة ثلاثة أشهر أخرى فستكون معى الجنيهات الثمانية ، وبذلك أضمن مأوى لزوجتى وطفلى ، وأرجو منك أن تبقينى ولاتبلغ البيض . الآخرون لن يبلغوا ، فهم يعرفون . أنا مدرك أننى سأموت ،ولكن إذا كان لزوجتى وطفلى بيت فسأكون سعيدا .

- وهذا هو السبب فى أنك لم تبلغ عن مرضك ؟ .

- هذا هوالسبب .

وشعر اجزوما بالخوف يدق قلبه .

- ماهذا ياأجزوما ؟ .

وكان المتحدث هو بادى ، وكان يقف على بعد ياردات قليلة . ويقى اجزوما صامتا ، لهذا اقترب بادى ، وتطلع إلى الرجل عن كثب . وكان على ناحية من فمه دم . وأخذ الرجل يسعل فى ألم فأومأ بادى برأسه .

- لابد أن تذهب إلى الطبيب .

فقال الرجل : « لا » .

وقال اجزوما للرجل : « احك له » .

وحكى الرجل لبادى عن زوجته وطفليه والجنيهات الثمانية ، وما إن انتهى حتى استدار بادى ومشى إلى المكان الذى كانوا يعملون فيه ، ثم عاد بعد فترة وجيزة .

- ألم يخبرك الرجل الذى استخدمك أن نقودا ستدفع لك لو أصبت بمرض الصدر ؟ .

- أجل لم يخبرنى .

فقال بادى : « هو ذلك » .

ونظر الرجل إلى اجزوما . . وكانت لهفته تدعو إلى الرثاء .

- أهو كذلك ؟ .

ولم يكن اجزوما على علم بهذا ، فنظر إلى بادى وفى تردد أومأ برأسه .

- نعم . . هو كذلك .

فقال الرجل: « هذا شيء طيب . . الآن سيكون لديهم بيت . هذا شيء طيب » .

وقال بادى : « اذهب إلى الطبيب . سوف نأتى وسيكون كل شيء على مايرام » .

ومشى الرجل ، فنظر اجزوما إلى بادى « هل سيحصل على نقود حقا ؟ » وكان الشك باديا فى صوته .

- نعم . . هذا صحيح . . تعال وسترى .

ومضيا فى أعقاب الرجل ولحقا به فى المصعد الأخير . وانطلق المصعد يعلو ويعلو ويعلو ، وكانت النوبة الأخرى جاهزة فى انتظارهم. ورد جوهانز إلى اجزوما مفتاحه . وكان مفيقا تماما . وإن بدت حلقات داكنة أسفل عينيه ، كما كانت يداه ترتجفان .

ووقف بادى يتكلم مع كريس لحظات ثم نادى اجزوما واتجها مع الرجل إلى المستشفى . وهناك وقف اجزوما فى الخارج مع الرجل ،فى حين دخل بادى وتحدث مع الطبيب . ثم استدعاهما الطبيب وقام بفحص الرجل ، ولم يدم الفحص طويلاً . فلم يكن ثمة شك فيما عند الرجل . وكتب الطبيب قصاصة ورق أعطاها لبادى .

ومرة أخرى تبع اجزوما والرجل بادى ، حيث ذهب إلى مكتب

مدير المنجم . وانتظرا بالخارج . وبدا الانتظار طويلا ثم خرج المدير مع بادى وأبدى تذمره من أن الأمر مخالف للقواعد ، لكنه وقع قطعة من ورق ناولها لبادى .

وصاح بادى « تفضل ... ستذهب الآن للحصول على النقود ، ويمكنك حينئذ أن تذهب إلى البيت » .

وارتجفت شفتا الرجل حين ابتسم . ثم حصلوا على النقود من الصراف .. وكانت عشرة جنيهات وثلاثة أخرى وخمس شلنات أجر شهر كامل ، فكان المجموع بذلك عشر جنيها وخمس شلنات . وقد حصلوا كذلك على ترخيص بالسفر بالسكة الحديد إلى موطن الرجل ، وجواز مرور يبين أنه ليس هارباً من المناجم . وقدم بادى للرجل كل هذا ، ثم قال له :

– الطبيب يريدك أن تذهب إلى المستشفى ، ولكنك حر فى الذهاب إلى موطنك .

– فى أى وقت .

– حتى اليوم ؟ .

– نعم ، حتى اليوم .

وكور الرجل قبضتيه ليصلب عوده ، ونظر إلى بادى ثم اجزوما وابتسم وتألقت عيناه :

– أنت رجل خير ياأحمر ، وأنت كذلك يااجزوما .. إنك أخ حقيقى. ولسوف يرعاك الإله الواحد العظيم .. الآن سيكون لزوجتى وطفلى بيت ، ولسوف أكون معهم لفترة قصيرة . هذا شىء طيب .

وحياهما الرجل ومضى ، وكان بقية العمال فى انتظاره ، فبلغهم بهذه الأنباء الطيبة ، ولبهجته دفع صدره إلى الأمام واطلق صيحة معركة انتهت بسعال مؤلم يمزق رئتيه ، انضم بعدها هو وأصدقاؤه إلى الطابور المتجه إلى المجمع السكنى . وكان هذا آخر سيره معهم ، فعما قريب سيكون مع زوجته وأولاده ، وعما قريب سيسدد الدين . .

وقال اجزوما لبادى : « ماقمت به كان عملا صالحا » .

فقال بادى بأسى : « عمل صالح » .

وفجأة ابتعد تاركا اجزوما واقفا وحده ، وظل هكذا واقفا فترة قصيرة ثم مضى إلى مكان الاغتسال ، وفى آخر الطريق كانت نهاية طابور الرجال فى مشيتهم العسكرية تختفى عند المنعطف .

* * *

بدل اجزوما ملابسه وراح يتطلع فى أرجاء الغرفة وابتسم . جوهانز هذا شخص غريب . من كان يتصور أنه سيرتب السرير ويكنس الأرض ويترك كل شىء نظيفا ومرتبا . . إنسان غريب . . أجل . والرجل الأحمر قام اليوم بعمل عظيم جدا مع المريض . ثم خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه . كان أمامه اليوم بكامله . . بعد الظهيرة بطوله . ولم يكن يشعر على الإطلاق بالإجهاد أو برغبة فى النوم . ربما يغفو فيما بعد قليلا ، أما الآن فإنه يريد الانطلاق .

وساءل نفسه عما إذا كان عليه أن يمضى إلى محل ليـاه ، لكنه لوذهب فسيتوجب عليه أن يحكى لليـاه عن دلادلا . وهو قد شاهد يدى لياه تتفتحان وتتقبضان والنظرة على وجهها وهى تتحدث عن

الشخص الذى يقـوم بإفشاء سرها . وأحس بعدم الرغـبة فى أن يبلغ لياه عن دلادلا ، وقال لنفسه : « سأذهب إلى ميزى » .

ودارت برأسه الظنون فى أنهـا قد تكون مشـغولة و، وقد تشـعر بالخوف فيما لو رآه أناسهـا البيض . لكنه كان يشعر بالحزن ، ويدرك أن ميزى هى الوحيدة التى تستطيع إدخال البهجة على نفسه .

ليـاه سـوف تدرك الموقف ، لكنهـا لاتسـتطيع أن تسـرى عنه ، وميزى وحـدها القادرة على ذلك لأنها تدرى كيف السـبيل إلى هذه البهجة .

وعندما وصل إلى شارع عريض تصطف الأشـجار على جانبيه ، لم يكن واثقـاً من معـــرفـة البـيت ، فهـو لم يتطلع بدقة إليـه ذاك الصبـاح . وصمم أنه فى مكان مـا هنا ، وكان يوجـد ممر . . لكن لكل البيوت الأخرى ممرات ، وكلها تبـدو متشابهة ، وأبطأ من خطوه خارج البـيت الذى بدا له أنه هو . . كيف يعثـر عليه ؟ . لايصح أن يذهب واحـد إلى أماكن البـيض ويسأل عـما إذا كانـت ميزى تعـمل لديهم .

وخرج من الممر صبى صغير يجرى . . بعض من هؤلاء الصبيان يتصفون بالشقاوة ، ولو صاح هذا الصبى فسيسبب له المتاعب .

وقال الصبى : « أهلا » .

وابتسم اجزوما . . هذا صبى صغير طيب . . ويمكن أن يسأله ، ورد قائلا : « أهلا » .

وسأله الصبى : « ماسمك ؟ » .

- اجزوما .

- ماذا ؟ .

اجزوما .

- إنه اسم مضحك .

وارتفع من الفناء صوت ينادى : « جونى » .

فقال جونى : « هذه ميزى » تريدنى أن أتناول الشاى ، لكنى لاأريد تناوله . أو تريد تناول الشاى ؟ .

بلم يدر اجزوما ماذا يقول ، ولهذا ابتسم . هنا إذن مكان ميزى .

- تعال ياجونى وكان هذا صوتاً آخر هذ المرة .

فقال جونى : « هذه أمى . . تريدنى أن أتناول الشاى . أو تريد أنت تناول الشاى ؟ » .

وابتسم اجزوما ثانية ، وفكر فيما يمكن عليه هو هذه المرأة البيضاء التى تعمل ميزى لديها . وانفتحت البوابة ، وخرجت سيدة ميزى البيضاء ومن خلفها ميزى .

وصاحت ميزى فى دهشة حين رأته : « اجزوما . . ألم تذهب إلى المناجم ؟ » وبدا أنها لم تأبه بالمرأة البيضاء .

- كلا . ذهبت وانتهيت من عمل اليوم . وسأستأنفه ثانية عند منتصف الليل .

- مفهوم .

وقالت المرأة البيضاء للطفل : « تعالى ياجونى وتناول شايك » .

فقال الطفل : « لاأريد شايا» .

وسألته المرأة : « أتريد أن تكبر مثل صديق ميزى ؟ » .

فأجاب الطفل « أوو . . أجل » .

- إذن يجب أن تتناول الشاى .

وسأل الطفل اجزوما : « الديك شاى ؟ » .

فقال اجزوما وهو يومىء بشدة : « نعم » .

فقالت المرأة : « ألم أقل لك ؟ وستقـدم مـيزى الشاى لصديقها أيضا » .

فسأل الطفل ميزى : « استقدمين له الشاى ؟ » .

- نعم .

- وبعضا من كعك أمى ؟ .

فقالت أمه : « بالطبع » .

فقال الطفل : « حسن » وتبع أمه .

وقال اجزوما : « لم أكن متأكدا أن هذا مكانك » .

فقالت ميزى : « إننى سعيدة بمجيئك » .

- وسيدتك البيضاء ؟ .

- إنها إنسانة طيبة . ادخل .

وتبعها اجزوما إلى الغرفة الصغيرة التى بات فيها الليلة الماضية .

وسألته ميزى : « هل أكلت ؟ » .

- أجل .

- ستتناول الشاى ؟ .

- أجل .

وذهبت ميزى لإحضار الشاى ، وجلس هو على السرير . وأحس فعلا أنه أحسن حالا . وهكذا الأمر مع ميزى . إنها تفهمه وتجعله يشعر أنه أفضل حالا . لكنه لم يستطيع أن ينزع من رأسه منظر الرجل الذى بصق دما . إنه مازال يسمع سعاله ، ويرى النظرة التى كانت فى عينيه . وعادت ميزى بالشاى وبعض كعك الأم .

وقالت : « المرأة البيضاء ترسل إليك هذا » « وابتسمت » .

ويادلها اجزوما الابتسامة . وهكذا الحال مع ميزى عندما تضحك ، لابد للمرء أن يبادلها الضحك ، وحين تبتسم ، لابد للمرء أن يبادلها الابتسامة كذلك . فيها دفء يبين فى ضحكات عينيها ويشيع فى الآخرين ، وقدمت له ميزى قدحا من الشاى .

ماذا بك ؟ إنك تبدو حزينا .

فقال لها : « شاهدت إنسانا يبصق دما » وحكى لها عن الرجل الذى له زوجة وطفلان ويدين بثمانية جنيهات .

- ويجعلك هذا حزينا ؟ .

- لاأدرى . الرجل سيموت ، وكان سعيداً لحصوله على نقود يسددها من أجل بيت زوجته وطفليه .

فسألته ثانية : « ويجعلكم هذا حزينا ؟ » .

ونظر إليها دون أن يدرى ماذا يقول لها .

فقـالت برقة وقد ثبت ناظريـها عليه : « أنت إنسـان طيب جدا ياجزوما ، وأنا شديدة الإعجاب بك » .

ورأى اجزوما الرقة فى عينيها ، فأشاح بوجهه .

- وأنا مـعجب أيضـا ياميزى .. مـعجب بك كـثـيـرا جدا ، ولكـن . .

وابتسمت ميزى : « نعم ، أدرى » .

- كـلات أنت لاتدرين ! /أنت تظنين أننـى أريد أن أحبـهـا ، ولكن الأمـر ليـس كـذلك . إنهـا لاتصلح لـى . . أنا أدرى ولكنى لاأملك أمر نفسى . كـأنها شيطان يتلبسنى . ولق أقـمت بعيدا لأنى أعلم أنها كشيطان يقبع داخلى .

- وأساليب البيض تشبه شيطانا يسرى فى عروقها .

- أجل .

- آسفة ياجزوما .

- لكننى معـجب بك حقا يامـيزى . أنت الوحـيـدة التى تجعلنى أضحك . . حين أكون مـهموما آتى إليك . . أنت الإنسـانة الطيبة ، أعلم ذلك . ولكن لو ابتسمت تلك الإنسانة لى لذبت شوقا إليها .

وأطلت ميزى من النافذة .

- إنك متعب ياجزوما . . . استلق عل الفراش .

وتمدد اجزوما فـوق السرير وأغمض عينيـه . . وأحس أنه أفضل حالاً لأنه تحدث مع ميزى .

ولم يعد إحساسه الآن بأنه يخدعها قوياً كم كان . وساد بينهما صمت لفترة طويلة ، إذ جلست ميزى تحدق من النافذة ، أما هو فكان راقدا مغمض العينين ، يغمره إحساس قوى بالطمأنينة .

ثم تذكر دلادلا فقال دون أن يفتح عينيه :

- دلادلا يغدر بلياه .

- دلادلا ؟ كيف عرفت ؟ .

- أبلغنى بذلك جوهانز . كان ثملاً فى الليلة الماضية ، وكان يتبجح على جوهانز .

- اتعلم لياه بذلك ؟ .

- كلا .

ثم امتدت فترة صمت أخرى بينهما ، ونهضت ميزى من مكانها بالقرب من النافذة واتجهت ناحية السرير ، ووقفت تنظر إليه من عل . وفتح عينيه وتطلع إليها .

- سوف أسرع بإنهاء عملى ثم نذهب لنحذر لياه .

- أنت شاهدتها وهى تقسم أنها ستنال من ذلك الذى يغدر بها ؟ .

يجب أن نبلغها . . أغمض الآن عينيك وحاول أن تنام . يجب أن تستريح وإلا ستجد نفسك متعبا الليلة حين تبدأ عملك .

ومست ميزى بأصابع باردة رقيقة . وتباطأت ثانية واحدة أو مايقرب من ذلك ، ثم جذبتها بعيدا عنه، ثم كررت قولها ثانية : « نم » وخرجت وأغلقت الباب خلفها .

- ١٠ -

عند الغسق وفى ليلة كانا يسيران وسط الشوارع المظلمة فى طريقهما إلى مالاى كامب لتحذير لياه . لم يتبادلا من الكلمات إلا القليل . وكانت ميزى هادئة رقيقة كعادتها ، ولم يبد عليها المرح والضحك اللذان يلازمانها دائما ، ومشى اجزوما إلى جوارها .

وحين اقتربا من المكان أخذت اليزا تحتل تفكيره ثانية . وكانت قد توارت عن فكره منذ أن ذهب مع ميزى صباح الأحد إلى هوبفلاى ، وأحس آنذاك أنه مطمئن وسعيد ، وإن شعر أن هذه السعادة كان ينقصها شيء ما . وهو يدرى الآن أنه آمن فى قرارة نفسه أن ميزى هى التى منحته هذه السعادة وليست اليزا وتمنى أن لو كانت هى اليزا ، اليزا ذلك هى التى يبتغيها . لو أن اليزا فقط تضحك كما تضحك ميزى ، وترقص مثلما ترقص ميزى ، وتخرج معه كما تفعل ميزى ، لكان سعيدا ، ولبذل جهدا شاقا فى العمل ليحصل على الأشياء التى تجعل المكان الذى يعيشان فيه يشبه مكان الرجل الأبيض . لكنها ليست مثل ميزى ، فهى لاتضحك ، ولاترقص ، وتمنى لو أنه لم يحبها هكذا . ونظر إلى ميزى وتمنى لو أنه عشقها . ولكنها اليزا هى التى تعلق قلبه بها ، وهى التى يتوق إليها .

- ميزى .

نعم ؟ .

- لماذا يكون الأمر على هذه الصورة عندما تحبين إنسانا ما ؟

فقالت ميزى وهى تشيح بوجـهها عنه « ربما لأنك أخطأت فيمن أحببته » .

قد لاتستطيعين أن تتمالكى نفسك .

- أدرى . . لاأستطيع أن أتمالك نفسى . . وهى ؟ .

- لاأدرى .

- لماذا لاتحادثها ؟ .

- صـعب . . . معك أسـتطيع أن اتحـدث ، وليس الأمر مـعهـا كذلك .

- لقد جاءت إليك فى تلك الليلة . . . أعنى . . هل أنت الذى طلبت منها المجىء ؟ .

- لم أطلب منها ذلك . . هى التى جاءت .

- إنها تحبك ياأجزوما .

فسألها وهو ينظر إليها بحدة : «كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟» .

- هكذا الناس ياأجزوما .

- أنت لست كذلك .

- أنا لست اليزا . . وأنت لست عاشقا لى .

- وأنت ؟ .

ورفعت ميزى ناظريها إلى وجـهه . وانشق فمها عن ابتسامة مرة ، وإن يلألأ الضحك فى عينيها ، وهزت رأسها ببطء .

وسأل اجزوما بإصرار : « أنت تحبيننى حقا ؟ » .

– وماذا يعنى هذا لك ؟ .

وراح اجزوما يشاهد أضواء النيون وإعلاناتها بألوانها المتعددة تومض وتنطفىء عن بعد ثم قال :

– إنه يعنى الكثير . . يعنى لى الكثير لأنك إنسانة طيبة ، وأستطيع أن أفهمك وأتحدث إليك .

– وماذا عنى ؟ أيطيب لى أن أشاهدك وأنت تجرى وراءها ؟ أيطيب لى أن أراك تأتى إلى فقط عندما تهرب منك ؟ وأنت تقول لى إن من الخير أن أحبك . . سر فى طريقك يااجزوما » .

وعبرت ميزى الطريق وأسرعت تهبط إلى شارع جانبى . وحاول اجزوما اللحاق بها ، ولكن حركة المرور وتدفق الناس حالا دون ذلك ، أيضا فوقف على حافة الرصيف برهة من الوقت . اليزا تغضب منه دائما وميزى الآن غاضبة أيضا. وهز كتفيه استهجانا ، واتخذ طريقه على مهل إلى مكان لياه . وكانت لياه وحدها ، وكانت ثملة بعض الشىء ، تلألأ عيناها فى سعادة . تلبس رداء أزرق زاهيا بزهور حمراء وبيضاء ، وحول رأسها منديل كثير الألوان ، ووجهها يضوى من الدهان الذى دعكته به بعد غسله . ومن كل أذن تدلى قرط زجاجى طويل ، وحول جيدها القوى الجميل خيط من حبات زجاجية صغيرة . وكانت وسيمة وهى تقف فى الشرفة ، بل أكثر وسامة من أية مرة أخرى رآها فيها اجزوما . وكانت تقف هناك حتى يشاهد كل واحد جمالها الشريد . وتوقف اجزوما وراح يحملق فيها بإعجاب .

- ياسلام ! ولكنك جميلة إلى الحد الذى يحتم التطلع إليك .

وضحكت لياه . . ضحكة عميقة . . قوية . . تغلفها السعادة .

وسألته متباهية : « هل رأيت حذائى ؟ » .

- كلا ، أرنيه .

وخطت إلى الطور وراحت تستعرضه ، وكان أسـود لامعاً قصير الكعبين جديدا .

- جميل ؟ .

- أجل .

وقالت امرأة عبر الطريق : « دعينى أره ياليه » .

وخطت لياه إلى الشارع .

فقالت المرأة : « تعالوا وتفرجوا على ملابس لياه الجديدة » .

وخرج أناس ودعوا آخرين . لقد خرج الناس الذين يسكنون كل البيوت القريبـة من بيت لياه ليتفرجوا على مـلابسها الجديدة . ولكى تتيح لهم رؤية أفضل ، أخذت تتمشى فى الشـارع بتمهل جيئة وذهابا محاكية سيدات جوهانسبرج الأنيقات من البيض ، وتهز ردفيها وتحاول التزحلق . وصخب الناس فى غبطة ، وبأسلوب أنيق وضعت يسراها على ردفها ، وأمسكت بيمناها مبسم سجائر وهمى ، وراحت تنفض رمادا وهميا ، وتبتسم ابتسـامة البيض فى تشامخ وخرج دادى العجوز السكير إلى الشارع يتدحرج ، ورأى لياه ، فانفتحت عيناه فى دهشة ،

ثم أضاءتا فجأة ، فشد قـامته وبدا شديدا الغطرسة ، وفرد ربطة عنق وهميـة ، وخبط نفسـه بقفاز وهـمى ، وأدار فى يده عصا وهمـية . والتفت يمنة ويسرة وتنحنح وسار فى خط مستقيم بعض الشىء وصعد إلى ليـاه وانحنى بطريقة أوبـرالية . وأومـأت لياه التى كـانت لاتزال تنفض سيجارة وهميـة ، إيماءة واضحة ، وبتؤدة مدت له يدها ، ومع كثير من الحـركات المسرحية ، هبط على ركبتيـه وقبل اليد الممدودة . ومع انتصـابه واقفا فـضحت الجعة نبـالته ، إذا انكفأ على وجـهه فى الشارع ، فضحك الناس وصـفقوا ، وأمسك اجزوما جـانبيه من شدة الضحك وانسـابت الدموع من عينيه . وبعـيدا من كل هذا ، جلست ميزى بلا حول عند قناة الصرف وكانت قد وصلت فى التو .

ودون أن تتحـرك خلجة من خلـجات وجه ليـاه ، راحت ترقب دادى بانتبـاه ، ويدها لاتزال ممدودة . كل بوصة فيـها تشيـر إلى أنها سيدة متغطرسة . ونهض دادى وفرد ربطة عنق شـبحية ، وخبط نفسه بقفـاز غير مـرأى ، وأدار فى يده عصا ، ولاوجـود لها ، ثم انحنى ثانية انحناءة تامة .

ثم وبوقار متناه تناولت لياه يده ، فرفع قبعة لاوجود لها ، وسار الهـوينى فى الشارع جـيئـة وذهابا ، تتأبط السـيدة ذراعـه ، وتنفض سيجـارتها ، ويدير السيد عـصاه ، محاولا بطريقة مـا أن يتحكم فى اتزان مشيته . وضحك الناس وصاحوا وصفقوا ، لكن السيدة العظيمة والسيد لم يلتفتا إليهم . وكانا يبديان ابتـسامات جافة متعالية ويؤديان دورهما بحركات مسرحية بسـيطة ، فتنفض السيدة سيجارتها ، ويدير

السيد عصاه . وبعدئذ ووسط عاصفة من التصفيق ، ذهبا إلى البيت . . ومازالت هى السيدة وهو السيد . وبعد دقائق معدودات خرجت لياه إلى الناس وأبلغتهم أن السيدة والسيد رحلا ، ودعت كل فرد منهم إلى حفل . ، وأطرى الناس الدعوة فى صخب ، ومضى كل منهم إلى بيته ليرتدى أفضل ماعنده من ثياب .

ونهضت ميزى وراحت إلى اجزوما وسألته :

- هل حكيت لها عن دلادلا ؟ .

- كلا .

- أنا التى سأحكى لها .

وتطلع اجزوما إلى نهاية الشارع ، وكانت اليزا قد انعطفت فى التو من الناصية . وتابعت ميزى نظراته ورأتها ، فاستدارت فجأة ودخلت البيت . وبقى اجزوما فى الشرفة يشاهد اليزا وهى تصاعد مع الشارع . وأراد أن يذهب للقائها ولكنه لم يجرؤ . كانت جميلة وهى تصعد على هذا النحو . . رأسها مرتفع ، وجسدها يتمايل قليلا مع تحركها . هى كل شىء يريده فى امرأته (خليلته) التى يتمناها لنفسه . وكان بمقدوره أن يقف هناك ويشاهدها إلى الأبد لو أنها تتحرك دوما على هذه الصورة . بمقدوره أن يشاهد نهديها النافرين وساقيها القويتين طوال حياته .

ورأته اليزا ولوحت له ، فلم يصدق عينيه ، أمر لايمكن أن يكون حقيقيا ، ولكنها لوحت له فوثب من الشرفة وابتسامة شوق ترتسم

على شفــتيه ، ولكنه لم يمض إليهـا وانتظر ، ولوحت له ثانية . . أجل أكان التلويح له . وتقدم مسرعا ، فابتسمت له ، فتناول يدها .

- أهلا ياإجـزوما . . جـمـيل أن أراك . أنت لن تحنق على من الآن فصاعدا . . أو ليس كذلك ؟ . وكان صوتها رقيقا عذبا . . وكان شيـئا جمـيلا أن ينظرز إلى عيـنيها ويرى مـافيهـا من دفء تجاهه ، وأجاب :

- لست حانقا .

- تسببت فى تعاستك .

فقال : « لم يكن شيئا ذا بال ، دعينى أحمل حقيبتك » .

وتناول منها الحـقيبة فـابتسمت ، وتأبطت ذراعـه ، ومالت عليـه قليلا وتطلعت إليـــه . وكان فى عيـنيه دفء وعشـق ، وكان سعيـدا ، وقد نسى كل شىء اخر . . فاليزا كـانت لصديقة به تتكىء على ذراعه ، فأحس بدفـء جسدها وكان فى صـوتها نعومة . لايهمه الآن أنها آلمته فى المـاضى ، فهى الآن بصحبتـه ، تميل عليه ، وعلى شفتيها ابتسامة ، والضياء يشع من عينيها . هذا كل مايهمه الآن ، لا الأمس ولا كل ماحدث بالأمس .

ويشدة كرر ماقاله : « لم يكن شيئا ذا بال » .

وربتت اليزا على يده وقالت : « كان شيئا سيئا » .

فقال: « لا ، لو أحب رجل أمرأة فإنه يوله بها . . هذا كل مافى الأمر . لاوجود لما هو طالح ولا لما هو صالح . .

لايوجد فقط سوى الحب . . الشىء الوحيد السيء هو أن رجلا يحب امرأة لاتبادله الحب فهذا الشيء السيء . أما لو أحبها وأحبته ، فلا يوجد سوء حينئذ . وأنا أحببتك ، ولو أحببتنى فلم يكون ذلك أمراً سيئا » .

وتوقف يتطلع إليها فى قلق ، ورقت عيناها حين رأت نظرة القلق فى عينيه ، وضغطت ذراعه بيدها . .

– لو أحب رجل امرأة ولم تبادله هى الحب ، فما السوء فى هذا ؟ .

– لأن الرجل عندئذ لن يكون سعيدا .

– ربما كانت المرأة لاتصلح له .

– ربما . . ولكن حين يحب الرجل فهو يحب حقا .

– وأنت . . ستسعد لو أحببتك ؟ .

وتوقفا خارج البيت . ونظر اجزوما إلى اليزا التى رأت فى عينيه الإجابة عن سؤاله . لقد كانت موجودة ، وكانت من القوة بحيث أنها لم تستطيع أن ترفع عينيها فى عينيه . وحملتها بعيدا مثلما حملها هو يوم السبت ليلا ، وبدا وكأنهما وحيدان فى هذا العالم . . هما الاثنان فقط فى هذا العالم الفسيح .

– جئت إليك يوم السبت ولم تطلب أنت منى ذلك . . لم كان هذا ؟ . وأتشاجر معك دوما . . لم ؟ . وحين لاتكون موجودا أبتغيك وأحن إليك ، لم ؟ الأمور تكون هكذا دوما بين الرجل

وامراته(خليلته) . وأنت رجل ياإجزوما ، وينبغي أن تعرف . اسمع ياإجـزومـا ، أنا خليلتـــك ، أردت أنا ذلك أو لم أرد ، فـهـذا هو الوضع ، لست أملك أمـر نفسي . . إنني خليلتك بكل مـافي الكلمة من معنى ، ولكنك يجب أن تكون شديدا معي لأنني سيئة . وتشبثت بذراعه ، وافتـرت شفتاها عن ابتـسامة مرتعشـة ، ولمعت الدموع في عينيها .

- وهذه الأشيـاء التي تبتـغينهـا ، مـــاذا عنها ؟ .أشـياء الرجل الأبيض ، ورجل يسـتطيع قراءة الكتـب ، ويتكلم معك بلغـة الرجل الأبيض ؟ . الأشـياء ، ربما اسـتطعت أن أوفرها لك لو إنني عـملت بجـد . لكنني لاأسـتطيـــع قـراءة الكـتب وأتكلم بلـســان الرجل الأبيض . . هيه ؟ .

فـقالت وهي تطاطيء رأسـهـا : « جنون . . إنه جنوني ووحين يحل لاتدعني أسبب لك ألماً . اتركني وحدي ، وعندما يزول سأكون بخـير مـرة أخرى . حين يحل بي ، عـلـيك فقط ان تبـتعـد عني ، وعندما تعود سـيكون قد ولى عني . أحبك حقـا ياإجـزوما . . إنني إمرأتـك (خليلتك) .وأنا أريد ذلك » . وكان صوتها نحيب .

وحين تطلعت إليـه ثانية عاد إلى عـينيها الصـفاء . لقد اخـتفت الدموع ، وولت الأطياف ، وأكـدت له العينان أنها تحبـه ، واحتواها بين ذراعيه وضمها بشدة .

- جميل . لقد قال ذلك بقوة رجل مزهو بانتصاره ، وابتسم في وجهها ، فبادلته الابتسامة .

وكان المارة بالشارع يتطلعـون إليهما وهما واقفـان يميل كل منهما

على الآخـر ، وينظر كل منهـمـا فى عين الآخـر فـيـغض المارة من أبصارهـم ويومئون برؤسـهم بطريقة تـوحى بالفهم ، ويمضـون لحال سبيلهم .

وقال اجـزوما : « الحيـاة جميلة » . وأراد أن يصـيح بها بأعلى صوته ليقول لكل إنسان فى كل مكان أن الحياة جميلة .

وقالت اليزا : « أجل » .

وقال لها : « أنت جميلة » .

فقالت : « كلا » وغضت من بصرها .

وقـال بإصرار : « ولكن هذا صـحيح .. حين رأيتك أول مـرة تطلعت إليك وقلت لنفسى إنها جميلة هذه حقيقة » .

فقالت : « عينا المحب لاتصدقان القول » .

فقال : « هذا مثل غير صادق » .

وضحكا ، وأدرك أن هذه هى المرة الأولى التـى يسمع فيهـا اليزا تضحك ، وأن ضحكها هـذا جميل ، شبيه برنين عدد كـبير جدا من النواقيس الرقيقة الشجية .

وقالت مـيزى : « يجب أن ندخل » ونظرت إلى الشارع . فـقد وقف صبيان صغيران يراقبانهما ، ترتسم على وجهيهما إمارات التسلية والاستهزاء .

وخرجت مـيزى ، فـالتقطت عـيناها كل شىء بنظرة خـاطفة ، وقالت :

- الطعام جاهز .

فتبعها اجزوما واليزا إلى البيت .

وكان الآخرون قد جلسوا إلى المائدة ، فقد أعدت وجبة سريعة للناس الذين بدأو بالفعل فى المجىء لحضور الحفل . ونظرت لياه إلى اجزوما وأطلقت ضحكة ممزوجة بنخير عال وفظ .

- هكذا ! وأخيرا أقبلا سويا - الكلب والكلبة ، هذا شيء طيب .لقد انتهى الأمر الآن ، وكنت على وشك أن يصيبنى منه الملل . حسن ! فيم وقوفكما هناك ؟ تناولا الطعام ! لايكن حبكما سببًا يدعو إلى تعطيل حفلتى .

وجذبت اليزا اجزوما إلى إحدى الدكك ، وقالت :

- نيتها سليمة ، لايزعجك لسانها .

فقال اجزوما : « أعرف » .

ونهضت لياه ونظرت إلى ميزى ، ورقت نظراتها عينيها لبرهة قصيرة ، ثم اختفت الرقة ولفت ذراعها حول كتفى ميزى ، وأمسكت بها فى تعاطف وقالت برقة :

- هيا ياميسزى ، لدينا عمل ولدينا لهو كثير . وسترأسين أنت الحفل ، وستوجهين الراقصات ، ستبدأين الحفل ، وكل الأوامر أوامرك أنت . . هيه ؟ .

فقالت الأم بلانك : « سيكون هذا شيئا جميلا للغاية » .

وقالت اليزا : « ولكنى أريد أن أبدأ أنا الحفل » .

فقالت لياه بخشونـة : « اعتنى أنت بخليلك يامعلمة » وتوجهت بميزى إلى الفناء ، حيث وقف الناس يضحكون ويتحادثون وحيث كان تنغيم آلات الموسيقى .

وقالت لياه لميزى : « يجب أن تسعدى الليلة » .

فقالت ميزى : « إننى سعيدة » وعانقتها .

– امض إذن وابدأى الرقص ، واضحكى ياطفلتى لأن ضحكتك جميلة ، وستجعل الآخرين أيضا يضحكون . امض ! .

وتقـدمت ميـزى ورفعت يديهـا ، فتـوقف الناس عن الكلام ، وهدأت الموسيـقى . وكانت هى تقف تحت مـصباح مـربوط فى حبل غسـيل ، وقالت لهم عليـهم أن ينسوا متـاعبهم وأن يسـعدوا ، لأن السعادة شيء جميل . ثم راحت تشدو بأغنيـة عن السعادة ، يصحبها الجيـتار والتـا التانجـو والكونسيـرتينا .ودندن الناس مـعها . وكـانت الموسيـقى دافئـة منعشـة ، وكان صوتهـا دافـئا فـيه بهـجة . وشع الضحك من عينـيها ثانية وهى تغـنـى ، وسرى الضحك إلى صوتها .. إلى يديـهـا .. إلى طريقة وقوفـها .. إلى الطريقـة التى كانت تفتح بها فمها .. إلـى الطريقة تتطلع بها إلى الناس . وأحس الجميع بذلك ، فـبان عـلى وجوههم ، وفى عـيـونهم ، وفى الابتـسامـات المرتسمة على شفاهم .

وصاحت ميزى: « الآن إلى الرقص » وجذبت إليها فتى وسيما .

وارتسمت علـى جانب فم لياه ابتـسامـتها المعـهودة ، وبسـرعة كفكفت دمعة أطلت .

- هذه الإنسانة جميلة .

- أجل ! إنسانة جميلة جدا . ذلك الإجزوما مغفل .

واستدارت لياه حوله . لم تكن تدرى أن الأم بلانك قريبة منها .

- لم أكن أتكلم معك أيتها العجوز .

وابتسمت الأم بلانك .

- أعـرف .. لقد كنت تحـادثين نفـسك ، لكنى سـمعـتك . والحقيقة أنه مغفل .

- اليزا جميلة .

- أدرى ، ولكنه مغفل .

- ليس مغفلا من يستحوذ على المرأة التى يبتغيها ياعجوز .

- ولكن كل الرجـال الذين يبتـغـون النسوة اللاتى يسـتحـوذون عليهن ، مغفلون .

- أنت غبية أيتهـا الأم بلانك . إنك لاتستطيعين أن تتقدمى إلى رجل وتقـولين له « هذه المرأة لك فـأحبـهـا » . يقع الرجل فى حب امرأة ويكون الحب هو كل شىء بالنسبة له .

- أدرى ياطفلتى ، ألم يكن الأمر كذلك مع دادى .

وهنا ضغطت لياه على يد المرأة العجوز .

فقالت الأم بلانك : « إنه هكذا دوما » ثم تثاءبت .

وتقدمت امرأة عجوز وجـرجرت الأم بلانك بعيدا . ووقف لياه

وحدها فترة تشاهد الحفل . لقد بدأ بداية حسنة ، ولسوف يكون حفلا جميلا . ثم فيما بعد ، وفى غضون أيام قليلة سوف تتصرف مع دلادلا ، الذى كانت هذه الحفلة من أجله ، والتى كانت احتفاء باكتشافها خيانته .

واشتغلت وسط الفناء نار ضخمة كانت تدفىء المكان ، وراح الناس يخلعون ستراتهم . ونادت لياه شابين وطلبت منهما أن يبدأ فى إشعال مواقد صغيرة فى أماكن أخرى من الفناء . وكانت أرضية الفناء قد تم تسقيتها بخليط من الأسمنت والسماد الطبيعى ثم دكها ثم تلميعها بحجر ، فكانت الأن شبيهة بأرضية صالة رقص . وسرعان ماأشاعت المواقد الدفء فى الفناء كله ، وأصبح كل شىء جميلا .

وفى ركن بعيد من الفناء ، قامت جماعة من المسنات بالسهر على الطعام ، فسار كل شىء كما ينبغى أن يكون عليه .

ودخلت لياه البيت ، وكان اجزوما واليزا هناك وقد تناولا الطعام فى تؤدة . فقالت لياه :

– هكذا . . وابتسمت لهما .

وأفسح اجزوما مكانا لها على الدكة واتجهت إلى دكة أخرى قبالتهما . وأدركت أن اجزوما سعيد ، وكذلك اليزا . كما رأت أنها مختلفة . كان فى عينيها رقة غير مألوفة جعلتها أكثر جمالا ، واختفت الصرامة عن فمها ، وبدت أكثر وهنا . ،لم يكن جسدها مشدودا ومنتصبا . وكانت يدها تعبث بجوارها وتتحسس بعضا من أعضاء اجزوما .

وهزت لياه رأسها .. هكذا الحال دوما مع المحبين . تعثر المرأة على رجل فيصبح العالم مكانا جديدا . وتذهب عنها صلابة المقاومة فى جسدها . ويتوقف عناد رأسها ولن تعود تفكر بعقلها بعد ذلك ، ولكنها ستحس بقلبها .أجل .. الأمر هكذا أبدا .. ومع الرجل ، نفس الحال أيضا ، الكتفان تستقيمان ، والبسمة لاتفارق شفتيه ،وتمتلىء النفس ثقة من جديد .. أجل ، كان الحال هكذا أبدا ، وسيكون كذلك أبدا حين يقع فى الحب رجل وامرأة .

وسألتها لياه : « أنت الآن سعيدة ؟ » .

وأجابت اليزا : « أجل يالياه » .

ورقت نظرة عينى لياه ، وتراقصت ابتسامة شفتيها .

– جميل . فلنتحادث إذن والحديث بينى وبينك يااجزوما .

قال اجزوما : « هذا شىء طيب » .

– استمعى يااليزا ، ولكن تذكرى أن الحديث ليس موجها إليك .

وأومأت اليزا ومالت على اجزوما ، فأحاطها بيده .

وفى الخارج ازداد جو الحفل دفئاً وحرارة .. وكان صوت الموسيقى أكثر ارتفاعا ، ووصل ضحك الناس وصياحهم إلى الغرفة . وكان صوت ميزى بين الفينة والفينة فوق أصوات الآخرين .

– هذه الإنسانة أحيانا مايصيبها الحمق يااجزوما .. أنا أدرى لقد رعيتها طوال الوقت ، وراقبتها ورأيت الأفعال التى كانت تأتيها .. إنها أحيانا ماتكون حمقاء ، هيه ؟ .

- أجل .

سيتابها الجنون أحيانا ، فدعها لجنونها . إنه جنون المدينة . . ولو كانت صنفا آخر من الرجال لقلت لك خلصها منه . لكنك أنت أيضا أحمق ، لذلك عليك أن تدعها لجنونها . هل هذا حديث طيب ؟ .

- هو كذلك .

- حسن . وأنت رجل طيب ياإجزوما ، وستعنى بها الآن ، فدورى سينتهى معها . هى الآن امرأتك (خليلتك) ، وإذا لقيت متاعب فتعال إلى لياه لأنى أحبك ، وأحبها ، ولسوف أساعدك . . هذا كل مافى الأمر . وقد انتهى الإندابا (الحديث) معك ياإجزوما . .

وحولت لياه عيناها إلى اليزا .

- حديثى الآن معك . بالنسبة لك ثمة شيء واحد ، وهو أن تصدقينى القول . . أتحبين اجزوما أم هى حالة الجنون التى تنتابك أحيانا ؟ .

وكان فى الخارج انفجار من ضحك مرتفع وممتد ، وبدا كما لو أن دادى يمارس بعضا من جنونه ثانية .

ونظرت اليزا إلى لياه ، وكان مافى عينى لياه يجعل من الصعب على اليزا أن تشيح عنها بوجهها ، فقالت :

- أحبه .

فقالت لياه : « هذا شيء جيد ، لوأحبت إمرأة رجلا ، فإنها تعمل مافيه خير له . ولك عندى هدية .. الأشياء التى بالغرفة الصغيرة هى لكليكما حين تريدان أن تشرعا فى تكوين بيتكما ..

والآن ، أخرج ياالجزوما وابحث عن ميزى وراقصها .. سيكون ذلك أمرا طيبا ، اخرج ! » .

وتردد اجزوما ثم خرج .

فقالت لياه لااليزا : « إنه رجل جيد » .

وأومأت اليزا وشرعت ترفع الصحون .. وجلست لياه تراقبها ، وفجأة تركت اليزا الأشياء وهبطت إلى الأرض على ركبتيها أمام لياه ، ودفنت وجهها فى حجرها وتشبثت .

وجد اجزوما ميزى وسط جماعة من الشبان فشق طريق إليها . وكانت ميزى تضحك ، ومن فمها المفتوح ، لمعت أسنانها الجميلة . ورغب الشبان فى أن تختار هى واحدا منهم يرافقها طوال الليل .

وقال واحد منهم : « سأرقص معك أنت فقط » .

وأعلن آخر : « أنا أرقص رقصا جيدا » .

وقال ثالث : « أنا الأقوى » .

وقال آخر : « لن أتخلى عنك » .

وعرض آخر أكثر من ذلك : « سآخذك إلى البيت » .

وتناول أحدهم يدها وأطرى جمالها ، ولكن ميزى رفضتهم جميعا بضحكة مرحة وبهزة من رأسها .

وقال اجزوما : « أو يمكن أن أرقص معك ؟ » .

والتفتت إليه وكفت عن الضحك ، وتطلع إليه الشبان .

وقالت ميزى : « أجل » وخطت بالقرب منه .

وندب الشبان حظهم وسأل بعضهم بعضا عمن يكون ذلك الرفيق المحظوظ . ورقص اجزوما وميزى فى صمت . وكان حولهما آخرون أزواجا أزواجا يتدافعون وينادون على أصدقائهم وجيرانهم .

وسرح اجزوما بفكره فى اليزا وابتسم . . اليزا ، عشقته ! وحبها قوى ومبهج كحبه .

وقال لميزى : « إنها تحبنى » .

فقالت ميزى : « أنا سعيدة من أجلك » .

فقال لها : « أنت صديقة طيبة » .

فقالت : « يجب أن تتذكر موعد الذهاب إلى العمل » .

فقال : « سأتذكر » .

وتوقفت الموسيقى ، وذهب إلى حيث توجد المسنات اللاتى جلسن مع الطعام ، وكن يوزعن بتقتير قطعاً صغيرة من اللحم والخبز . ووقف اجزوما وميزى وجها لوجه ، ولم يكن لديهما سوى القليل من الكلمات التى يمكن أن يتبادلاها . ولحقت اليزا خارج الغرفة ولفت ذراعها حول يااجزوما وقالت فى سعادة :

– أهلا ياميزى .

فقالت ميزى : « تبدين سعيدة » .

فقالت اليزا : « إننى سعيد ة » وسلمت عليها .

وقالت ميزى : « اجزومـا يجب أن يكون فى العمـــل فى الثانية عشرة ، ذكريه » .

أومأت اليزا وأطلت فى ساعتهـا ، ومشت ميزى وكان الشبان فى انتظارها ، فرحـبوا بهـا بابتهاج . وعـزفت الموسيـقى ثانية ، ورقص اجزوما مع اليزا ، وانتابه شعور جمـيل يراقصها ، كانت كالريشة بين ذراعيه .. خفيفة ، مطواعـة ، سريعة ، وكانت الموسيقى تنساب فى عروقهما ، فلم يلحظا الجمع الراقص حولهما . كان كل منهما يتطلع إلى عينى صاحبه ويمسك به بشدة .

وتوقفت الموسيقى ، فجذبته اليزا إلى ركن هادىء ، وجلسا على بعض الأكلمة بالقـرب من نيران ، وكان بالقرب منهـما المسنون الذين يتفـرجون على الرقص . وتركتـه اليـزا يريـح رأسه فى حـجرها . وقدمــت امــرأة عجـوز شيـئا من طعـام لاليزا ، فـراحت تطعم منه اجزوما ، تلقمـه قطعا صغيرة ، وتداعب بشعره . ومن حـولهما كان الناس يتضاحكون ويغنون ويرقـصون ويرون الحكايات ، أما هما فكانا وحدهمـا وكانا سعيـدين اليزا ترسم على جبهـته أشكالا بإصبـعها ، وتتبع معالم وجهه ، وفى كل مرة تقـترب يدها من فمه ، كان يطبقه عليها .وحين فرغا من الطعام راح اجزوما يحكى لها عن موطنه وعن أهله وعن الأشياء التى كان يفعلهـا وتلك التى كان يود أن يفعلها حين كان صبيا صغيرا . وقال لها بشىء من الزهو إنه كان أقوى صبى فى قريته ، وحـدثها عن أمه التى توفيت ، وأبيـه العجوز وأخيه الصـغير وأنهى حديثه بقوله :

- سوف تعجبين بهما وستعجبين بالمكان أيضا .

وقالت : « أجل إنه جميل . ويجب أن نزورهما . . هيه ؟ » .

فأكد : « سنفعل ! . ولكن يجب أولا أن نكون بيتا وندبر مالا ، حتى نستطيع أن نأخذ لهما هدايا حين نذهب إليهما » .

ثم أخذت هي تحكى له عن نفسها . لم تعرف أبويها ، فقد توفيا حين كانت شديدة الصغر ، فرعتها لياه . وكانت لياه كريمة معها ، فأرسلتها إلى المدرسة . وحكت له عما كانت عليه المدرسة ، وماذا كان الناس يفعلون في المدارس . وحاولت أن تحدثه عن حالة الجنون التي تنتابها في بعض الأحايين . . ذلك الجنون الذي يجعلها تبغض نفسها بسبب سواد جلدها ، وتبغض البيض لبياض جلودهم ، وتكره أهلها لأنهم لايشتهون أشياء البيض . لكنه كان يشق عليها أن تتكلم عن ذلك لأن الكلمات كانت تتأبى عليها . وكان يشق عليها أن تشرح الخواء الذي كانت تشعر به في قلبها أحيانا ، والإحساس الذي يؤدى بها إلى الرغبة في قتل الناس . . كان يشق عليها أن تجد الكلمات التي تعبر بها عن كل هذا .

وعقب هذا قالت في بساطة .

- إنه جنون المدينة الذي يكمن داخلي .

فطلب منها ألا تتحدث عن هذا ، ومن ثم راحا ويداهما متماسكتان يشاهدان في صمت رقص الناس وغناءهم وضحكاتهم ، وكانا سعيدين . وكانت إراحة رأسه في حجرها بالنسبة له شيئا لطيفا . كما كان شيئا جميلا بالنسبة لها أن يريح رأسه في حجرها

وكانـت أصابعـها تعـبث بمعالم وجـهه ، وحين تمسك أسنانه بـها ، تتعامل معها برفق.

وراحت تقول له مرارا وتكرار إنهـا تعشقه ، كمـا راح يقول لها مرارا وتكرار إنه يعشقها وكلما باح أحدهما للآخر بحبه بدا هذا البوح دائما وكأنه شيء جديد.

ومرت بهما لياه وابتسمت . وقالت لنفسها . . هكذا الحال دائما مع المحبين . وتذكرت كيف كان رجلهـا - خليلها يغازلها . وتطلعت اليزا إلى ساعتها ، وكانت قد اقتربت من الحادية عشرة فقالت :

- حان وقت الانصراف .

لكن اجـزومـا لم يتـحرك ، ومن ثم أجـبـرته على النهـوض . وتوقفت الموسيقى وكون الناس حلقة وراحوا يصفقون بأيديهم ويدقون الأرض بأقدامهم . وكانت هذه رقـصة الرجل والمرأة . . الرقصة التى يتـجه فـيـهـا الرجل والمرأة إلى وسط الحلقـة ويتـحادثان بأيـديهمـا وجسديـهما وليس بشفـاههما . وتذكر اجـزوما المرة الأولى التى أدى فيهـا تلك الرقصة . . لقد كـانت مع ميزى عند ناصيـة الشارع وتحت مصباحه . وقال :

- هيا بنا نرقص . وأمسك بيدها .

وكانت ميزى هى مغنية الرقصة . وارتفع صوتها فوق دق الأقدام وتصفيق الأيادى ، ودخل اجزوما واليزا وسط الحلقة ، ودعا اجزوما اليزا إلـيه بيديه ، لـكنها لم تأت . وكـان فى رفضهـا ألم ، وارتجف جـسدها وتلوى وجـههـا مع الألم الذى صـاحب الرفض . وتعاطف النسوة معها بصوت مسموع ، وشجع الرجال اجزوما .

وعلا فوق هذا كله صوت ميزى ، الذى تبدى فيه شىء من ألم من جراء رقص اليزا .

ومرة أخرى دعا اجزوما اليزا بحركة رقيقة فيها استجداء ، فتحركت تقترب منه . . خطوة . . خطوتين . . ثم لم تسطع أن تتحرك أكثر من ذلك . ورقصت فى نفس البقعة . ورغم شدة المحاولة ، فإنها لم تستطع أن تتحرك أبعد من ذلك باتجاهه . ورقص اجزوما بعيدا مغتما بائسا . وفجأة تحررت اليزا . استطاعت أن تتحرك قدما ، وراحت تتوسل إليه بيديها ، وتدعوه بحركة من رأسها لكنه لم يكن بقادر على سماعها وكان يائسا محبطا . وتعاطف معه الرجال ، وشجعت النسوة اليزا على أن تدعوه بصخب أشد . وازداد إيقاع رقصها ارتفاعا ، وازداد توسلا ، وأصبح أسرع ، وراحت تلف وتدور ، تتوسل بيديها ، تأمر برأسها ، تطالب بقدميها ، وتلف وتدور ، أسرع فأسرع ، ومازال هو يرقص بعيدا يائسا ومغتما .

وتباطأت سرعة رقص اليزا . . صار رقيقا وهادئا . وازداد صوت ميزى نعومة وهدوءا .

وبشىء من الحياء ، وبشىء من اللهفة ، راحت اليزا ترقص قريبا منه إلى أن واجهته . ثم ، وبفيض من الحب مع كل حركة ، طلبت الزواج . لم تتوسل ، ولم تأمر ، طلبت الزواج فحسب . وزال عنه غمه . ورقص كل منهما للآخر . ثم تماسكا بالأيدى وراحا يلفان فى دائرة ، فى حركة نشيطة قوية تنم عن الانتصار ، انتصار الحب .

وانتهى الرقص،وفى صخب أعلن الناس موافقتهم . وتشبثت اليزا باجزوما لاهثة الأنفاس،وفى لهاثها قالت له : « يجب أن ننصرف » .

وربت الناس على ظهريهما وهما منصرفان ، وذهب بها إلى حجرته ، حيث بدل ملابسه . ودارت اليزا فى الغرفة كلها ، وأخذت تلمس كل شيء . ثم سارت معه إلى البقعة التى كانا فيها يوم السبت الأول ، وخفتت ضجة مالاى كامب وصارت طنينا بعيدا . وكانت النجوم ساطعة وبعيدة . وكان بإمكانهما رؤية كثبان المنجم عن بعد . . أشكالا غير محددة المعالم تعلو فى السماء .

وتذكر اجزوما المرة الأولى التى كان فيها معها فى تلك البقعة . لقد حاول أن يقبلها يومذاك لكنها قاومته . وخيل إليه أن ذلك حدث منذ زمن طويل . وكان يومها لايعلم شيئا عن المناجم . وهو الآن رئيس عمال ويعرف كثيرا جدا عن كل شيء على وجه التقريب .

وسألته : « تتذكر تلك الليلة الأولى » ؟ .

– أجل .

– لم تكن تعرفنى ، ولكنك أردت تقبيلى .

– وأنت لم تسمحى لى بذلك .

– خفت منك .

– والآن ؟ .

– والآن خوفى منك أكثر لأنى أحبك .

فقال لها : « يجب أن تعودى الآن » .

فقالت : « وهو كذلك » .

– كونى حريصة .

وأبقاها لصيقة به بضع دقائق ، ثم دفـعها بعيدا عنه ، وأسرع هابطاً الممر الضـيق الذى يؤدى إلى اتجاه طـــريق المناجم . واســتــدار مرة ولوح ، وظلت اليزا تراقـبه إلى أن غطـته طبـقة باهتـــه من ظلام . ثم استدارت واتخذت طريقها عائدة في تمهل إلى مالاى كامب .

-١١-

وصل إلى رأسه صوت طائر يشدو . بسأم كان يشدو . . ربما ، لأنه كان متعبا . وتقلب على جنبه لكن شدو الطائر كان ما زال موجودا . كان واضحا وكان يأتى من مكان على بعد كبير جدا . وتنهد اجزوما فى أثناء نومه . وهدده الطائر بالإيقاظ من النوم . ربما استمع إليه . وأنصت ، وهدهده شدو الطائر فارتد ثانية إلى نوم عميق .

وكان قد عاد إلى حجرته حين كانت الشمس الشاحبة الواهنة تعلو فى الأفق . لقد قصد أن يذهب إلى بيت ليساه ، وكان يعلم أن الوقت مازال مبكرا جدا على عودة اليزا ووجودها هناك . لكنه قصد الذهاب هناك وانتظارها ، بحيث تجده فى استقبالها حين تعود من المدرسة . ولكن إرهاقا شديدا ألجأه إلى الفراش ، وها هو الآن طائر يشدو .

ونام ثانية نوما عميقا وتضاءل صوت الطائر وخبا تدريجيا ليمتزج بحلم عن اليزا والليله الماضية والحفل .

وكان العمل فى نوبة الليل يختلف عن العمل فى النهار . كان الوقت يمضى أشد بطئًا ، وكان العمل أشق . وكان من الصعب أن يبقى الإنسان مستيقظا .

وعاد صـوت الطائر ، واقتـرب فى إصرار ممل . وتأوه اجـزوما وتقلب على ظهره . وهنا ظهـرت ضوضاء أخرى إلى جـانب صوت الطائر ، وحاول أن يصدها عنه ولكنها لم تبتـعد . ثم كان ثمة خرير ماء وحفـيف أوراق شجر . وقد أكرهه كل هذا على أن يبقى مـفتوح العينين . وتبدل صوت الطائر بصوت إنسان يترنم . وفتح عينيه وراح يحملق فى السـقف . وكان ضوء النـهار قد تسلل إلى الغـرفة . ولم يكن الجو فيـها بارداً كما كان من قبـل حين دخلها ، وتذكر أنه ألقى بنفسه فوق فرش السرير ، لكن الفرش الآن يغطيه ، كما انتزع حذاؤه كذلك من قدميه .

وأدار رأسه ، فإذا بنار مشتعلة تتـوهج وسط الغرفة ، أما حفيف أوراق الشجـر فلم يكون سوى صوت قلى فى مـقلاة موضوعـة فوق النار ، بيد أن الغرفة لم يكن بها أحـد . وكان قد سمع ترنيما ولكنه اختفى ، ثم عاد ثانية يسـمع هذا الترنيم . . كان يصل إليه من خارج الغرفة . . واقترب من الباب الذى انفتح لـتدخل منه اليزا تحمل رغيفا من خبز وبعض لفائف من ورق . .

وتوقفت عن التـرنيم وابتسمت حين رأته مستـيقظا ، وذهل حين رآها ، لكنه شـعـر بالحمـق لذهوله . إنه لم يكن يتـوقع أن تجئ إلى الغرفـة وأن تشعل ناراً وأن تطهو لـه . ميزى قـد تفعل ذلك - ولكن اليزا ! لم يخطر ذلك بباله أبدا .

ووضعت هى الأشيـاء التى كانت تحملها على منضدة صـغيرة ، وأطلت على المقـلاة ، ثم راحت لتجلس على حـافة سريرة ، فـصر الهيكل الحديدى ، وبرقة قبلته .

- هل نمت نوما جيدا ؟

وأومأ برأسه . . كان من الصعب عليه أن يصدق أن هذه الإنسانة التى أقبلت إلى غرفتـه وطهت له طعامه وأضفت البهجـة على غرفته هى اليـزا نفسهـا التى عرفـها فـيما مـضى ، وأشرقت عـيناها بنفس الضحكة التى كانت فى عـينى ميزى . . كان فيهـما رقة ودفء وهما تتطلعان إليه ، وقالت له :

- لست سعيدا لرؤيتى .

- إننى سعيد ، سعيد ! المسألة فحسب- أننى لم أكن أظن. . . .

وضحكت ، وكان ضحكها يشبه رنين أجراس متعددة .

- لم تكن تظن أننى سآتى وأؤدى لك هذه الأشياء . . هيه ؟

وتناول أجزوما يدها وتطلع اليها وقال : « أجل » .

- أحيانا ما تكون غبيا يا اجزوما . وعانقته ثم راحت إلى المقلاة وقلبت شريحة اللحم ، وغلى الماء ، فصنعت الشاى وقطعت الخبز .

وقالت : يظن الإنســان « وأدارت رأسها إليـه » يظن الإنسان أن هذه أولى المرات التى تحب فيها واحدة من الناس » .

- ربما يكون الأمر كذلك .

- ليس ذلك صحيحا .

وأوحت إليه عيناها بأنها تريد أن يكون رده صــادقا فقال : « ربما يكون الأمر كذلك . » .

- الم تعرف امرأة أخرى ؟

وحملق اجزوما فى السقف وابتسم .

- بلى عرفت نسوة أخريات ولكنى لم أوله بهن .

- كثيرات ؟ . وكان صوتها هادئا وجادا .

- ربما اثنتين وربما ثلاثا .

- هل كن جميلات ؟ .

- لايمكن أن أتذكر .

- سوف تقول نفس الشئ حين تملنى .

- كلا . . أنت أهيم بك .

فقالت: " أما أنا فقد عرفت رجلا واحدا فحسب " .

وأومأ اجزوما . . الأم بلانك كانت قد حكت له .

- هل أحببته ؟ .

- نعم . ولكن ليس كمثل حبى لك . آنذاك كنت صغيرة ، وأنا الآن إنسانة ناضجة ، وعشق الغرة وعشق الإنسانة الناضجة ، عشقان مختلفان .

ونظر اليها اجزوما وضحك .

- لم تضحك ؟ .

- لست كبيرة السن .

- ولست غرة . . هيا ، سنتناول الطعام .

- كم الساعة ؟ .

- السادسة تقريبا .

فصفر بفمه ونط من فوق الفراش . لم يكن يدرى أن الوقت متأخر هكذا .

- نمت فترة طويلة .. لم لم توقظينى ؟ .

- كنت متعبا ، وكان خيراً لك أن تنام .

وجلس اجزوما على دكة صغيرة منخفضة ، وجلست اليزا على الأرض ، واتخذت من ركبته مسندا ليدها ، ومن آن لآخر كانت ترفع عينيها عن الطعام وتتطلع إليه وتبتسم .

وجلسا هكذا يتبادلان قليلا من الكلمات ، ويأكلان وهما سعيدان . ووجد اجزوما صعوبة فى تصديق أن اليزا - خليلته حقيقة . إنها جميلة جدا وهى مدرسة ومع هذا أحبته ، وكانت تميل عليه . ولقد أعدت له طعامه ورتبت غرفته فبدت لطيفة . وهكذا تتصرف المرأة حين تحب رجلا .

وسألته اليزا « هؤلاء النسوه اللائى عرفتهن .. هل كن جميلات ؟ » .

فقال لها : « أنت غيورة » وضحك .

- لست غيورة . يمكنك أن تخرج من ميزى ولن أغار ، مع أنى أعلم أن ميزى تعشقك .

- ميزى طيبة .

- إجل .

وأخذت صحنه الفارغ ووضعته جانبا ، ثم أمسكت بيده وراحت تتطلع إلى النيران .

- اجزوما .

– هيه ؟ .

– أتريدنى أن آتى وأعيش هنا ؟ .

– أجل .

– لماذا لم تطلب منى ذلك ؟ .

– ظننت أنك ربما لاتريدين المجئ ، فهى غرفة واحدة فقط . واعتقدت أننا ربما اتخذنا فيما بعد غرفتين .

– وإذا لم تكن لى رغبة فى المجئ ؟ .

– أنا لم أطلب منك .

– اطلب الآن .

وتطلعت إليه وانتظرت . وحاول أن يسألها ولكن الكلمات امتنعت . كانت وكأنها غصص شديدة فى حلقه . وفتح فمه ولكن مازالت الكلمات تتأبى . ونظر إليها وهز رأسه .

وارتسمت على وجه اليزا ابتسامة حنون . ولبرهة قصيرة راحت عيناها تطوفان بوجهه متمهلة فى رقة ودلال ، ثم حملقت فى النار ، ممسكة يده الكبيرة الخشنة بين يديها الرقيقتين الناعمتين .

وجلسا على هذه الحال فترة طويلة ، يلفهما الصمت والسكينة . ومن آن لآخر كان يصدر عن النار طقطقة ، وبين الحين والحين كان يطفو فى جو الغرفة صوت قادما من الشارع . ولكن هذه الأشياء كانت شديدة البعد ، أشياء وهمية ، كان الشئ الحقيقى فقط هو السكون والهدوء وأنهما هما الاثنين فحسب جالسان يحدقان فى النار . . . صامتين . وكان الحب فقط هو الحقيقة ، وأن اثنين من البشر غارقان فى الحب .

وأظلمت السمـاء وأخذ الليل يقـترب فى بطء . وهرع أناس من العمل إلى بيوتهم ليـقبعوا أمام نيـرانهم مع رجالهم ونسائهم . وهرع آخـرون منطلقين من بيوتهـم إلى أعمـالهم . وكان هناك آخـرون بلا بيوت ، بـلا أحبة ، بلا عـمل . وكـان بعـض من الناس يفـارقون الحيـاة ، وآخرون يولدون . وكان لدى البـعض طعام ، بينمـا تضور آخرون جوعا .

وأظلمت الغرفـة وألقى وهج النار بالظلال فى الأركان . وجلس اجزوما واليزا متلاصقين يحدقان فى النار المتوهجة الحمراء . وكركرت الغلاية ، ورفـعت اليزا عينيهـا إلى اجزوما ، فمـال ناحيتهـا ومست شفتاه شفتيها فقالت :

- شئ طيب ومطمئن أن أكون محبوبتك ، ونهضت .

كانت تترنم فى أثناء غـسيلها الصحون ، وكان فى صـوتها بهجة ومرح ، وكانت حركـاتها رقصا . لقد كانت حركاتهـا مطمئنة طليقة تتسم بالبـهجة والسـعادة . وكانـت جميلة ، وزادها الحب جـمالا ، وجعلها ناعمة رشيقة مفعمة بالضحك والموسيقى ، وكانت كلما مرت به ، تعمل على أن تلمسه ، بردائهـا ، بيدها ، بأصابعها تمررها على شعره ، برجلها تمس ركبته .

وكان اجـزوما يراقـبها . . شئ جـميل أن يكون للإنسـان امرأة بجواره . . تحبه وتسعد معـه . لقد ولى عنها جنونها وهى الآن مجرد امرأة مثل أية امرأة ، غير أنها أكثر جمالا ، وهو يحبها ، وهو فخور بها .

لقد جعلتـه يعاونها فى بعض الأمور البسيطة كـوضع الأشياء فى أماكنها الصحيـحة . وكانت الغرفة الصغيرة الخاوية بأرضـيتها العارية والسـرير الحديد الوحـيد فى ركن منها ، والمنضدة الصـغيرة فى ركن آخر ، كـانت تمثل له بيتاً جمـيلاً ومريحاً ، وأضـاء اجزوما مصـباح الزيت ، وعلقه وسط الغرفة .

وقالت اليزا وعيناها تطوفان فى أنحاء الغرفة : " سوف نجملها " .

فقـال اجزوما : " أجل . . وفيما بعد ، سيكون لدينا غرفتان ، هيه ؟ " .

وأومأت برأسها وألقت على الغرفة كلها نظرة خاطفة .

وفى صمت ، خطـت الأم بلانك إلى الغرفة وأغلـقت الباب ، دون أن يراها أى منهما . وكانا يقفان قرب النار ويداهما متماسكتان .

وسألت الأم بلانك فى غلظة : " هل يمكننى الدخول ؟ " .

وتقدمت اليزا مـسرعة وجذبت المرأة العجوز إلى النيـران ، فقد كانت ترتجف من البرد ، وبدا وجههـا ذابلاً ، وأعطتها اليزا قدحا من القهوة .

وقالت الأم بلانك : " لا أستطيع البقـاء طويلا . ثمة مشكلة ، ولياه تريد منك الحضور الآن يااجزوما " .

فسألتا اليزا : " ما هى ؟ " .

فقالت الأم بلانك : " لقد عثروا على دلادلا " .

- دلادلا ؟ . ونظر اجزوما إلى اليزا .

- عثر رجال الشرطة عليه . . ومضت الأم بلانك تحكى " عثروا عليه تحت سياج شجيرات مدرسة الملونين ، وفى ظهرة ثقب من طعنة سكين " .

وسأل اجزوما: " ميت ؟".

وقالت الأم بلانك: " ميت ".

فقال اجزوما: " يجب أن نذهب بسرعة " وارتدى سترته .

***

وقفت لياه وسط الغرفة ، ذراعاها حول خصرها ، وعيناها تدوران بين الجالسين فى أوضاع مختلفة هنا وهناك فى الغرفة . فقد جلست الأم بلانك ويداها فى حجرها . واتكأ دادى على الأم بلانك ، فمه مفتوح بعض الشئ ، وعلى عينيه غشاوة السكارى . وجلست ميزى وحدها قرب الباب . وجلس اجزوما واليزا قريبين من بعضهما البعض ، وقريبا من الباب المؤدى إلى واجهة البيت .

وقالت لياه : " شخص ما قتل دلادلا ، وأريد أن أعرف ما إذا كان القاتل واحدا منكم . يجب أن أعرف حتى أتدبر الأمر ، لاتخفوا عنى شيئا ولاتكذبوا . رجال الشرطة سيكونون هنا حالا ، سيأتون هنا لأن د لادلا كان يغدر بى " .

ومرة أخرى جالت عيناها هنا وهناك فى الغرفة ، واستقرتا على دادى ، وكانت نظرة طويلة متمهلة ، لقد عشقها دادى وهى الوحيدة التى تعلم مقدار هذا الحب .

- هل قتلته أنت يادادى ؟ .

وتغضنت قسمات وجه دادى وبصق . ونظرت لياه إلى الأم بلانك .

فقالت الأم بلانك بخشونه : « لا ! ».

- ميزى ؟ .

- لم أرتكب هذا الفعل يالياه .

- ونظرت لياه إلى اليزا ، وكانت تعلم أنها لم ترتكبه .

- اليزا ؟ .

- كلا .

ونظرت إلى اجزوما ، ربما كان هو الفاعل .. ولكنه كان مع اليزا إلى أن اضطر للذهاب إلى العمل . ولو قتله لقرأت ذلك فى وجهه ، فوجهه كتاب مفتوح .

- اجزوما ؟ ..

- كلا .. وأنت ؟ .

وابتسمت لياه ، ابتسامتها الجانبية الساخرة وقالت :

- لم أقتله .

فقال اجزوما : « ربما كان جوهانز هو الذى قتله » .

وهزت لياه رأسها وقالت : « لا .. لقد تحدثت إليه هذا الصباح . لم يقم هو بذلك ، وجوهانز مثلك ، تستطيع أن تقرأ ما فعله على وجهه » .

فسأل اجزوما « إذن من ذلك الذى قتله ؟ » .

وهزت لياه كتفيها استنكاراً وأشاحت بوجهها .

واقتربت سيارة فى الخارج ، خرج منها رجال بيض من إدارة المباحث الجنائية فى ملابس مدنية ، وقرعوا الباب بشدة .

وقالت لياه دون أن تدير رأسها « هؤلاء رجال الشرطة ، أدخليهم يا أم بلانك » .

ومرة أخرى قرع الباب بشدة ، فصاحت الأم بلانك :

- اسكت . . إننى قادمة .

وهرعت إلى الباب الأمامي ، وحدقت لياه من النافذة فى الفناء ، فبدت امرأة أبية صلبة قوية فارعة الطول . وظلت ميزى تتطلع إلى اجزوما ثم غضت من بصرها . وجلست اليزا على مقربة شديدة من اجزوما . ونظر اجزوما إلى ظهر لياه وتعجب . هى هى نفسها كما كانت دوما . بل إنها أقوى وأكثر استهانة ، مع اعتداد كبير يبدو فى حركة رأسها .

ودخل رجال الشرطة . وقال رئيسهم : « أهلا يالياه » .

واستدارت لياه ونظرت إليه ، وارتسمت على شفتيها شبح ابتسامه ودية .

وقال لها : « تبدين بصحة جيدة » .

كان يعرفها معرفة جيده . وقد حاول مرات كثيرة أن يوقعها فى شرك ، فهو يعلم أنها فى مقدمة ملكات شراب السكوكيان - وهذا ما كانوا يطلقونه على النسوة اللاتى كن يتعاملن فى المشروب الكحولى المحظور .

فقالت له : « وأنت أيضا تبدو بصحة جيدة . ماذا تريد ؟» .

فقال رجل الشرطة : « أنت تدرين أن دلادلا مات » .

- سمعت بذلك .

- من الذى قتله ؟ .

- لم يبلغ ذلك سمعى .

- أنت تعلمين أنه كان يشى بك لدينا ؟ .

- بلغنى هذا .

- ألم تقتليه من أجل ذلك ؟ .

- أجل . لم أقتله .

- ألم تدفعى أحد لقتله ؟ .

- نعم .

- لقد وشى برجلك وبأخيه . . هل علمت بذلك ؟ .

- بلغنى .

- من ذلك الذى أبلغك ؟ .

- صديق .

وصاح الرجل فجأة : « ما اسمه ؟ » .

وابتسمت لياه : « لست طفلة » .

وبادلها الرجل الابتسامه ، وكان فى عينيه اعتذار . ثم نظر إلى اجزوما وسأل لياه :

- هل يشتغل لحسابك ؟ .

فقالت لياه : « إنه يعمل فى المناجم » .

ودارت عينا الرجل فى أرجاء الغرفة تفحصان وجوه الناس ، ثم هز كتفيه استهجانا وابتسم .

- حسن يالياه ، تعالى معنا .

وهب اجزوما على قدميه : « سآتى معك يالياه » .

وهزت لياه رأسها وابتسمت له .

- لايااجزوما ، ابق هنا وارع هؤلاء الآخرين ، فأنا أستطيع أن أعنى بنفسى .

وتشبثت أصابعها بذراعه برهة ثم استرخت ، وفجأة هبت اليزا على قدميها ، وكانت ترتجف ، تتقبض يداها وترتخيان ، وتتوهج عيناها ، وتصطك أسنانها من الغضب .

وصاحت : « أخرج من هنا » واندفعت نحو رجل الشرطة الذى فى الطليعة .

وأمسك الشرطى بذراعيها بشدة ، واحتجزها جانبا .

فقالت لياه لاجزوما : « خذها » .

فجذبها اجزوما بعيدا عن الشرطى .

وصاحت اليزا : « أنها لم ترتكب شيئا . فدعها لحال سبيلها » .

وحاول اجزوما تهدئتها .

فقال الشرطى : « هذه المرأة متوحشة ياالجزوما .. هيه» ؟ .

فقال اجزوما وعيناه تتفجران غضبا : « مالك أنت » ؟ .

فابتسم الشرطى . فقالت له لياه :

- إنه الشباب ، فدعهما وشأنهما .

خطا الرجل جانبا ، فخرجت لياه ، وهو يراقبها بنظرات إعجاب .. شفتاها مضمومتان بشدة ، وفى عينيها صرامة ، وحين دخلت السيارة كانت مرفوعة الرأس مشدودة القامة ، وشاهد الجمهور الذى تجمع حول السيارة ما يحدث فى صمت . ودخل السيارة إلى جوارها الشرطى الأول والذى أهل مالاى كامب وفريديدورب يلقبونه « بالثعلب » بينما جلس الآخرون فى المقدمة .

وكان « الثعلب » محبوبا من الناس لأنه لم يكن يسلك سلوك رجل أبيض . لم يكن يعبأ بالجلوس بجانب السود أو حتي يحتسى جعتهم حين لا يحاول اصطيادهم . وكانوا يخشونه أكثر من أى شرطى آخر ، لأن « الثعلب » أوقع فى شراكه أناسا أكثر مما فعله أى شرطى أخر .. وفلتت اليزا من يد اجزوما وخرجت تجرى ، وكانت السيارة تتحرك ، فصرخت اليزا فى إشفاق :

- لياه ! لياه ! عودى يالياه ! .

لكن السيارة زادت من سرعتها ، وتوقفت اليزا ، وانسابت الدموع فوق وجنتيها ، وتكورت يداها الصغيرتان بشدة ، وانطلق من

فمها سباب ولعنات ممتدة ومريرة ، واضطر اجزوما إلى حملها داخل البيت ، وهى لاتزال تلعن وتبكى ، ومضت السيارة تحمل لياه ، وفى تمهل راح الناس يتفرقون ويذهبون لحال سبيلهم .

ووضع اجزوما اليزا على سرير لياه ووقف يرقبها باهتمام ، فى حين راح بدنها يهتز مع نشيجها المؤلم ، ولم يكن لديه ما يمكن أن يقوله لها ، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يقف بجوارها يرقبها ويلاحظها . وقال لها وهو يشعر باليأس :

- ربما تعود لياه .

ولم يكن ثمة شئ يمكن للإنسان أن يقوم به . لقد جاء الرجل الأبيض وقال « تعالى » . . ولابد لك أن تمضي معه . . ولم يكن بوسع أولئك الذين بقوا إلا أن يتفرجوا وحسب . ولم يكن بمقدورهم أن يفعلوا شيئا . . فلا أمل .

وأخذ نشيج اليزا يخفت بالتدريج إلى أن رقدت منهوكة القوى تلهث . فتناول اجزوما يدها وراح يدلكها ، وكانت يدها باردة فقال لها :

- إنك لتشعرين بالبرد . . تعالى نذهب بجوار النيران .

فقالت : « اذهب أنت . . وسآتى حالا » .

فقال : « سأنتظرك » .

- لا . . اذهب أنت .

فخرج من الغرفة . وكانت الأم بلانك قد سخنت قدرا من القهوة ، فقالت له :

- سآخذ لها قدحا من القهوة .

وبقيت مع اليزا فى الغرفة فترة طويلة . وجلس اجزوما وميزى بجوار النيران لايتفوهان بكلمة واحدة . وفي أحد الأركان كان دادى يبكى فى خفوت ، وسرعان ما استسلم للنوم . وخرجت الأم بلانك واليزا من غرفة لياه ، وكانت اليزا قد جففت دموعها ، فراحت إلى اجزوما وجلست قريبا منه وأراحت يدها على ركبته . واتجهت الأم بلانك إلى دادى وعدلت من وضعه حتى تستريح رقبته بطريقة أفضل . ثم اتخذت لها هى الأخرى كذلك مقعدا بجوار النيران وجلسوا فى صمت . ثم خمدت النار ، وتوهج رمادها فى لون باهت فألقت به الأم بلانك فى الخارج ، وأحضرت نارا أخرى كانت معدة فى التو . وجلسوا صامتين لايتكلمون . . لايوجد فى البيت حياة بدون لياه . ومرت ساعة . . وساعة . . بل وساعة أخرى .

وروعتهم فجأة دقة على الباب الأمامى . . لعلها لياه . . لعلهم سمحوا لها بالعودة . واندفعت الأم بلانك وميزى واليزا نحو الباب معا . ولكن لم يكون الطارق سوى جار أراد أن يعرف ما إذا كانوا فى حاجة إلى معاونته . فعادوا إلى مقاعدهم ، وبدا المكان أكثر كآبة .

ومرت ساعة أخرى . ونظر اجزوما إلى نافذه المطبخ ، فتصلب بدنه ، إذ كانت لياه هناك تطل مبتسمه في النافذة ، فصاح :

- لياه . . . وأشار بيده .

فجذبتها الأم بلانك داخل البيت ، وأثارت حولها ضجة ، وأعطتها قدحا من قهوة ، وقدمت لها طعاما وضحكت وبكت فى آن واحد ، فابتسمت لياه ، واحتضنت المرأة العجوز .

وتناولت ميـزى يده لياه وراحت تربت عليـها ، واستـيقظ دادى ورأى لياه فـتفـجرت دمـوعه ، ثم مـضى ينام ثانية . أمـا اليزا فـقد انفجرت تبكى والتصقت باجزوما ، ووضعت رأسها على كتفه .

لقد أثاروا ضجـة حول لياه وكأنها كـانت فى رحلة بعيدة ، ولم تكن بين ظهر انيهم فـترة طويلة ، وتناولت لياه يد اجزومـا وابتسمت فى عينيـه ، وأقبل الجيـران يحيون لـياه ويعربون عن مـدى سرورهم بعودتها . . وعـاملها كل واحد كما لو أنهـا عادت من رحلة طويلة ، ورقص الناس خـارج البيت ، وسرعـان ما تطـور الأمـر إلـى حفلة سمر .

ووسط كل هذا ، انتحت لياه اجزومـا جانبا وقالت له : « أتمنى أن أعرف من قتل دلادلا » .

فقال اجزوما : « أجل . وأنا كذلك » .

ولكن قاتل دلادلا لم يكتشف أبدا .

- ١٢ -

تجمع الشفق سريعا ، ومشى اجزوما والـيزا متمهلين فى اتجاههما إلى البيت خلال الـغسق المتكاثف ، وكان الحال هكذا خـمسة أيام . لقد وقعا فى الحب، وهما معا طوال الوقت وكان ذلك شيئا جميلا .

وكان اجزوما ما يعود إلى البـيت دائما بعد انتهاء العمل وينام ، ودائمـا ومـثلها حـدث فى أول يوم حين أيقـظه حضـورها وطهـوها وتزنيـمهـا ، كان الطائر الـشادي يوقظه . وكـان هو صوت اليـزا ، وكانت تعد له الطعام . وأحيانا ما كـانا يتمشيان بعد تناول الطعام فى مكـان يسوده الهدوء ويخلو من الناس . وكـانا قليلا ما يتكلمان ، إذ لم يكـن فى جـعبتهـما الكثـير الذى يمكن أن يقال . كـانا يتمشـيان فحسب ، مـتلاصقين ، بعيـدين عن الناس ، فى مكان لايزال الثرى فيـه موجودا ، وحـيث يمكن للنسيم الرقيق أن يلامس وجـهيهـما ، وهناك يتمشيان ، ويتأملان القمر والنجوم ، وينظران إلى كثبان المنجم البعيدة الغائمة . ثم يعودان إلى الغرفة ويجلسان إلى النيران ، إلى أن يحين موعد عودة اجزوما إلى العمل . ثم تذهب اليزا معه إلى البقعة التى كانا فـيهما معـا فى تلك الليلة الأولى ، والتى غالبا مـا يذهبان إليهـا الآن ، هناك يتركهـا ثم يسرع الخطى مـاضيا عنهـا فى نشاط ، وحينذاك ، تقف هى تراقبه . . تراقبه إلى أن تغطيه غلالة من ظلام .

ثم تعود إلى الغرفة ، وتبيت فيها ، ذلك أن النوم على فراش خليلك شئ جميل ، حتى لو لم يكن موجودا لينام معك .

وفى مرات أخرى كانا يذهبـان إلى بيت لياه بعد تناول الطعام ، وهناك يتحادثان ويساعدان فى البيع ، ذلك أن دلادلا الآن وقد مات ، لم يعد هناك من يشى بليـاه ، وكان البيع مأمونـا . ثم إن لياه كانت دائما تقـول إن البيع يعنى النقود ، والنقود تعنى الـقوة . وفى أوقات أخرى كـانا يتضمـان ثانية إلى جـمهور الناس ويرقـصان مـعهم عند نواصى الشارع ، لأن ذلك كان أيضا شيئا جميلا حين يؤديانه سويا . لقد كانت الحياة جميلة ، وكان الحب شيئا رائعا .

وأحيانا ما كـان اجزوما يلاحظ أن اليزا هادئة ، مستـغرقة بعمق فى تفكيرها الكئيب . وكانـت غريزته تنبؤه بوقت حدوث هذا . وفى هذه الحالة ، كان يخـرج ويتمشى ما يقـرب من نصف ساعة ، وحين يعود تكون اليزا قـد أصبحت على ما يرام ثانية . ثم إنهـا عقب مثل هذه الأوقات تكون لـطيفة ، وتعـمل على أن يمارس الجنس معـها ، وعندئذ تكون الرغبة التى تعتمل داخلها قوية ، ويعجب اجزوما لهذه الرغبة الشديدة التى يتملكها مثل هذه الجسد الصغير .

وأحيانا ما كـان يلتقيان بميزى فى بيت ليـاه . . ومع ميزى كانت الضحكة القـديمة دائما تطل من عينيهـا وترتسم على شفتيـها ، الأمر الذى جـعله يفكر فى أنه لـم يكـن يحلم حين ظن أن مـيزى كـانت تبتغيه . فأحيانا ، وفقط عندما لايكون متجها إليها بعينيه ، كانت هى تنظر إليه ، تتـفحصـه ، بعينين غريبتين ، لا أثـر فيهمـا للضحك . ولكـن اجـزوما لـم يكن يدرى ذلـك ، ولأن حياة اجـزوما كـانت جمـيلة ، فقد راح يفكر فـيها وفـى الأيام الخمسـة التى كانت فيـها

بصحبته ،وفى جمال حبها . وابتسم فى سعادة وهما عائدان إلى البيت تحت الشفق المتكاثف .

وقالت اليزا دون أن تلتفت إليه: « أراك تبتسم » .

- أجل .. فالحياة جميلة ، وجميل أن أكون معك ، فهذا يغمرنى بساعدة ، تعجز الكلمات عن وصفها .

فقالت اليزا : « هذا شئ جميل » .

- أنت مكتئبة ؟ .

- كلا .

- أحس الاكتئاب فى صوتك .

- كلا .

- بل فيه اكتئاب .

- متى تنتهى نوبتك الليلية ؟ .

- لم أنت مكتئبة ؟ .

- لا تكن أحمق ياإجزوما وأخبرنى عن نوبتك الليلية ، فلا يصح لامرأة أن تنام وحدها كل ليلة . هيا أخبرنى .

وابتسم اجزوما : « أسبوعان آخران » .

- لن تكون هناك إذن نوبة ليلية بعدهما ؟ .

- لن تكون هناك نوبة ليلية .

- وحتى متى ؟ .

- لاأدرى .

وخيم الصمت عليهما ، وأنعطفا إلى ناصية . كانا قريبين من الغرفة ، وكانت المرأة التى تسكن فى الغرفة المقابلة تقف فى الشرفة ، وحين رأتهما لوحت لهما بيدها .

فقال اجزوما : « إنها تريدنا » .

وأسرعا خطاهما . وسأل اجزوما : « ما الحكاية ؟ » .

وأجابت المرأة: « جاءت هنا امرأة مسنة وقالت لى بلغيهما أن الأم بلانك كانت هناك ، وأن عليكما الذهاب بسرعة إلى بيت لياه » .

وسألت اليزا : « ما الخطب ؟ » .

وهزت المرأة رأسها « لم تقل شيئا ، ولكن عينيها كانتا دامعتين ، ويبدو أن ثمة متاعب » .

فقال اجزوما : « ربما قبضوا على لياه » .

وقالت اليزا : « هيا بنا » .

وأسرعا يهبطان الشارع . وحينما وصلا هناك ، أدخلتهما الأم بلانك .

وسألت اليزا : « أهى لياه ؟ .. هل قبضوا عليها ؟ » .

فهزت الأم بلانك رأسها وقالت: «كلا.. الأمر يتعلق بدادى » .

وسأل اجزوما : « ماذا به ؟ » .

وقضمت الأم بلانك شفتها السفلى وأشاحت بوجهها . وانهمرت الدموع على وجهها ، فوضعت اليزا ذراعها حول المرأة المسنة .

– صدمته سيارة .

لم تعد المرأة العــجوزة بقادرة على أن تكبح مشــاعرها . وظلت تبكى حــتى انــهــارت قــواها ، وأخــذتها اليــزا إلى مقعــد وراحت تواسيها . .واتجه اجزوما إلى غرفة لياه ، وكان دادى راقداً على فراش لياه يئن ، فى حين جلست ليــاه على حافة السرير وفــى حجرها رأس دادى . وعند الطرف الأدنى من السرير وقف الدكتور مينى والذى كان اجزوما قد عــاون على الرجل الذى وثب من السطح وانكسر ذراعة . وعرف الطبيب اجزوما وحياه بعينيه ، وأدرات لياه رأسها ونظرت إلى اجزومــا بعينين غائمــتين ، ودار اجزوما حــول السرير ونظر إلى دادى الذى بدا كشأنه دوما ، وإن كان ثمة فقاعة دم صغيرة فوق شفتيه . لم توجــد خدوش فى آية بقــعة من جــســد دادى . ونظــر اجزومــا الى الطبيب :

- كيف حاله ؟ .

وزم الطبــيب شفــتيــه وهز رأســه وكتــفه فى شئ من اليــأس ، وأوحت حركته بأن الرجل انتهى .

فقال اجزوما : « ولكنك طبيب » .

فقال الطبيب : « إصابته في الداخل شديدة » .

وأن دادى ، فــمرت ليــاه بيدها فى رفــق على جبــهتــه وراحت تهدهده لتخفف عنه كما يهدهد المرء طفلا ، ووضع اجزوما يده على كتف لياه فأزاحتها .

وقال الـطبيب : « ليس ثمـة شئ يمكن أن يقوم به أى إنـسان » والتقط حقيبته .

ودخلت اليزا وفمها يرتعد ، لكن عينيهـا كانتا قاسيتين ولامعتين ونفاذتين . وتكورت يداها فى قبضتين صـغيرتين صلبتين واتجهت إلى لياه ، ونظرت كل منهما للأخرى برهة ، وبدا وكأنهما تحادثتا معا دون كلام .

وفتـح دادى عينيـه ، وقد انمحت منهـما غـلالة السكر . كانـتا صافيتين ، حانيتين ، مـتعاطفتين . وحاول أن يتكلم لكن حلقة غص بالدم ، فمسحت لياه الدم عن شفتيه .

وقالت لياه للطبيب وهى ترفع إليه ناظريها : « امض » .

وبرقـة لمس الطبيب كـتفـهـا وخرج ، وأغـمض دادى عينيـه . وفتحت ميزى الباب ودخلت ، واتجهت إلى لياه .

وحدث مع ميزى ما حدث مع اليزا ، ونظرت كل منهما للأخرى وتحدثا دون أن يتكلمـا . وسعل دادى فظهر مزيد من الدم ، فـأزالته لياه . وفتح دادى عينية ثانية ، فارتاع اجزوما من اشراق عينيه الصافى وبدا وكـأنه يتطلع إلى رجل آخر . . رجل لم يعـرفه أبدا من قـبل . حتى الوجـه كان مغـايرا . وجه رجل طيب وشفـوق . . وليس وجه ذلك الهمل العجوز السكير .

وقالت لياه دون أن ترفع ناظريها : « احضروا الأم بلانك » .

وخرج اجـزوما وأحضر الأم بلانك . ونظر إليـها دادى وبدا أنه يبتسم ، لكن وجهه لم يتـحرك . وابتسمت الأم بلانك وربتت بيدها على جبهته ، ومن عينيها شع دفء وحب وتعاطف . ورفع دادى يده وعاونته لياه ،ثم هبط بها فوق يد الأم بلانك التى كانت على جبهته . وأغمض دادى عينـيه ، ويقى الجميع على هذا الحـال فترة من زمن . ثم فتح عينيه ، وكانت فوق شفتيه ابتسامة بالفعل . ولكن عينيه كانتا دامعـتين وطافيتين فى وقت واحـد . ويدا الأمر كمـا لو أنه لا وجود لألم عنده . وحطت عـيناه طويلا على مـيزى ثم انتقـلتا إلى اليـزا وتمهلتا عندها برهة ، ثم التفتتا إلى اجزوما . ويدا لاجزوما أن العينين تضحكان له برقة وتقولان « إذن فأنت اجـزوما القادم من الشمال . . هيه ؟ . يؤسفنى أنك لم تشاهدنى على حـقيقتى ، ولكن هكذا حال الدنيا ، وأنت لن تفهم » . وأصيب اجزوما بغصة فى حلقة .

ثم نظر دادى إلى الأم بلانك ، فـابتسـمت كمـا لو أنها كـانت شديدة السعادة ، الأمر الذى جعل وجهـها يشبه وجه امرأة فى ريعان شـبابهـا ، وكانت لياه طول هذا الـوقت تجلس هادئة ، تمرض رأسه فى حجـرها ، ولاتنظر لأحـد سواه . شفتـاها مضمومـتان بشدة ، وفى عينيها ألم مستسلم متشائم ، ولكنها كانت تبدو فى نفس الوقت أقوى ، وأكثر شـموخا وأشد ما تكون صلابة من ذى قـبل . إنها لياه القوية .

وفتح دادى فمه ، فأدنت الأم بلانك أذنها قريبا جدا من فمه . وتمتم : « آسف » .

فقالت الأم بلانك : « أى هراء أحمق هذا ؟ » . وكان صوتها مبتهجا سعيدا ، كصوت فتاة غارقة فى الحب » أى هراء أحمق ! ألم نكن سعداء معا ! ألم تكن إنسانا عجوزا طيبا معى ! كف إذن عن هذا الهراء .

وابتسم دادى ، وبانت السعادة فى عينيه ، فأغمضهما . وحينما فتحهما ثانية تطلع إلى لياه . ونظر كل منهما للآخر فترة طويلة ، دادى ولياه . نظر كل منهما للآخر بفهم عميق لم يكن فى حاجة إلى كلمات . ثم تنهد دادى وأغمض عينيه .

ثم فجأة وعلى حين غرة ، لم يعد دادى بعد على قيد الحياة . . دادى الذى لم يكن يفيق من السكر منذ أن عرفه اجزوما . . دادى الذى كان يجعل من نفسه أضحوكة كل يوم ، والذى كانت لياه تحترمه مع ذلك كما لم تحترم أى إنسان آخر . . دادى الذى أحب العراك لو قام به آخرون . . ونظر اجزوما ليجد أمامه قوقعة فارغة . وهزه الموت . وفى صمت هبطت الأم بلانك على ركبتيها . وصرخت ميزى مرة واحدة وهدأت . ومشت اليزا إلى اجزوما وتشبثت بذراعه . لياه فحسب بقيت كما هى . جلست كما كانت جالسة حين كان دادى على قيد الحياة ، تمرض رأسه فى حجرها ، صلبه كالصخرة ومتشامخة .

وقالت لياه : « اتركونا » .

وخرج اجزوما وميزى واليزا . وبقيت المرأتان اللتان أحبتا دادى قبل أن يصير رجلا عجوزا سكيرا .

وأنطفأت الأنوار فى فريديـدورب ومالاى كامب ، ونام الناس ، وكانت الشوارع هادئة حين انطلق اجزوما إلى العمل وحيدا ، فلم تسر معه اليزا ذلك الجزء من الطريق .

***

حين عاد اجزوما من العمل فى صـباح اليوم التالى ، ذهب هناك مبـاشرة ليجـد لياه كـما تركهـا فى الليلة السابقـة . . مازالت تمرض القـوقعـة الفارغـة ، التي كانت دادى من قـبل . ولـم تذهب كل من ميزى واليزا إلى العـمل . . فقد رتبتا فيما بينهـما أمر الجنازة ، وقدم الشـارع كله يد العون ، وامـتلأ المكان بالناس . فلـقد عرف الـشارع دادى ، وأحبه . وكان البعض من أكبر الناس سناً يتذكرون دادى حين كان شاباً ، وحين كان ذلك الرجل الذى لم تعرف له الأم بلانك نظيرا أبدا . وكانوا يتحدثون عنه بحراره وحب . ثم أخذاوا يدخلون الغرفة صفاً صـفاً ليلقوا عليـه النظرة الأخيرة ، وكلما انتـهى صف انصرف ليـفسح مـكانا لآخرين . . لمئـات منهم . وقـامت ليـاه والأم بلانك وحدهما بغسل دادى وإلباسه . ولـم يسمحا للآخرين بالاقتراب منه إلا حينما وضع فى النعش . وكانت لياه صامته طوال الوقت جامدة ، لم تكن تتكلم مع أحد سوى الأم بلانك فـحسب . ولم يحدث ولو لمرة أن سقطت دمعة واحدة من عينيها .

وكـانت شمس الربيع تعلـو فى الأفق حين دفنوا دادى فى المدفن المحلى فوق الـتل فيمـا وراء فريديدورب . وطوال الوقت كـانت لينا خليلة جـوهـانز تبكى ، وكـانت قد خـرجت من الـسجن فى ذلك اليوم .

وفى مقدمة القبر وضعوا صليبا صغيراً يحمل رقماً . وتحت الرقم كتبوا اسمه . . وكان الاسم هو (فرانسس ندابولا) .

ولفترة من الوقت سوف يتفجع الناس على دادى ، ثم يأخذون فى نسيانه ، ويندر ذكر اسمه ، وفى النهاية ربما يتحول رجل مسن آخر إلى عجوز الشارع السكير . وقد يسميه الناس دادى كذلك . وسيصبح دادى الذى كان اسمه فرانسس ندابولا نسياً منسياً ، ولن يتذكره سوى أهل بيته فحسب . وحتى هؤلاء سوف تضعف ذكراه لديهم وتبهت . وهذه هى الحياة .

وسكرت لياه فى تلك الليلة . . سكرت سكرا بينا . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها اجزوما على هذه الصورة . وكانت تضحك طوال الوقت وتميل برأسها إلى الوراء ، وتثبت قدميها متباعدتين قليلا فوق الأرض الصلبة ، وتضع يديها فوق ركبتيها وتضحك . مرات عديده وهى تأتى بهذه الحركة . وكان جسدها يرتج من هذا الضحك العميق شديد البهجة . وأغضب ذلك اليزا فلم تحادث لياه ، فى حين أشفقت بها ميزى ، وراحت تعاملها كما تعامل طفلة صغيرة . وكانت لياه تتصرف وفقا لما تشير به عليها ميزى . وأبصرها اجزوما مرة تنظر إلى لياه وتومئ إليها برأسها ، بل وسمعها تقول : « مسكينة لياه » .

لكن لياه كانت ثملة وسعيدة ، ودعت الجميع . وكان الشراب مجانا . فتدفقت الجعة . لكن هؤلاء الذين كانوا يثرثرون حول دادى استبعدوا ، فلم تقدم لهم الجعة مجانا ، بل إنهم لم يتمكنوا من شراء أى قدر من حانه لياه فى تلك الليلة .

وفجأة دخلت لياه وسط الناس ورفعت يديها صائحة « هدوءا ! هدوءاً ! » .

وهدأ الناس واستدارت نحوها كل الرءوس ، فصاحت: « سوف نرقص ! » .

ورأت اجزوما وأشارت إليه ، فذهب إليها ، فأمسكت بثنية صدر سترته وارتمت عليه بشدة ، وابتسمت له فى عذوبة وقالت له : « سترقص معى » .

ولمست اليزا ذراع اجزوما فالتفت إليها فقالت له : « سأذهب إلى الغرفة » .

وأومأ اجزوما برأسه .

فقالت الأم بلانك : « سأذهب معها » .

فصاحت لياه : « دعهما يذهبان ! دعمها يذهبان ! » وحملقت فيهما متألمة وواصلت « أتحسبان أن دموعكما وملابسكما السوداء ستؤدى إلى شئ ؟ . . أتظنا أن تمسككما بالصرامة واستجداء شفقة الآخرين سيعينكما ؟ . . حمقاوتان ! ما راح قد راح ! . يامعلمه ! باه ! أنت أشد حمقا ! دموع ! دموع ! اغربا عن وجهى قبل أن يتملكنى الغضب فأقتل كلاً منكما ! . اخرجا ! اخرجا! كلتا كما . . اخرجا ! » . وكانت تصيح وفى صوتها نشيج موحش .

وقالت ميزى برقة : « هيا يالياه . . ارقصى » .

وخرجت اليزا والأم بلانك ، وأراد اجزوما أن يلحق باليزا ، لكنه أدرك أنه لابد وأن يبقى مع لياه . ونظر إلى ميزى .

وهمست ميزى : « يجب أن نـبقى معها . . سرعان مـا ستعود الأم بلانك . إنها مجرد سانحة تغلب فيها قلبها على عقلها » .

وقالت لياه : « تعال ياجزوما . . سوف نرقص » .

وكون الناس حلقة ، وراقب اجزوما ليـاه ، منتظرا ما ستفعله ، فانحنت أمـامه ، وصفق الناس ثم بدأت ليـاه تدور وتلف . تلف هنا وهناك ، وبسرعة تزداد وتزداد . وبدت وكأنها لاتستطيع أن تتوقف ، كأن شـيـئا ما يسـوقهـا لأن تلف بطريقة أسرع فأسـرع . ثم توقفت فجأة ، ولبرهة قصيرة راحت تتمايل من جانب لآخر ، وتأكد اجزوما من أنها ستسقط على الأرض ، فتقدم مسرعا ليمسك بها ، ولكنه لم يصل فى الوقت المناسب ، فـهـوت ، وأحدث سـقوطـها ارتطـامـا شـديدا ، ورقـدت مـتكـومـة على الأرض . ووثبت مـيـزى داخل الحـلقة ، وأشارت لاجزوما ، وأخذت تغنى وترقص .

ورفع اجزوما لياه وحملها إلى البيت ، فظن الناس أن ذلك جزء من الرقص . وفى البيت حملهـا إلى غرفتها ووضعـها على السرير . وجاءت ميزى بعد قليل بقطعة قماش مبلله ، ومسحت بها على رأس لياه ففتحت لياه عينيها وابتسمت لهما . وكانت ابتسامة حزينة باهتة ، ثم أغمضت عينيها .

وقـالت ميـزي لاجزومـا : « لابأس ، يمكنك الآن أن تمضى . ستكون الآن على ما يرام » ولمست ذراعة وابتسمت له ومضت تقول : « كنت إنسانا طيبا . . فلتذهب الآن » .

ومشـى اجزومـا ، وفى الطريق إلى غرفـته التـقى بالأم بـلانك عائدة ، فسألته :

- أهي بخير ؟ .

وأومأ اجزوما .

وقالت في بساطه : « لقد عشــقته » ثم هبطت إلى الشارع تاركة اجزوما يتبعها بنظراته .

وكانت الأم بلانك امـرأة هرمة ، وقد ظهـر ذلك فى مشيتـها . كانت امـرأة مسنه مرهقـة ومجهـدة ، تشعر بـشئ من السأم من هذه الأحوال التى يسمونها الحياة .

واستدار اجزوما ومضى . كان حانقا على اليزا . لما كانت جامدة هكذا ؟ .. لم لم تسـتطيع أن تعى تلك الأشيـاء التى تؤثر فى حـياة إنسان ؟ . كانت تريد منه أن يمضي مـعها إلى البيت فى الوقت الذى كانت ليـاه فى حاجة إليه . إنهـا لـم تدرك ما كان يحدث .. مـيزى فحسب ، هي التى فهمت فبقيت .

وأدى به حنقه على اليزا إلى شـعور بالحزن بطريقة غريبـة ، كما أثقل قلبه ، وجعله يحس بخواء عميق فى داخله ، وبحنين إلى البعد عن المدينة .. البعد عن هذا المكان الذى يغرق فيـه الناس أحاسيسهم وآلامهم فى الشراب ، والذى لايفهم فيـه الآخرون حالة إنسان أصابة الحزن . أراد أن يبتـعد عن كل هذا . أن يرقد على العـشب الأخضر ويتطلع إلى السماء . وتمنى لو أنه لم يعرف دادى على الإطلاق ، لأن موته أحزنه أكثر مما أحزنه موت أمـه . كان الأمر معها واضحا ويمكن للمرء أن يتفهمه ، أما مع دادى فلم يكن الأمر كذلك . كان ثمة أمور كثـيـرة جدا تتسم بالـغرابة ، أمور لم يسـتطع فهمـها على وجهـها الصحيح ، أمور جعلته يتـحسس طريقه كالأعمى .. وكان ذلك شيئاً سيئاً .

وسار ماراً بغرفته صاعدا الشارع ، وتوقف عند الناصية . وهناك وقف يرقب الشارع والناس وهم يروحون ويغدون .. يرقب ثلاثة أطفال صغار يلعبون في قناة صرف المياه ... يرقب امرأة ملونة مخمورة تحاول الوصول إلى بيتها مستخدمة جدران البيوت تستعين بها على التحرك ، يرقب ثلاثة شبان جذبوا قلنسواتهم فوق عيونهم ، يدخنون الأفيون ، وتدور عيونهم فى الشارع صعودا وهبوطا ليروا ما إذا كان ثمة شرطى على مدى البصر .

لم ير اليزا فى الشرفة .. لم يرها تصعد الشارع فى بطء تتطلع إليه .. لم يكن يدرى عنها شيئا إلى أن سمعها تنادية . فاستدارت رأسه بسرعة . وتأبطت ذراعه وارتجفت .

فقال لها : « أنت بردانة » .

فهزت رأسها نافية ، وجعلته يشعر بدفء يديها ، وأحس بشئ ما غريب تجاهما .. شئ جديد لايستطيع أن يجد له تسمية . وبدت له أن قامتها أكثر انتصابا ، وأشد قوة ، وأقرب شبها بلياه . ومع ذلك فإنه عندما تطلع إليها كانت هى هى نفسها .. اليزا الجميلة نفسها . ونسى حنقه عليها . وكان فى عينيها ذلك الشئ الذى يستحيل معه أن يحنق عليها .

وقالت له : « لاتغضب منى » .

كان عقله يقول « ما فعلته مع لياه كان خطأ » ولكن ذلك كان يدور فى عقله فقط . أما لسانه فقد قال :

– لست غضباناً .

- هذا شئ طيب .. الليلة أريد أن نسعد ، هيه ؟ .

وتوسلت إليه بعينيها .. وكانت حقا غريبة .. لم يرها هكذا أبدا .. وأومأ بشدة .

وقال وفكره يسرح مع دادى : « سوف نكون سعداء » .

ومشيا يتجولان صاعدين الشارع ، مبتعدين عن مالاى كامب ، وفريديدورب ، متجهين إلى قلب المدينة ، بل حتى فيما وراء ذلك . ولم يتبادلا حديثا . وكانت اليزا هى التى ترشده إلى الطريق . ذهبا إلى أماكن لم يرتدها اجزوما أبدا . وأصبحت المدينة الآن وراءهما ، وقد تمدد مالاى كامب بعيدا إلى اليسار ، حتى فريديورب لم يكن فى الإمكان رؤيته .

أخذت الشوارع تتسع ، ولم يكن بها أحد من الناس ، وكان فى الممشى الجانبى عشب اعتنى به بطريقة جميلة ، كما نمت فيه أشجار . وكان للبيوت نوافذ بارزة كبيرة ، ومن خلال هذه النوافذ استطاعا أن يريا أناسا من البيض يتناولون الطعام ويحتسون الشراب ، وأن يستمع إلى موسيقى منبعثة منها وكذلك ضحكات البيض الهانئة . وكان الوقت مازال مبكرا ، فلم تكن الساعة قد بلغت بعد الثامنة ، ولهذا لم يشعر اجزوما بالقلق .. إنه لم ينم مطلقا منذ عاد من العمل ، وكان يعلم أنه لن ينام ، ومن ثم سمح لاليزا أن تقود خطاه .

واجتازا البيوت وتسلقا تلاً صغيرا . وطوال هذا الوقت لم يتبادلا حديثا . كان يشعر أن اليزا معه وليست معه فى نفس الوقت . وكان ثمة ذلك الشئ الغريب المرتسم على وجهها . ووصلا قمة التل ، فتنفست اليزا الصعداء . وقالت له بإلحاح :

- لا تلتفت وراءك .

وتبعها إلى حجر مستو ، دون أن ينظر خلفه ، وفوق ذلك الحجر وقف بجانبها .

وقالت : « الآن » ثم استدارت فجأة . . فخرجت صرخة من بين شفتيها . واستدار اجزوما وتطلع ، فشهق لأن المدينة كانت ترقد تحته . . مالاى كامب ، وفريديدورب ، وكثبان المنجم - كل شئ . وكان شيئا غريبا أن يراها هكذا ، يراها وكأنه فوقها وأكبر منها . وكان يعلم أنها كلها موجودة ، وإن لم يكون يدرى تماما أين تكون . لقد عرف سرة المدينة ، فأى واحد يمكنه أن يرى ذلك ، وكانت الأضواء تتوهج وتضئ وتنطفئ فى ألوان خضراء وزرقاء وصفراء ، وتكون دوائر تشكل خيولا ، وتشكل بيوتا فى الجو . وكان ذلك هو قلب المدينة ، حتى الغبى يمكنه أن يدرك ذلك . وكان يعلم أن مالاى كامب الآن فى مكان ما جهة اليمين ولكن أين ؟ .

- أين مالاى كامب ؟ .

وأشارت اليزا بإصبعها وقالت: « ذلك الضوء هناك ، أبصره . لا . . الضوء الأزرق . . أجل . . والآن إلى يساره . أيمكنك أن ترى البقعة المظلمة وأضواءها القليلة . . تلك مالاى كامب من هناك وحتى الكوبري . وعلى الجانب الآخر من الكوبرى وعبر النفق فريديدورب » .

وقـال اجـزوما : « إنه شديد الصغر من هنا » وأبدى دهشته . « وحين تكونين هناك ، ترينه كبيرا ، عند قدومى لأول مرة إلى المدينة تهت فى مالاى كامب . أخذت أمشى من بعد ظهر ذلك اليوم وحتى وقت متأخر من الليل . ولو لم تكن لياه خارج بوابتها لضعت . وهو الآن صغير جدا ، يشبه تماما مزرعة كبيرة » .

وقالت اليزا فى شرود : « تلك هى المدينة . . المدينة » .

أجل . . كل شئ كان هناك فى واد غير عميق . . وبدت وهمية فى ضوء القـمر وفى الأضواء المتـلألئة التى انبعـثت منها ، فأشـبهت بذلك لعبة كبيرة جميلة .

وقال اجزوما : « والناس فيها يعيشون » .

وحدقت اليزا بتركيز فيها تحتها ، وألقت عيناها مرة بعد مرة نظرة شـاملة ، من الأفق للأفق ، وكان فى تحـديقـها أثر من رغـبة ملحـة وإحـساس بالـوحشـة . وكـان ذلك الأثر يزداد حـدة حين تنظر إلى الطريق الطويل الملتـوى الصاعـد إلى التل البعـيد والذى يخـتفى وراء الأفق . . طريق لعبة يصل من مدينة لعبة .

وسألها اجزوما : « أنت ولدت فى المدينة ؟ » .

- أجل ، ولدت فى المدينة .

وكان صوتها حزينا ، فأحاطها بذراعه وقال لها بلهفة :

- أرينى أين .

فابتسمت وحكت يده بوجنتها وقالت :

- فى بيت لياه .

- وقال فى إصرار : « أرينى » .

فهزت رأسها ثم أشارت مازحة بإصبعها . وكان البيت غارقا فى العتمة التى كانت هى مالاى كامب ، مثل كثير من بيوت أخرى كثيرة مثله تماما .

ومرت سحابات رقيقة متفرقة عبر القمر ، وفى الأسفل وفى قلب المدينة ، كانت أضواء النيون تومض وتنطفئ على الدوام لا تتوقف . . وفتح اجزوما فمه ليتكلم ، لكن اليزا رفعت أصابعها إلى فمه وهزت رأسها ، فأغلق فمه . ومن المدينة جاء طنين . . تصاعد فى بطء ، ثم تلاشى فى السماوات اللانهائية .

وجلسا صامتين ، لايتفوهان بكلمة واحدة ، ولايكادان يتحركان . لقد جلسا هكذا وقتا طويلا ، وحين نظر اجزوما إليها ثانية رآها تبكى فى صمت فسألها :

- ما هى الحكاية ؟ .

فقالت وهى تبتسم خلال دموعها : « لاشئ » .

فجفف لها دموعها ، وكان يتعذر عليه تماما أن يفهمها وهى على مثل هذه الحال . ولكنها كانت معه لم تحاول أن تفر بعيدا عنه .

وقالت برقة شديدة : « اجزوما » .

ونظر إليها ،ورأت هى كم يشق علية ما يبذله من محاولة لفهمها واعتصر يديه .

- نعم .

- لاتذهب إلى العمل الـليلة . أبق معى . . . وكان فى صـوتها توسل .

- لابد أن أذهب ، فأنا الرئيس .

- الليلة فقط ياأجزوما ، رجوتك .

- يجب أن أذهب ياإليزا . رجلى الأبيض يعتمد على .

كان يتمنى لو استطاع أن يجعلها تتفهم الموقف ، وابتسمت فجأة .. ابتسامة مرحة متألقة وأومأت وقالت :

- إننى حمقاء . يجب أن تذهب .

وانتـابه السـرور ، فلقـد أدركت الموقف . ثم بقـيـا بعـد ذلك صـامتين . ومرت دقائق . . ثم بدأت بلا قصد تعبث بيده ثم بذراعه ، وأخذت حـركة أصابعهـا تزحف إلى أن صار يشعر بهـا . ثم صار يشعر بـدفئها ويعي دعوة أصـابعها . وسرى الدفء إلى دمـائه فتناول يديها واعتصرهما بطريقة جعلتها تشهق من الألم .

وقالت هامسة: " لابد أن تمارس الحب معى " .

فقال: " هيا بنا " .

- كلا . . هنا .

- ولكن . .

- لاأحد يأتى هنا . وأنا أريدك هنا .

ولم يسـتطيع مقـاومة أصابعها وعـينيها وبسمـه شفتيهـا الغريبة المغرية .

وقبل أن ينقلها اجزوما عبر أعلى قمة لأعلى جبل ، أدارت اليزا عينيها نحو المدينة ثم أغمضتهما بشدة وتشبثت به . .

-١٣-

اليزا . . اليزا . كـان يناديها وهو مستغـرق فى نومه ، ثم تقلب فى فراشه .

وكان العمل شاقـاً فى الليلة الماضية ، لأنه لـم يذق طعم النوم . وبان فى نومه الاضطراب المتوتر الناجم عن كل هذا .

وكان يتقلب فى فراشـه ويستدير ويئن منذ جاءت الأم بلانك الى الغرفـة . وهو الآن ينادى اليـزا ، والأم بلانك العجـوز لاتدرى ماذا تفعل .

وعاود النداء: " اليزا " .

وراحت الأم بلانك إلى السرير ووقفت تتطلع إليه ، ومدت يدها لتلمسه ، ثم جذبتها ثانية . لقد فتح عينيه ورآها تحوم حوله . فابتسم لها .

- أهلا .

- أهلا ياالجزوما .

ودار بعينيـه فى الغرفه كلـها . كل شئ فيـها على ما كـان عليه دائما . ملابس العمل موضوعة فى مكانها المعتاد ، والنار وسط الغرفة والطعام فوقها .

- أين اليزا ؟ .

- مشت .

- هل ستغيب ؟ .

وتركته الأم بلانك فجأة وراحت إلى النار . . وبدت شديدة الهرم شديدة الإجهاد ، فقد كانت قدماها تزحفان على الأرض . وانتصب اجزوما جالسا وهرش رأسه .

- أين ذهبت أيتها الأم بلانك ؟ .

- رحلت يااجزوما . ولم تلتفت إليه المرأة العجوز .

- أين ؟ . وكان فى صوته لهجة تنم عن اللهفة وضيق الصدر .

وفى جهد التفتت إليه الأم بلانك وثبتت عينيها عليه ، وقالت فى أناة :

- مضت فى رحلة بالقطار طويلة . قالت لى أن أبلغك أنها ماضية فى رحلة بالقطار طويلة ولن تعود . ستستمر الرحلة يومين وليلة .

وتوقفت الأم بلانك لحظة . وجلس اجزوما يحملق فيها . وفتح فمه مرة ثم أغلقة ثانية دون أن يتفوه بكلمة . وعادت الأم بلانك تتكلم ثانية :

- قالت إنها حاولت ، ولكن لافائدة يا اجزوما ، ولقد بكت كثيرا ياولدى لأنها تحبك بصدق . . من الصعب أن أوضح لك يااجزوما ، لأن الأشياء التى فى رأس شخص آخر من الصعب دائما

فهمها . ولكنى أعلم أن اليزا فتاة طيبة ، وأعلم أنها تحبك أنت فقط . إن لديها نفس المرض الذى كان لدى دادى ياإجزوما ، وقد أحببت دادى ، ولهذا أنا مدركة للموقف . . .

وقال اجزوما بلطف: « اهدئى » . . وجلس يحدق فيما أمامه دون أن يرى أى شئ .

وفجأة كانت الغرفة هادئه وغريبة . وكان العالم أيضا كذلك ، مكاناً خاوياً وغريباً . وظلت الأم بلانك تنظر إليه . . لم يكن فى عينيه حنق . . لم يكن فيهما شئ . . وبقيتا تتطلعان إلى مكان واحد دون أن تريا ذلك المكان . ولم تفكر الأم بلانك فيما يتوقع منه من تصرف . ولكنها رأت أنها لم تكن تتوقع منه أن يجلس هادئا ، يحملق فى مكان واحد دون أن يراه .

فقالت برقة: « أنا آسفة » .

لم يسمعها اجزوما ، فنهضت وملأت له صحنا بالطعام وقالت له: « طلبت ميزى منى أن أطهو لك طعامك » .

لكن اجزوما لم يسمعها .

وناولته الطعام ، فأكل بطريقة آلية دون أن يدرك ما هو أو يبدى به اهتماما . وتوقعت منه الأم بلانك أن يلقى عليها مزيدا من الأسئلة ، لكن ها هو الآن يتناول الطعام ويحملق ولايرى شيئا ولايتذوق شيئا .

الناس لايتصرفون مثل هذه التصرفات . . فحين تنزل بهم مصيبة ، فانهم يقومون بعمل شئ . . إنهم يبكون أو يصرخون أو يمتنعون عن الطعام أو يلجأون إلى الشراب ، أو يغضبون أو تتيبس أبدانهم . إنهم لايكونون مجرد أناس طبيعيين كما كانوا دائما .

وعرف اجزوما نوع الطعام فنحاه جانبا ، فقالت له الأم بلانك :

- إنك لم تفرغ منه بعد .

فقال اجزوما: « امش من فضلك » .

وكانت الأم بلانك على وشك أن تعترض ،ولكنها نظرت إليه وعدلت عن رأيها . وفى تمهل لمت شالها وخرجت .

وقال اجزوما : « لقد رحلت » وراح يتطلع فى كل أرجاء الغرفة . وحاول أن يفكر ، لكن التفكير كان مستحيلا . كل شئ كان مستحيلا . واليزا رحلت ولن تعود إليه ، وهذا كل ما يعيه . اليزا رحلت . وزحف الأصيل خلسة نحو المساء ، وبقى اجزوما جالسا على حافة سريره ، وكان الوقت مجهولا بالنسبه إليه . ودقت ميزى على الباب ودخلت . ورفع بصره مرة واحدة ، وكان مشدوها . وابتسمت ميزى بمرح ولكن كان يطل من عينيها ألم شديد .

وقالت ميزى: « يجب أن ترتدى ملابسك » وقدمت له قميصا وبنطلونا .

ولبس وجلس ثانية على حافة السرير .

فسألته: « هل ستعمل الليلة ؟ » .

- كلا .

كان ذلـك يوم سبت ولم يكن عليـه أن يذهب إلى العمل حـتى الأحد ليلاً. وشـعرت ميزي بالرثاء لـه . فالعمل سيكون مـفيداً . . والعمل الشاق يعين القلب .

فقالت له : « يجب أن نخرج ونرقص . صديقاتى فى هوبفلاى طلـبـوا منـى أن أذهب إليـهم ، وقالوا إننى يجب أن آتى بك مـعى أيضـا . يمكننا أن نذهب الليلة ونعـود فى الوقت الذى يناسب ذهابك غدا إلى العمل ، هيه ؟ » .

وهز اجزوما رأسـه ، ولاكت ميزى شفتهـا السفلى ثم ضحكت فجأة : « لياه قالت إنها ستأتى أيضا لو أنك جئت » .

ونهض اجزوما وأحكم ربط حزامه وراقبته ميزي فى قلق .

وقال اجزوما برقة : « لا أريد الذهاب الى صـديقاتك ولا أريد الـذهاب إلى أى مكان . دعينى من فـضلك وحدى ياميزى . فـيما بعـد ، ربما أذهـب معــك ثانيـة ، أما الآن فـإنى أريد أن أخلو إلى نفسى » .

وترددت ميـزى ثم خرجت ، وما إن أغلقت البـاب وراءها حتى سمـعها تنشج بالبكاء ، فأحـنقه ذلك ، لكنه سرعان مـانسى الأمر ، وعاد الى السرير وجلس على حافته .

وقال: « لقد رحلت » وتعجب كيف شعـر بذلك بطريقة تتسم بالغموض لاتحـيز فيها ، ولكن لاوجـود لأحاسيس عنده ، اللهم إلا فراغ شديد الوطأة . لاوجـود لألم ، لاشئ . . لاشئ . . قد رحلت اليزا . .

وبعد عشرين دقيقة من خروج ميزى دفعت لياه الباب وفتحته دون أن تقرعه ، ودخلت ووقفت برهة فى المدخل ، يداها فى وسطها ، ورأسها مائل على جنب ، وابتسامة مرتسمه على جانب من فمها . ونظرت إليه ، ثم تقدمت داخل الغرفة ، وقالت بصوت أجش ومرتفع: « أهلا ياإجزوما . أسمع كلاما كثيرا وأرى نسوة عجائز وشبابا حمقى يبكون . . هيه ؟ » .

ونظر اجزوما إليها فى صمت .

- أنت إذن لا تستطيع الكلام هيه ؟ . اجزوما ياقادما من الشمال ؟ . ولم هذا ؟ لأن خليلتك هجرتك . أنظر إلى نفسك . . باه ! » .

فقال اجزوما : « إليك عنى » .

- قطعا سأدعك وأمضى ، ولكنى سئمت من أولئك الضعفاء الذين يرتدون بنطلونات ويتظاهرون بأنهم رجال . وتغير صوتها فجأة ، أصبح أرق ، وأكثر ودّا ، ولكن الابتسامة الملتوية بقيت مرتسمة على وجهها : « لقد رحلت ياإجزوما ، وهو أمر لايمكن أن تجد له حلا . رحلت لأنها تسأم هذا المكان وتسأمنا ، ولأنها تبتغى أشياء لا نستطيع أن نحققها لها ، أشياء لا تستطيع الحصول عليها هنا. وقد تستطيع نوالها وقد لا تستطيع . ولكن هذا هو حالها ياإجزوما وأنت لا تعيه . ولكن هذا هو سبب حبك لها . لقد قلت لك إنك مغفل مع الناس ياإجزوما ، مغفل كبير . أنت تظن أنك لو أحببت امرأة وأحبتك هى ، فهذا هو كل شئ ، هيه ؟ . هو كذلك

مع البعض ، ولكنه ليس كذلك مع آخرين . بالنسبه لميزي نعم ، هو كل شئ . وبالنسبـة لاليزا لايكون كـذلك . ولكنك عما قـريب قد تفـهم اليزا حين يقع لك شى مـا . والآن اخرج يااجـزوما ، اخـرج وتمش .. تمش فترة طويلة ، وعد حين تشعر بالاجهاد » .

ودست يديها تحت إبطيه ورفعته مرة واحدة لينهض على قدميه . ووقفـا يتطلع كل منهـما للآخـر ، ورفعت هى حـاجبـها الأيـسر ، واتسعت البسمة الساخرة على جانب من وجهها .

وقالت له: « لـو كنت رجـلا » وتطلعت إلـيـه من أعلى إلى أسفـل « لو كنت رجـلا يمكنك أن تجئ إلي بـعد تمشـيـتك ، فـربما أخذتك الى الفراش » .

وضحكت بغلظة للتعبير الذى ارتسم على وجهه ، وخبطت على فخـديها ثم دفعتـه الى الخارج ، وشاهدته وهو يصعـد الشارع ، ثم دخلت الغرفـة بسرعة وأغلقت الباب وراءها واتكأت عليـه بكل ثقلها وتنهدت ،ولمعت الدموع فى عـينيها ، وفتحت فمهـا وتنفست جرعة هواء كبـيرة ، وفي تمهل نـظرت فى أرجاء الغـرفة . هنا كانـت اليزا تعيش سـعيده بعض الأحيـان . نعم .. كان ذلك يبدو على وجهـها وفى عينيـها وفى صوتهـا . ويبدو فى الطريقة التى كـانت تمسك بها يدى اجزوما أحيانا . لقد عاشت هنا سعيدة لفترة وجيزة .

وابتســمت في حزن فألانت الابتســامه وجههـا ، وجعلته رقيـقا وجمـيلا . وكانت ابتسـامة كبيـرة ملء الفم ، رقيقـة وحزينة . ومن عينيها تسللت دمعتان ، انحدرتا بلا اكتراث على وجنتيها . ثم راحت إلى المنضدة الصـغيرة ، وكان يعلوها صورة قـديمة باهته لاليزا مشـبته

على الحائط ، واخذت تتطلع إليها فـترة طويلة ، قالت بعدها فى رقة « إنهم لايدرون ما أشعر به » ثم دستها بين طيات ملابسها وضغطت عليها بيدها وكانت عيناها عينى أم تهدهد طفلها .

واتجهت إلى البـاب ، وعنده تريثت قليلا ، ونظرت إلى الغـرفة ثانية ، ثم مسحت دموعها بسرعة وعدلت من هيئتها وخرجت ومشت فى رشاقة تهبط الشارع .

لقد رحلت اليزا . . . . .

- ١٤ -

اليزا رحلت . .

ترددت هذه العبارة فى رأسه فى أثناء مشيه . وكان رحيلها هو الشيء الوحيد الحقيقى . الشيء الوحيد الحى . فكل شيء آخر حوله كان ميتا فاقدا الحياة . لم ير الناس وهم يمرون به مسرعين ، ولم يشاهد بهجة مالاى كامب فى ليل السبت ، ولم يدرك الحياة تنبض وتصطخب فى كل مكان . شيء واحد فقط بارز فى رأسه . شيء واحد حقيقى حى مشتعل ، ولا شيء غيره .

ومشى دون أن يدرى إلى أين هو ذاهب ، ودون مبالاة . كل ماكان يبتغيه أن يمشى فقط ، وأن يظل ماشيا كملايين البشر البلهاء فاقدى الهمة ، وأن يضيع وسط إيقاع الحركة . أن يفقد البصر ، أن يكون أصما لا يسمع صوتا . فقط ساق تتحرك إلى الأمام ثم تليها الساق الأخرى ، حسبه هذا . . ودوما . .

وفى أثناء مشيه راح الإحساس بالانعدام ينزاح رويدا رويدا من رأسه . . وبعد ساعتين من المشى بدأ يعى الناس والأشياء من حوله . بل أنه أخذ يبدى اهتماما بهم ويتطلع إلى البعض منهم فى شيء من الفضول ، ثم أصبح مدركا لوجوده ، واعياً لأول مرة بالألم الذى سبب له غصة فى حلقه . ثم دعك عينيه وهز رأسه ليهدئ ما فى عقله من فوران .

واعتراه إرهاق شديد ، فقد أجهده المشى ، فتوقف ، وحاول أن يتبين اتجاهه ، وفكر . . يجب أن أعود . وتلفت حوله ، هناك حجر مستـو . . وكان الحجر مألوفـا له . . ولكن ترى أين رآه من قبل ؟ . ثم تذكره . . فى الليلة الماضية مارس الحب مع اليزا على نفس الحجر . وأشاح بوجهـه فجأة . . أجل ، فى هذا المكان كانا مـعا فى الليلة الماضية . من هنا كانت المدينة تشبه لعبة ذات أضواء كثيرة . ومن هنا تطلعا إليـها الليلة الماضـية . لقد طلبت منه ألا يـذهب إلى العمل . وكانت تبدو غـريبة . وجعلته يمارس الحب معهـا هنا . وخيل إليه أنه يكاد يراها حين نظر إلى الحجر . . وكأنهـا كانت هناك تنظر إليه بتلك العينـين السوداوين الرقيـقتين وبتلك الغـمازتين الفـاتنتين حين كـانت تبتسم . لقد كانا هنا الليلة الماضية ، أما الآن فقد رحلت .

واستدار اجـزوما وأسرع يبتعد عن المكان ، وخـفق قلبه بشدة . وآلمته رجلاه ، ولكنه مشى بسرعة ، وكانت الذكرى تعاود مهاجمته . وكان الإحساس بالانعدام قد ولى ، وكان إدراكه أنه لن يرى اليزا ثانية وأنها هجرته إدراكا قويا وواقعيا . . لم يكن إدراكا مبهما مشوشا . إنه موجود ومؤلم . وخنقته الغصة التى فى حلقه .

وكان كـل شىء متألـقا وواقعـيا . . البـيوت والناس والـشوارع والسـيارات والأضواء والسـماء والأرض . . كل شىء كـان واقعـيا ومشـيرا . ومن رأسه بدأت الأشيـاء التى كانا يفعـلانها سويا تتـسرب رويدا . . مشيهمـا سويا ، رقصهما معا ، جلوسهمـا صامتين معا ، ضحكهما معـا ، مراقبتهما الناس معا ، كل الأشـياء المعتادة التى كان لها هالـة حولهمـا . انتهى كل ذلك ، انقـضى ، وراح معـها . لن

يستيقظ ثانية على صوت الطائر المغرد الذى يتحول إلى دندنة اليزا . لن يجلس ثانية إلى النار بجوارها يتناول الطعام . لن تستخدم مرة أخرى رجله متكأ لذراعها . لن تطهو له طعاما ثانية أو تركب زرارا لقميصه . لن يكونا معا مرة أخرى ، وهو ما يؤلمه ألما حادا مميتا .

ووصل إلى مالاى كامب ، وكان الآن واعيا بالدفء المحيط به . وكان الشتاء يولى ، وعادت الشوارع مراكز للتجمع ثانية ، والناس يروحون ويجيئون ، ويضحكون ، يلتقون مع صديقاتهم ويرقصون عند نواصى الشارع . ومرة أخرى ومع قدوم الصيف تبدأ الحياة تنبض بأسلوبها الدافئ المتمهل فى شوارع مالاى كامب . لقد جعلته الحياة حوله أكثر إدراكا بعزلته ووحدته وغياب اليزا وحاجته الشديدة إليها .

وشق طريقه وسط جماعة من الناس ، فأمسك رجل منهم بذراعه محتجا عليه ، ودافعا إياه جانبا ، فتخلص منه اجزوما واستمر يهبط الشارع . وغضب الرجل وسبه وراح يتعقبه ، ولكن المرأة التى كانت بصحبته جرت وراءه وأمسكت بذراعه وقالت : « دعه بإمكانك أن تدرك أنه فى ضائقة » .

وذهب اجزوما إلى غرفته ووقف يجيل النظر فيها . وكانت الغرفة متغيرة بالفعل . لم تكن هى نفس المكان الذى سعدا فيه وتناولا فيه طعامهما ومارسا صمتهما . لقد بدت كئيبة مقبضة باردة رغم المدفأة التى فى وسطها . لم يستطع البقاء فيها ، فخرج وأغلق الباب خلفه . وفى تمهل اتخذ طريقه إلى مكان لياه . لم يكن بوده الذهاب هناك . لكن ، لم يكن يوجد مكان آخر يذهب إليه . لم يكن يعرف

أحد آخر ، ولياه والذين يحيطون بها كانوا هم فقط أصدقاءه طوال الوقت الذى أمضاه فى المدينة . ولم تكن لديه الليلة رغبة فى الشوارع ؛ لأنها تذكره باليزا . فمرور رجل وامرأة به يتمشيان على مهل ، أمر يفوق قدرته على الاحتمال . و لذلك كان المكان الوحيد الذى يعرفه هو مكان لياه .

وكانت الأم بلانك خارج البوابة تراقب رجال الشرطة ، حيث كان البيع يجرى بالداخل .

وسألته : « كيف حالك يااجزوما ؟ » .

فرد بتثاقل : « بخير » .

فقالت له : « ادخل . الآخرون موجودون ، وميزى موجودة أيضا » .

ودخل اجزوما وتلفت حواليه ، وكان المكان مكتظا بالشاربين والشاربات . وعند ركن على الجانب الآخر رأى لياه ، وكانت تبيع وتضحك مع مجموعة من رجال حولها . ورأته لياه فنادت امرأة أخرى لتحل محلها ، ومشت إلى الناحية الأخرى لتقابله .

وقالت : « أهلا يااجزوما » وكان فى صوتها رقة وإشفاق . وضغطت على يده ، فأحس بارتياح أفضل . وعندما كانت فى غرفته أيضا فى وقت مبكر اليوم ، كان وجودها أفضل لديه كثيرا من وجود الآخريين .

وقالت له : « الحال الآن أفضل . لقد آلمك الأمر ، لكن الإحساس بالانعدام قد ولى عنك ، وهذا شىء طيب » .

وأومأ برأسه ، فقد أدرك أنها تتفهم الأمر ، أنها أكثر دراية بالناس من أى واحد آخر عرفه على الإطلاق . وابتسمت له ثم قالت :

- ربما توجب عليك أن تشرب الليلة . . عليك أن تعب كمية كبيرة ، فلعل هذا يعينك على النسيان .

فقال وهو يهز رأسه : « لا » .

- جوهانز بالداخل ، اذهب إليه وتحادث معه . ثم ابتسمت وأشاحت بوجهها « بعد قليل سيكون جيه . ب . وليامسن وسيتعذر الحديث معه » .

فقال اجزوما : « لا رغبة لى فى الحديث معه » .

- طيب . . تعال واجلس بجوارى وأنا أقوم بعملية البيع ، وسنذهب فيما بعد للقاء صديقى الذى سيخبرنى بما تنتوى أن تقوم به الشرطة .

وأخذته إلى ركنها وهيأت له مكانا ، فجلس إلى يسارها وعلى بعد قليل من ورائها ، وراح يراقبها وهى تكيل وتطفف أكيالها وتجمع فى مقابل ذلك قطع الشلن والشلنين . ومن حوله طنت أصوات الناس ، ومن حوله كان الناس يتحركون ، تيار لا ينقطع من الناس . . ناس يفدون ويحصلون على شرابهم ، ويفسحون مكانا لآخرين . وكانوا فيما بينهم يضحكون كثيراً ويديرون أحاديث تنبض بكثير من الحيوية . وكانت لياه تلتفت إليه من آن لآخر ، وتلقى ببعض التعليقات وتبتسم له . وأحيانا ما كانت تلتفت إليه مجرد

التفاتة ، ثم تشيح بوجهها عنه . ورأته ميزى حين جاءت من البيت فتألقت عيناها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة سعيدة . ولاحظت هى الأخرى أن إحساسه بالانعدام فارقه . فأسرعت إليه وربتت على كتفه ، فنظر إليها وابتسم . ولم تتفوه هى بكلمة ، كل ما فعلته أنها ربتت على كتفه ، ونظرت إليه ثم ارتدت إلى البيت .

فقالت لياه وصوتها يعلو على صوت الضجيج : « إنها إنسانة طيبة » .

فرد بفتور : « أدرى » .

فقالت لياه : « إنها تعشقك » .

فأشاح بوجهه فى صمت . وأقبل جوهانز من البيت ، تتكئ لينا خليلته على ذراعه فى تثاقل . كان ثملاً ، فأزاح رجلاً عن طريقه ، فأريق بعض من جعة الرجل ، فاحتج ، فأمسكه جوهانز بيده الضخمة من رقبته ورفعه فى الهواء ، فتذمر الرجل وقاوم فى وهن . فقال جوهانز هادرا :

- أنا جيه . ب . وليامسن ، سأسحقك ياخسيس .

وصاحت لياه هادرة : « أنزله على الأرض » وصفعته ، فبانت على وجهه نظرة ألم تتسم بالبراءة ، وأطلق يده فهوى الرجل وارتطم بالأرض ، وأحدث ارتطامه صوتاً مكتوما .

وصاح جوهانز فى حزن : « ضربتنى يا أخت لياه . . لقد ضربتنى » . وبدأ يبكى .

ولبرهة أصابت الدهشة ليـاه لمرأى دموع جـوهانز . لقد كـان ضخـما وطويلا ، وكـان شديد القـوة ، ولذلك صدمهـا بكاؤه ، ثم انفجرت بعد ذلك ضاحكة . . فلقد كان الموقف شديد الهزل .

- أنت ضـربتنى . . وأعـول جـوهانز ، ودمـوعه تنهـمـر على وجـهـه . وبدأت لينا خليلتـه تنشج ، وسـرعان مـا انخـرط الاثنان كلاهما فى البكاء .

واهتزت أعطاف لياه من ضحك لم تسـتطع السيطرة عليه ، ولم يتمالك اجزوما نفسه ، فضحك هو كذلك . أما الرجل المسكين الذى ألقى به جـوهانز ، فقـد ترك على الأرض بلا مبـالاة . ورقد يتـفرج مشدوها على مـشهد جوهانز وخليلته وهمـا يبكيان . وضحك رجل قريب من لياه ضحكة مكتومة ، فتقدم جوهانز خطوة إلى الأمام وهو يحملـق فى الرجل مغضـبا والدمـوع تنهمـر على وجهـه . وتوقفت الضحكة فى حلق الرجـل . وتقدمت لياه لتـقف بينه وبين جوهانز . وبحث الرجل عن مـخـرج له ، ولم يجرؤ الآخـرون على الضـحك سوى لياه واجزوما .

وجاءت ميزى إلى الفناء ورأت ما يحدث فتهاوت من الضحك . ونظرت لياه إلى اجـزوما ورأته يضـحك فتسللت إلى ضـحكها نغـمة جديدة من السعادة . وبكـى جوهانز و خـليلته بمرارة ، فتساءلت ليـاه « ماهذا ؟ » .

فقالت لينا : « لقد ضربته » . واشتدت فى البكاء .

وقال جوهانز : « لقد صفعتنى » .

فقالت لياه وهى تحاول السيطرة على ضحكها : « لقد خنقت الرجل » .

فرمى جوهانز الرجل بنظرة ازدراء وبصق : « هو الذى بدأنى بالضرب » .

- هذا كذب .

فسأل جوهانز لينا وهو يدفعها بعنف : « أليس الأمر كذلك ؟ » .

فصاحت لينا : « لا تدفعنى » وأمسكت بذراعه ، وحاولت أن تغرس فيها أسنانها ، فتخلص منها كما لو أنها كانت ريشة .

وقال جوهانز : « اسألى اجزوما ، لقد رأى الرجل يضربنى » .

وابتسمت لياه ونظرت إلى اجزوما وسألته : « هل كان الأمر كذلك ياأجزوما ؟ » .

- كلا

- ما رأيك يا جوهانز ؟ .

فنكس جوهانز رأسه .

وقالت لينا فجأة : « أنت متوحش . اعتذر للرجل ، قل له إنك آسف ، هيا ! » . وشمرت كميها وتقدمت نحوه .

وقالت لياه : « هيا ياجوهانز ، لن أسمح لك بالتدخل مع عملائى . قل إنك آسف » .

وانقضت عليه لينا ، فهز نفسه بطريقة جعلتها تلف وتدور . ويخجل مال تجاه الرجل الملقى على الأرض وأمسك بيده فانتزع الرجل يده وابتعد خائفا .

فقالت لياه تستحث الرجل : « امسك يده ، إنه لن يضربك » .

وفى تردد أمسك الرجل يد جوهانز الضخمة ، الذى شده فأنهضه وقال له : « إننى آسف » .

وأومأ الرجل برأسه وابتعد . فتمتم جوهانز فى همس « خسيس » .

فقالت لينا : « هذا شىء طيب » وأمسكت بذراعه « والآن يمكنك أن تشترى لى شرابا » .

فقال جوهانز وقد ناول لياه ورقة بعشرة شلنات : « أعطى هذه الخسيسه شرابا » .

- سأحتفظ لك بالباقى ، لأنك سوف تحتاج إليه غدا .

وفى كل مكان كان الناس يطلبون شرابا ، وعبقت بالمكان رائحة الجعة ، وأصبح حديث السكارى من الرجال والنساء طنينا . وكان الجو هو جو مالاى كامب والأماكن الأخرى المظلمة من جوهانسبرج فى ليلة من ليالى السبت . الجو الذى لا وجود له فى أى مكان آخر على وجه الأرض إلا فى الأماكن المظلمة فى جوهانسبرج .

- هيا ياالجزوما ، سأمضى إلى الشارع لأقابل صديقى الذى سيحمل أخبارا لنا .

ولحق بها اجزوما خارج البيت ، وكانت الأم بلانك ما تزال بالخارج ، وقالت : « كل شيء آمن » .

فقالت لياه : « إنني ماضية لاكتشاف خطط الشرطة » .

ومضت هي واجزوما في الشارع ، وكانت من آن لآخر تتلفت إليه ، لكنه كان غارقا في أفكاره المكتئبة ، وقالت له : « أنا أيضا أفتقدها » .

ونظر اجزوما إليها .. أمر طبيعي .. هي أيضا تعشق اليزا .. لقد لاحظتها وهي تنمو وتكبر ، ولهذا لابد أن تكون اليزا كابنة لها . من الطبيعي أن تتعلق أيضا باليزا .

وقال لها : « أجل إنك تحبينها أيضا » .

- كلنا نحبها .

- وهي ؟ .

- هي تعشقك يااجزوما .. أنا أعلم ذلك .. وأنا لست بلهاء مع الناس .

- لكنها هجرتني .

- وهجرتني كذلك ، وهجرت الأم بلانك .. وقد أحبتنا أيضا .

ووصلا إلى ناصية الشارع وانتظرا . ومضت خمس دقائق ، عشر دقائق . ثم أبصرا الشرطي الأسود قادما فوق دراجته من بداية الشارع ، وتوقف .

فقالت لياه : « أهلا . . ما الأخبار ؟ » .

فقال الرجل : « أنا قلق ، إنهم ينظرون إلى بطريقة غريبة » .

فقالت لياه بخشونة : « هذا شأنك . . إننى أدفع لك لتبلغنى بما يخططون له ، لا لتبلغنى بالكيفية التى ينظرون بها إليك . ماذا يخططون ؟ » .

فقال الرجل : « إنك قاسية » .

– والحياة قاسية . . . ماذا يخططون ؟ .

– لن يأتوا الليلة ولا صباح باكر أيضا ، ولكنهم سيأتون عند أصيل الغد ، وهم لن يتركوا المكان فى الليل ولو لساعة واحدة فقط .

فقالت لياه : « حسن » وعدت خمسة جنيهات ورقية . ، . فوضع الرجل النقود فى جيبه ومضى فوق دراجته .

وقالت لياه باستغراق : « لن نبيع فى الغد على الإطلاق ، وأعتقد أن هذا أفضل . وسنتخلص الليلة من الصفائح . فما قولك ياإجزوما ؟ » .

فقال اجزوما : « لك أنت دراية بمثل هذه الأمور » .

ورجعا إلى البيت صامتين . وعند الباب قابلتهما ميزى التى قالت لاجزوما : « بنا نتمش ياإجزوما » .

فقالت لياه : « امض معها » ودفعته .

– وهو كذلك .

وقالت لياه : « ولكن لا تمكثا فترة طويلة ، يجب أن نعالج الليلة مشكلة الصفائح ، وأنتما تستطيعان أن تقدما يد العون . امضيا الآن »

وتأبطت ميزى ذراعه ومشت به فى اتجاه فريديدورب . وسارا فترة طويلة فى صمت ، وظلت ميزى تتعطف يسارا إلى أن مشيا فى مكان كان العشب فيه تحت أقدامهما .

وتساءل اجزوما : « أين يكون هذا المكان ؟ » .

– هذه فوردسبيرج ، ساحة الرياضة للأطفال الملونين . إنها تقع فى منتصف المسافة بين مالاى كامب وفريديدورب . فلنجلس على العشب . وجذبته إلى جوارها .

واستلقيا على العشب الأخضر . . اجزوما على ظهره متوسدا يديه ، وميزى على جنبها تتكئ على أحد مرفقيها ومستديرة ناحيته .

وتطلع اجزوما إلى القمر الذى لم يكتمل ، لقد بدا الألم شديد الألفة . إنه إلى حد كبير جزء من الحياة . وسرح بفكره فى موطنه وأهله هناك ، وأدرك أنه لن يذهب أبدا إلى موطنه ثانية ، وهو لا يريد العودة إليه ، فهو لم يعد موطنا . ولكن فى موطنه الآن ، لو أنه كان مستلقيا على العشب ، لكان فى كل مكان عدد لا يحصى من وهج ضئيل ، وهج اليراعات الصغيرة ، حيث تبدو أضواؤها وتختفى طوال الوقت . ولكان هناك الطنين الهادئ بدون ذلك الصوت الخفيض المبهم للأزير الذى يسمعه الإنسان فى المدينة ، ولكن الموطن الآن انتهى . هجران اليزا قضى عليه ، وقد كان يحلم بالذهاب إليه معها.

وسألته ميزى : « هل المكان هنا هادئ ؟ . إننى أحبه ؟ » .

وكان اجزوما سارحًا بفكره مع اليراعات فى موطنه فلم يقل شيئا .. ونظرت إليـه ميزى ثـم أشاحت بوجهـها بعـيدا عنه . والتـقطت عيناها ضوءاً خافتًـا يومض فى الأفق .. ضوءاً واهنًا كان من الصعب أن يطيل بقاءه . وثبتت هى عينيها عليه .

- اجزوما .

- هيه ؟ .

- كانت إنسانة جيدة .

وحول بصره إليها وبقى هادئا .

- هجرانهـا لك سيشـعرها بالسأم ياإجـزوما . وهى الآن ، فى هـذه الليلة وأينمـا تكون ، تشـعر بالوحـشة وتتـوق إليك ، لأنهـا أحبتك .

- لا تتحدثى عنها .

- بل يجب أن نتـحـدث عنهـا ، لأنهـا تعـيش فى تفكيـرك ، ويحسن أن تتحدث عن شىء يعشعش فى رأسك .

- لا أريدك أن تتحدثى عنها ! .

وبقيت ميزى تحدق فى الضوء الوامض البعيد .

- حـسن ، سـأتحـدث أنا عن نفـسى لأننـى أريد أن أتكلم ، فـصدرى مـتعب ، ومن الخـير لى أن أفـضفض . وتوقـفت لحظـات

ولعقت شفتيها ، ثم وفى صوت يتسم بالواقعية ، استرسلت تتحدث كما لو كانت تناقش أمرا ما غير ذى بال : « الوقوع فى حب رجل يحب امرأة أخرى أمر مؤلم ، بل ربما يكون أشد إيلاما من أن تحب إنسانا يحبك ثم يهجرك . لا أدرى . . كل ما أعرفه أن حب رجل يحب واحدة أخرى أمر شديد الإيلام . . إنك تنظر إليه فترى شعاع عينيه متجها إلى الأخرى فيدمى قلبك . وأنت ترقد لتنام ، وتكون وحيدا ، ويبدو لك أن لا أحد يريدك ، وتقول لنفسك « إنهما معا » فيؤلمك هذا ويتأبى عليك النوم ، وأنت طوال الوقت تحمل هذا بين ضلوعك ، وتنظر إليهما حين يكونان معا فتبتسم ، ولكن قلبك ينزف . ويمضى يوم وراء يوم وأنت طوال الوقت على هذه الحال . . هذا هو الألم ياالجزوما . الألم الذى أحمله بين جوانحى منذ شهور » .

وبعنف انتزعت من الأرض حزمة من عشب وطوحت بها بعيدا . كان ثمة دنيا من المرارة فى هذه الحركة . ولفترة طويلة ساد بينهما صمت عقب ذلك . وأدارت عينيها عن الضوء الوامض البعيد والتفتت إليه وقالت فى صوتها الهادئ المبحوح الواقعى :

– كنت أعرف أن حبكما سينتهى . عرفت ذلك تماما ، لأن هذا هو حال اليزا . إنها ترغب فى أشياء لا ندركها نحن ولا نفهمها . وانتظرت . والآن انتهى الأمر ولكنى لست سعيدة . ربما يرجع السبب فى ذلك إلى أنى أعرف الآن أنها تحبك حقا بنفس قدر حبك لها . لا أدرى . . ربما يكون الأمر كذلك ، لكنى لست الآن سعيدة ، لقد ظننت أنى سأسعد حين تهجرك وتعود أنت إلى . ولكنى لست سعيدة . .

ونظرت إليه فأطالت النظر بعض الشيء . ووسط الظلام ظن اجزوما أنه رأى شبح ابتسامة على شفتيها ، ثم انهارت ميزى فجأة ، وأخفت وجهها بيديها وبكت فى مرارة . وهز جسدها نشيج مفرط عاصفق وراحت شفتاها تقطران الألم والعذاب ، واختلطت ببكائها كلمات خففت من حدتها الأرض الطيبة والعشب الأخضر المزهر .

ونهض اجزوما ونظر إليها . لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا . ولم يكن بمقدوره أن يقول شيئا ، بل إنه لم يكن حتى قادرا على لمسها . كل ما استطاع أن يفعله هو أن يتطلع إليها ويصغى إلى الألم المنبعث من صوتها ، لم يكن بمقدوره أن يساعدها .

وهناك فى الأفق البعيد كان الضوء الواهن يومض فى خفوت . وكان القمر الوليد ساطعًا كعهده دائما ، وزاد من حدة هدوء الليل طنين المدينة الخفيض ، وكانت النجوم فى مواقعها ، وكانت الدنيا على خير مايرام .

ثم أخذ نشيج ميزى يختفى رويدا رويدا ، وراح لهاثها يخفت ، وبدأ تنفسها ينتظم . وأخيرا استلقت منهوكة القوى متعبة ، تتنفس بيسر واستواء . لقد هزتها العاصفة حتى الأعماق . ثم مرت ، وها هى الآن راقدة تستريح . لقد عاد الزمن ، ورجعت الدنيا .

وظلت ميزى راقدة فترة طويلة ، عيناها مغمضتان ، تتلمس أصابعها أطراف العشب الحادة ، ثم جلست أخيرا وجففت عينيها ، وأشعل اجزوما سيجارة وأخذ نفسا عميقًا .

وقالت ميزى : « يجب أن نعود » ونهضت واقفة .

وسارا عائدين فى تمهل دون أن يتفوه أحدهما بكلمة ، وأمسكت ميزى بيده ، وكانت كعهدها دائما . وكان الوقت متأخرا والشوارع خالية . وحين وصلا إلى مكان لياه كان آخر الزبائن يغادرونه ، وكانت لياه فى الفناء تحادث الأم بلانك والمرأتين اللتين ستساعدان فى إخراج الصفائح .

وقالت لياه وهى تربت على ظهر اجزوما : « هاهما البنتان اللتان ستساعداننا . سأحدد الأماكن ، وتقومون أنتم بالحفر » .

وانتظروا إلى أن انتهت لياه من تحديد الأمكنة ، وكانت خمسة . وعينت لكل منهم مكانه ، وشرحت لهم كيف يجرى الحفر .

- وأنت أيتها الأم بلانك ستقومين فى الخارج بالمراقبة .

واتجهت الأم بلانك إلى البوابة .

وأحضرت لياه مجارف قصيرة اليد ونادت : « أسرعوا الآن » وبدأت تحفر .

كانت صفيحة اجزوما التى تمتلئ إلى منتصفها بالجعة أول صفيحة يتم رفعها ، وكانت التالية صفيحة لياه . ودعت ميزى اجزوما ليعينها على رفع صفيحتها ، وأخرجت المرأتان صفيحتهما ، هذه الصفائح ، ثلاث منها كانت فارغة ، وواحدة تمتلئ إلى منتصفها ، وواحدة مليئة بالكامل .

وقالت لياه : « علينا الآن أن نبعد هذه الصفائح » .

وفجأة امتلأ الفناء بأناس . . أناس جاءوا من كل مكان . عدا

البوابة . وأضيئت المشاعل وشاع الاضطراب لحظة من زمن . وسلط ضوء بطارية بالكامل على وجه ليـاه ، التى حدقت فى الضوء الساطع دون أن تطرف عيناها .

وقال صوت رجل أبيض فى رقة : « أهلا ياليا‌ه » .

فقالت لياه : « أبعد هذا الضوء عنى » .

وأطفأ الثعلب بطاريته وقال : « وأخيرا وقعت فى يدى ياليا‌ه » .

وابتسمت ليـاه ابتسـامتهـا السـاخرة وانتصب كتفـاهـا وقالت : « أجل .. لقد أمسكت بى » .

– فلندخل إلى البيت ياليا‌ه .. أريد أن أراك وأرى أصدقائك .

وقادت لياه خطاهم ، وتبعها الثعلب . ورافق الآخرين شرطى ، وقام شرطيـان بحراسة الصفائح الخمـس . وتطلع الثعلب إلى الوجوه من حوله فتعرف على اجزوما .

– أهلا يااجزوما .

لكن اجزوما بقى صامتًا ، فنظر الثعلب إلى لياه ، وكان فى عينه إعجاب بها حين رأى رباطة جأشها وابتسـامتها الساخرة المرتسمة على ناحية من وجهها .

– لقد نصبت فخًا ياليا‌ه .. وسقط الفأر فى المصيدة ، ويالها من سقطة ! لقد حصلت على ما يكفى لسجنك ستة أشهر ياليا‌ه .

وسألته لياه : « وكيف نصبت فخك ؟ » .

وابتسم الثعلب ابتسامة ودية .

- لم يش بك أحد ، كنت أعلم أن شخصا ما يبلغك بخططنا ، ولذلك وضعت خططا مضللة . خطـطت ألا نأتى الليلة بل بعد ظهر الغد ، وأبـلغك بذلك صديقك ، لكننا أخطـأنا وأتينا الليلة بدلا من الغد ، ومنذ ساعتين ونحن فوق الأسطح .

فقالت لياه : « هذا ذكاء منك » .

- إننى الثعلب .

وأومـأت لياه : « ثـمة شيء واحـد يا ثعلب . هؤلاء الآخـرون كانوا ينفذون مـا أمرتهم به ، وأريدك أن تدعهم لحال سـبيلهم . إنك إنسان ، ولو كنت صديقا لى لفعلت ما طلبته منك . لقد كنت تطلبنى أنا ، وها أنت قد نلتنى ، فدع الآخرين » .

فسأل الثعلب : « من كان ينقل إليك الأخبار ؟ » .

فهزت لياه رأسها ، وابتسـم الثعلب ورأت لياه الإعجاب باديا فى عينيه ، وأومأ هو برأسه .

- أو يمكنهم أن ينصرفوا ؟ .

- نعم يالياه . . . يمكنهم أن ينصرفوا .

- شكرا لك ، أنت إنسان طيب .

- وأنت امرأة طيبة يالياه . . هل أنت مستعدة ؟ .

- أمهلنى قليلا .

- على ألا تطيلى ، فالوقت متأخر وزوجتى فى انتظارى .

وأومأت لياه والتفتت إلى اجزوما : « ناد الأم بلانك » .

وخرج اجزوما ثم عاد مع الأم بلانك بعد بضع دقائق ، واستوعبت المرأة العجوز الموقف كاملا فى لمحة خاطفة ، ثم تطلعت إلى لياه ، وابتسمت لياه ، وبدت فى عينى المرأة العجوز ومضة تنم عن الفهم . لقد أدركت هاتان المرأتان تماما ما حدث ، فى حين صدم الآخرون ، وأراحت لياه يدها على كتف المرأة العجوز .

- سوف يتم ترحيلى حوالى ستة شهور أيتها الأم بلانك . بيعى كل شىء واحتفظى بالنقود ، احتفظى بها مع النقود الأخرى ، سوف نكون فى حاجة إلى بيت جديد حينما أعود ، هيه ؟ . وانتبهى . . لا تضيعى النقود على المحامين . . مفهوم ؟ .

ونظرت لياه إلى ميزى ، وشعاع من ورقة ينبعث من عينها . لقد كانت لياه أقوى وأهدأ شخص فى الغرفة . . ثابتة وقوية وصلبة .

- وداعا ياميزى . . كونى فتاة طيبة . . اعتنى بالأم بلانك ، فهى تشيخ ، وكبار السن فى حاجة إلى رعاية .

وارتجفت ذقن ميزى ، وسقطت من عينيها دمعتان ، لكنها ابتسمت ، وأومأت بقوة .

وقالت لياه لاجزوما : « حسن يااجزوما ياقادما من الشمال » . . وكان صوتها لطيفا يتسم بالمزاح « حسن . . المصائب لا تأتى فرادى . . هيه ؟ » .

فقال اجزوما : « سآتى معك » .

وهزت لياه رأسها « لا يا اجزوما . أنا ذاهبة وحدى . . أريد أن أذهب وحدى . يؤسفنى أن كل الأشياء وقعت معا . بدأت بدادى ، ثم باليزا والآن هذا . هكذا الحياة دوما ، سوف أشعر بالقلق عليك لأنك بالنسبة لى ابن كبير ، والابن دائما عزيز على قلب الأم . . هيه ؟ » .

ومدت إليه يدها . . يد قوية قادرة . وسلم عليها اجزوما فشعر بقوة قبضتها .

وعادت الأم بلانك بشال من غرفة لياه وألقته على كتفيها . والتفتت لياه إلى الشرطى وقد ارتفع حاجبها الأيسر وارتسمت على جانب وجهها الابتسامة الساخرة : « أنا مستعدة يا ثعلب » .

وتنحى الثعلب جانبا ، فمرت لياه أمامه .

وهمس الثعلب : « أنا آسف » .

فقالت لياه : « إنك أحمق » ، وضحكت باستخفاف ، وكأن رأسها ملقى إلى وراء ، وكتفيها معتدلتان ، ومشت فى قوة تتسم

بالاطمئنان والثقة . إنها لياه . . لياه القوية .

وراقبها الآخرون إلى أن دار الموكب حول المنعطف واختفى عن الأنظار .

وبعد وقت طويل من انصرافهم ، كان اجزوما لا يزال يرى بسمة لياه الساخرة على شفتيها ، ويسمع الضحكة المستخفة التى كانت آخر صوت سمعه منها . لقد رحلت اليزا . . ولا وجود الآن للياه .

- ١٥ -

ضوء النهار يعقب ظلام الليل ، وظلام الليل يعقب ضوء النهار. أما الأيـام ، فقد راحـت تمضى وتكر على هذا المنوال ، وفقـد الزمن معناه ، وكل شيء كان وهمـا . وفيـما وراء ذلك الوهم . . كـانت السـمـاء ، وكـانت الأرض ، وكـان الناس . . وكـان تناول الطعـام والعـمل والنوم واحتـساء الشـراب . والناس هم الناس أنفسـهم . . يتعاركون ويتقاتلـون ويضحكون ويحبون . ويبـدو الأمر وكـأن الدنيـا لا تأبه بالناس ، والناس لا يأبهون بها بالمثل . وهذه الأرض الضخمة التى قيل أنهـا مستديرة كـالكرة ، ظلت ماضية فى مـسارها . رحلت اليــزا ، وهــى لا تزال تدور ، ومــات دادى وهــى لا تزال تدور ، ودخلت ليـاه السجن ، وهى لا تزال تدور . كيـف يحدث هذا ؟ . ولماذا يحدث ؟ . ومن ذلك الذى يعنى بالناس ويهتم بهم ؟ .

وتوقف اجزوما وأشعل سيجارة ، وطوح بعود الثقاب وتطلع إلى القمر ، وكان القمر مستديرا وكـبيرا ويمضى مسرعا تجاه الغرب . ولم يكن الصبح ببعيد . وكان قد غادر المناجم لتوه ، وحاول أن يفكر فى عملـه ، لكن عقله كـان مشدودا إلى ليـاه . لقد ذهب إلى المحـكمة عندما نظرت قضيـتها ، وكانت تقف فى مقصورة صغـيرة وضع فيها كل المساجين ، وابتـسمت له ، وكانت عـيناها وديعتين ودودتين ، ثم قال لها الرجل الأبيض أنهـا لابد أن تسجن تسعة شهـور . . ووضعوا صورتهـا فى صحـيفـة الرجل الأبيض . وخارج المحكمـة راح شاب

يحكي لكل واحد أن الرجل الأبيض يبيع الجعـة وغيرها من مشروبات ولا يذهب إلى السجن . وقال إن السبيل الوحـيد لمنع الحانات المحرمة هو فتح مشارب للسود .

لم يكون الأمر خطأ فيما لو باعت لياه جعة ، ويكون صوابا فيما لو قام الأبيض بذلك ؟ .

منذ ليل ذلك السبت ، حين هبطت لياه الشـارع يحيط بها رجال الشرطة ، فقد اجزوما كل ما لـديه من إحساس . . الإحساس الوحيد الذى بقى كـان هو التعب . . التـعب وكثيـر من الأسئلة التـى كانت مصـدر توتر لعقله ، لأنه لم يكن قـادرا على أن يجد لهـا إجابات . والنوم أيضا كـان عسـيرا ، لأن تعب جسـده كان عليـه أن يقاوم قلق عقله . لقد بدا الأمر وكأن اجزوما الحقيقى مات ولم يبق سوى قوقعة فارغة . وكان ثمة إحســاس ، ولكنه كان وكأنه إحساس رجل غريب لأنه لم يكن يؤلم . وهو لم يعـد يشعـر بالألم ، ولم يعد فى حـلقه غصـة ، ولم يكن قلبه يدق في عنـف ، وكان بإمكانه أن يبـتسم فى يسر . وكان يقـوم بكل الأشياء العادية التي تعلم أن يـقوم بها منذ أن جاء إلـى المدينة . لقد بدا كل شيء تمامـا كمـا كان من قـبل . لكن تراءى له كمـا لو أن شخصا آخـر هو الذى يطل عليها ويقـوم بأدائها ويفكر فيـها . لقد ضـاع شيء ما . شيء كان مـوجودا طوال الوقت داخل نفسه وهو الآن غير موجود .

وكانت الأم بلانك ومـيزى تجيـئان إلى غرفتـه ليقضـيا له بعض حاجاته ، ويحاولان التسـرية عنه ، لكنه لم يكن بحاجة إلى تسرية .

لم يكن تعسا . كانت المسألة فحسب أنه يشق عليه مجرد الكلام مع الأم بلانك أو مع ميزى ، لكنهما لم يفهما ذلك . كل مادار برأسهما أنه تعيس . وكان يتمنى ألا يجيئا إلى غرفته ، ولكن لو أنه طلب ذلك منهما لتسبب فى كثير من المشكلات ، ولهذا تغاضى عن ذلك ، فكانتا تجيئان إليه ، وكانتا تحاولان الحديث معه ، بيد أنه لم يكن ثمة شىء يمكن أن يقال ، ثم توقفتا عن المجىء بعد فترة من الوقت . وفى آخر مرة كانت فيها ميزى عنده فى غرفته وقفت بالباب وقالت له : « حين تريدينى تعال إلى فى مكان عملى ، والأم بلانك موجودة معى ، ولسوف نسعد لرؤيتك » ثم مضت . وكان ذلك منذ أيام كثيرة . . .

وامتص اجزوما دخان سيجارته وراح يراقب سرعة القمر . ثم ركل كتلة من التراب وجلس على الأرض .

غريب أن تغير كل شىء دون وجود لياه ، فالنهار يكر نحو الليل ، والليل يكر نحو النهار . وتمضى الأيام كلها رتيبة ومنغصة بصورة مفزعة . وكان يحس وكأنه غريب فى مكان غريب . وفكر فى الليلة التى ذهب فيها إلى البيت الذى كان يومًا ما بيت لياه . لقد ترك غرفته وراح يمشى على مهل . وكان الناس يحبونه لأنه أصبح من مواطنى مالاى كامب ، وبان ذلك فى عيونهم . وكان يعلم أنهم يعرفون أمر اليزا ، لأنه من العادات الغريبة ألا يدرى أحد أن أهالى فريديدورب ومالاى كامب لابد وأن يعرفوا كل شىء عن كل واحد آخر . فعندما كان يمر بهم فى بعض الأايين يقول واحد لآخر :

« هذا اجزوما الذى يعمل فى المناجم ، هجرته خليلتـه . ولياه القوية التى أحبها كمـا يحب طفل أمه ملقاة فى السجن . وكل هذا وقع فى وقت واحد » .

لقد حـدث ذلك فى تلك الليلة التى كان فيـها يتمـشى فى نهاية الشارع مـتمهـلا . لقد انعطف يسـارا ثم يمينا ثم يسارا مـرة أخرى . وكان الناس حوله فى كل مكان . ثم تحول متمهلا صاعدا الطريق إلى حيث كـانت تسكن لياه . وكان الـشارع هو نفس الشارع ، والبـيوت هى نفس البيوت . . كل شىء كان كما هو . ثم شاهد البيت ، نفس البيت . وكاد أن يرى الأم بلانك واقفة بالـبوابة ، ولياه تميل بجسدها تطل على الشرفـة ، ودادى مخمورا فى الشـارع . وكاد أن يرى اليزا واقفة بجوار لياه تبتسم ، بحيث بانت غمازتاها ولمعت أسنانها البيضاء الجميلـة . كاد يسمع ضحكة مـيزى التى تتسم بالبهـجة ، ويرى لينا الضئيلة النحـيلة وهى ترهق جوهانز الضخم المغمـور . وفجأة تلاشى الوهم ؛ فقد خرجت امـرأة إلى الشرفة ووقفت فيها ، كـانت قصيرة وبدينة ، بل تكاد تكون مستديرة . لم تكن طويلة قـوية ومتينة البنيان كلياه . وانضم إليهـا رجل به عرج بسيط ، فمـا كان منه إلا أن أشاح بوجهه سريعا وابتعد . آلمه أن يرى البيت الذى كان يوما بيت لياه صار بيتا لغرباء . غرباء يعيشون فـيه ويضحكون وينامون ويتحادثون . كان شيئـا مؤلما لأن البيت كان يعنى له الشىء الكثيـر . فهو أول بيت بات فيه حين قـدم إلى المدينة . وأول بيت كون فيه أصـدقاء ، وهو البيت الذى عثر فيه على اليزا ، والـتى فيه ،ولدت ، والذى عاش فيه دادى

والأم بلانك مع لياه . . لقد كان بيت لياه .

وابتسم اجـزوما فى مرارة والتـقط حفنة من رمل . وكان القـمر يرتحل سريعا والنجوم تذوى . . إنه يوم يسرع فى الرحيل .

وسمع وقع حذاء طويل الساق بنعله مسامـير فوق أرض مفروشة بالحصى ، فرفع بصره ، وإذا برجل قادم نحوه . وكان رجلا ضخما، لكنه كـان شديد البـعـد ، فلم يتمـكن من رؤيته بوضـوح ، وراقب اجزوما وانتظر ، وحين دنا الرجل أدرك أنه الأحمر .

وصاح بادى : « أنت هنا يازوما ! » .

ورد اجزوما وانتظر . . وصعد بادى وارتمى بجواره على الأرض . وأخرج علبة سجاير ناولها لاجزوما بعد أن أخذ منها واحدة . وأشعل كل منهما سيـجارته . ونظر اجزوما إلى الرجل الأبيض فى انتظار أن يبدأ الحـديث . غير أن بـادى بقى صامتـا يتطلع إلى السمـاء ويشاهد القمر . وأخيرا سأله اجزوما :

– ما هى الحكاية ؟ .

فـقـال بادى : « من الصـعب أن أتكلم . ذلك أنه حين يصـاب إنسان بعلة فـى بدنه تقول « بهذا الرجل هذه العـلة » وتقول له اذهـب إلى الطبيب ، وسيعطيك الطبيب دواء ويقول لك « خذ هذا عدةمرات فى اليوم ، ولسوف تتحسن » « هيه ؟ » .

– تمام .

– حـسن . . هذا وضع ، لكـن يوجـد الآن وضع آخـر ، وربما

استطعت أن تخمنه . فلو أن إنسانا أصابه اعتلال فى التفكير ، فماذا عليه أن يفعل ؟ . إنه لا يستطيع الذهاب إلى طبيب .

فقال اجزوما وهو يتطلع إلى القمر : « عليه أن يتحمله » .

- ليست هذه هى الحكمة التى علمك إياها أسلافك .

- كان ذلك قبل مجىء الرجل الأبيض ؟ .

- والآن وبعد أن جاء الرجل الأبيض ؟ .

- لا يوجد ما يمكن عمله .

- ولا حتى يكافح ؟ .

- كيف يمكنك مكافحة المدافع وأنت صفر اليدين ؟ .

- أسأت فهمى يازوما ، إنه ليس ذلك النوع من الكفاح ، يوجد سبيل آخر .

- فما هو ؟ .

- عليك بالبحث عنه يازوما . ويجب أن يتولد من مشاعرك ومن آلامك ، لقد عثر عليه آخرون ، وأنت أيضا تستطيع . ولكن عليك أولاً أن تفكر وألا تخشى أفكارك . وإذا ما كان لديك استفسارات وتلفت حولك ، فستجد من يرد على استفساراتك . ولكن عليك أولا أن تعرف ما الذى ستكافحه ولماذا وماذا تريد .

- لماذا تتكلم معى على هذا النحو أيها الرجل الأبيض ؟ .

- لأننى أولاً إنسـان مثلك يـازوما ، ورجل أبيض بعـد ذلك . ولقد أدركت علة عـقلك ، فأنا أعمل مـعك كل يوم ، وقد لاحظت علتك وفهمتها .

وأدار اجزومـا بصره تجاه بادى وحدق فـيه : « أنت تقـول إنك فاهم أيها الرجل الأبيض » .

وأومأ بادى برأسه .

- وتقول إننى يجب أن أتحدث عما فى قلبى ؟ .

وأومأ بادى ثانية . فأشاح اجـزوما عنه بوجهه وصمت . وانتظر بادى ، وكان القمر بـعيدا ناحية الغرب ، والنجوم تشـاهد بصعوبة . وبدا الرجلان الأسود والأبيض وكـأنهما رجلان وحـيدان فى العالم . ليس من حولهما دلالة أخرى من دلالات الحيـاة . وعلى مسافة بعيدة كانا يسـتطيعان رؤية كـثبان المنجم ترتفع نحـو السماء ، وفى الناحـية المقابلـة كانا يريان بنايات جـوهانسبـرج العالية ، وسـاد السكون هواء الصباح المعتدل ، وبدا العالم وكأنه يحبس أنفاسه .

وقال اجزوما : « تقـول إنك فاهم ، ولكن كيف يتأتى لك ذلك وأنت رجل أبيض ؟ . إنك لا تحـمل جواز مرور ، ولا تعـرف كيف يشعـر المرء حين يستـوقفـه شرطى فى الشـارع . أنت تذهب إلى أى مكـان تشاء ، ولا تدرى كيف يكـون شعور المـرأ حين يقال لـه : « ابتعد ! للبيض فقط » . هل هجـرتك خليلتك لأنها مجنونة بالرغبة فى نفس الأشيـاد التى يمتلكها الرجل الأبيض ؟ . هل عـرفت لياه ؟ هـل أحببتها ؟ . هل تعرف مدى شعور المرء حين يراها ذاهبة لتسجن تسعـة شهور ؟ . هـل عرفت بيت لياه ؟ . هل دخلـت بك إليه فى

منتصف الليل ؟ » . وهنا علا صوته : « هل تحدثت لياه إليك وضحكت معك ضحكتها الساخرة التى ترتسم على ناحية من وجهها ؟ . تقول إنك فاهم . . هل تحس بهذه الأمور كما أحسها أنا ؟ . كيف يمكنك أن تعى أيها الرجل الأبيض ؟ . أنت تعى بعقلك ، وأنا أعى عن طريق الألم ، الألم الذى يحمله قلبى . وهذا هو الوعى ، وعى القلب وألم الوعى ، وليس الرأس والشفاه فقط . إننى أحس بأشياء ! . وأنت تريدنى أن أكون صديقا لك ، فكيف يتم ذلك وقومك يفعلون هذا بقومى ؟ . » ونهض اجزوما واقفا .

- ما تقوله صحيح يازوما ، هذه الزمور لم تقع لى ، ولهذا أنا لا أحسها . ولكن أجبنى عن هذا . . هل تظن أن الأسود يمكنه أن يحس بهذه الأمور إن لم تحدث له ؟ هل كان لدى جوهانز نفس المشاعر تجاه لياه وتجاه اليزا ؟ . إنه لم يحب اليزا ، وربما يشعر بالأسى لك لأنك صديقه . ولكن هل يشعر باليزا كما شعرت أنت بها ؟ . أجبنى .

- جوهانز أسود مثلى ، وهو يعلم أن اليزا هجرتنى بسبب الرجل الأبيض ، وهو يعلم أن لياه فى السجن بسبب ذلك ، وحين يكون مفيقا يمتلئ قلبه بتعاسة شديدة لأنه حينئذ يعى كل هذه الأمور .

- بقلبى دائما تعاسة شديدة .

- ولكنك أبيض .

- إننى إنسان أولا ، وأريدك أن تكون إنسانا أولا قبل أن تكون أسود .

- إننى أسود ، وقومى سود ، وأنا أحبهم .

- هذا شىء طيب . . شىء طيب أن يحب المرء قومه وألا يشعر بالخزى مما هم عليه . ولكن ليس من الصالح أن تفكر فقط كرجل أسود أو كرجل أبيض . البيض فى هذا البلد يفكرون فقط كأناس بيض ، وهذا هو السبب فى هذه الإساءة التى يرتكبونها فى حق قومك .

- إذن يجب أن أفكر تفكير رجل أسود .

- كلا . يجب أن تفكر بوصفك إنسانا أولا ، يجب أن تكون إنسانا فى المقام الأول ثم رجلا أسود بعد ذلك ، ولو تم ذلك فستفهم كرجل أسود وأيضا كرجل أبيض . هذا هو النهج السليم ياروما . وحين تدرك ذلك ، سوف تكون إنسانا تشيع الحرية فى نفسك . وهؤلاء الذين تتحرر نفوسهم هم وحدهم القادرون على تحرير من حولهم .

وهز اجزوما رأسه وحدق بعيدا تجاه الشرق . وكانت أولى أشعة شمس الصباح تنعكس على صفحة السماد . . خطوطاً ساطعة من ورائها زرقة . لقد قال الحقيقة للرجل الأبيض ، وتوقع أن يغضب منه ، بل إنه ظن أن الرجل إنسانا صالحا وكان شفوقا . ونظر إليه اجزوما وقال :

- أنت شفوق ياأحمر ، وهذا شىء جميل . ولو أن كثيرا من الناس ليسوا كذلك . ولهذا فإنه من الخير أن نجد أناسا يشعرون بالشفقة علينا . وإن لم تكن الشفقة هى ما أعنيها .

فقال بادى ورنة غضب فى صوته : « ليست الشفقة هى ما أعرضها . لقد ظننت أنك تريد أن تفهم أشياء . ربما كنت مخطئا ، وربما كان من الواجب أن أكون قد ذهبت إلى فراشى . وربما تكون على قدر كبير من البلاهة بحيث تخشى أن تفكر ! » ثم وثب واقفا ومضى .

وشاهده اجزوما وهو يغادر . ومست شفتيه ظلال ابتسامة وصاح قائلا : « نوما هنيئا ياأحمر » . وكان فى صوته ود ، وراح يرقبه إلى أن اعتلى قمة تل صغير واختفى عن البصر . عندئذ استدار اجزوما وسار فى اتجاه ملاى كامب .

وذكره غضب الرجل الأحمر بلياه . لقد كانت تحادثه بمثل هذا النوع من الغضب ، وكان أمرًا غريبا أن يحدث نفس الشىء من شخص أبيض كذلك . وأخذ يفكر فى كلام بادى ، يقلب فيه الأمر ، يمحصه . لكى تكون إنسانا فى المقام الأول ، فكر أولا كإنسان أسود . كيف يمكن أن يتأتى ذلك ؟ . إنه سوف يعنى أن الناس يكونون بلا لون . ولكن الناس ليسوا بلا لون ؟ . ولكنها فكرة لطيفة . . أجل . . لطيفة جدا . لا أبيض ولا أسود . . ناس وحسب . ياسلام ! لو كان الأمر كذلك لاستطاع حينئذ أن يذهب إلى أى مكان ولن يعترض سبيله أحد من أجل جواز المرور ، ولظلت اليزا معه . ولو كان الأمر كذلك لحصل على نفس النقود التى يحصل عليها الرجل الأحمر ، ولسوف يركب نفس الأوتوبيسات التى يركبها البيض . هى الواقع هى فكرة لطيفة ! ولو كان الأمر كذلك فلسوف يشعر بإنسانيته . . مثلما يشعر الإنسان . . هذا ما قاله الرجل الأحمر ! كإنسان ! . ليس إنسانا أسود وليس إنسانا أبيض . . مجرد إنسان ، ولن تكون لياه فى السجن ! .

لو كان الأمر كـذلك لكان الآن فى طريقه إلى مكان لياه - لا ، سيكونون نائمين . لا ، ليس إلى مكان لياه ، بل إلى غرفته لينام إلى أن تصل اليـزا من المدرسـة ، وسوف تـكون فى وسط الغـرفة نيـران وشواء لحم . . ثم يذهبان فـيما بعد إلى مكان ليـاه . . لو كان الأمر كذلك لكانت اليزا معه ولكـانت سعيدة دون ذلك الجنون . . فقط لو كان الأمر كذلك . .

ومشى خلال الشوارع الخاليـة يملأ الطنين رأسه ، والصور تتسلّل إلى ذهنه ، صورة وراء صورة . وأحس أنه خال من الهموم ، حر ، مبـتهج . الناس هم الناس ، لابيض ولاسود ، مـجرد أناس ، أناس عـاديين ، ويسـتطيـع الواحـد أن يفـهم الشـخص الأبيض وكـذلك الشـخص الأسود ، ويـأسى للأبيض كمـا يأسى للأسـود . وتوارى استيـاؤه الذى يكنه ضد كل البيض ، فـلا يوجد أناس بيض . . وإنما أناس فقط .

وحمله الـتخيل بعـيدا ، فـقد رأى نفـسه واليزا وبادى وخلـيلته جالسين جمـيعا إلى منضدة صغـيرة فى أحد مشارب الشاى الصـغيرة تلك فى قلب جوهانسبرج ، يحتـسون الشاى ويضحكون ويسمرون ، ومن حولهم أناس آخرون كلهم سـعداء وبلا لون . وقد ساد ذلك فى كل مكان فى الـبلد . . وفى المزارع كـان الأمـر كـذلك . . . الناس يعملون جنبًا إلى جنب ، والتربة بهيجة وغنية وتنتج محصولاً وفيرا ، وثمة طعام لكل فرد وعـمل لكل إنسان ، وغناء وقت العمل وضحك كثـير . والمدن أيضـا يسرى فيـها ذلك ، الناس يعـملون ، يأكلون ،

سعداء . وآه من الضحك ! إنه يكون أشبه بموجة ضخمة تعم البلاد ، وقد التمعت معه كل عيون الناس وهم يعملون تحت أشعة الشمس . . وكان فى الشمس سطوع جديد .

ووصل اجزوما إلى غرفته وخلع ملابسه دون أن يلتفت إلى شىء . . لقد كان قبل كل شىء إنسانا . إنسانًا متفردًا ، قويًا ، حرًا ، سعيدًا ، بلا لون . إنسانا مفعما بالحياة ، شامخًا أبيًا إنسان بكل عظمته . وكانت البلد بلدا طيبًا ، وكان العالم عالما جميلاً . . مغمورًا بالضحك مليئاً بالود ، زاخرًا بالطعام موفورًا بالسعادة . . إنه العالم الجميل . . .

واستسلم اجزوما لنوم هانئ . .

ليت الأمر كان كذلك .

- ١٦ -

كان الليل يغمر جوهانسبرج حين استيقظ اجزوما . وكانت غرفته غارقة فى الظلام . وتقلب على ظهره ومد يده إلى الثقاب ليوقد شمعته . ثم عدل عن رأيه ورد يده إلى موضعها ، ورقد ساكنا فى الظلام ، وشعر بخواء معدته ، واضطراب نبضات قلبه ، وبدت دقات قلبه عالية ومزعجة ، وتذكر حديثه مع الأحمر ، وتذكر الحلم الجميل الذى أسلمه إلى النوم .. حلم الإنسان الذى يعيش بلا لون ، والضحك فى كل مكان . كل ذلك كان جميلا جدا وطيبا .. ولكن أيمكن أن يتأتى ؟ . كلا ، لا يمكن . كيف يمكن أن يتحقق ذلك ؟ ولكنه سؤال لا إجابة عنه . الرجل الأبيض لن يسمح به ولهذا لا توجد إجابة .

ويدأ رد الفعل . لقد شعر أنه وحيد وممرور وتعيس ، وأن العالم مكان مظلم ، بل أشد ظلاما مما كان عليه من قبل . لقد كان فيما سبق تعيسا ووحيدا ، ولكن ليس على هذه الصورة . كانت تعاسته من قبل مجرد إحساس . وقد دار الحلم برأسه منذ ذلك الحين .. حلم الإنسان الذى يعيش بلا لون . الآن لديه شىء ما مضاد يثير ألمه وتعاسته بل ويضخمها . شىء كان أكبر بكثير من قدرته على الاحتمال ، وقد ضغط عليه ، فثارت فى صدره موجات من ألم وكراهية ، واتقدت عيناه . أجل ! لقد كره كل البيض وأبغض الرجل الأحمر . فلو لم يتحدث معه الأحمر لما كان هذا حاله الآن . لكن

البغض لـم يخفف من شدة الضـغط على رأسه . بل إنـــه زاد الأمر سوءا ! وكـان يبتـغى شيئـا يخلصه من هذا الضـغط حتى يعـود إليه إحسـاسه الذى كان يتـملكه قبل أن يتكلم مـعه الأحمـر . . أن يعود مجرد إنسان خالى الوفاض ، ودون هذه الأحاسيس بالغة الشدة ، بل أن ذلك كـان أفـضل من الشـعـور الذى ينتـابه الآن . أواه ! كم هو يبغض الرجل الأحمر ! .

ثم عصف به الجوع ، فـأشعل عود ثقاب وأوقد الشـمعة ونهض وارتدى ملابسه . وكان بالغرفة خـبز لكنه لم يكن طازجا ، وكان بها جـريش ذرة ولحم نيئ لكنه لم يكن يريد أن يطهـو . فغـسل وجهـه وخـرج متويا الذهاب إلى مطـعم رخيص بشـارع مجـاور . فى هذا المطعم يطهـون الذباب أحيـانا مع اللحم ، بيـد أنه لم يمت أحد بعـد تناول لحـومهم . ثم أن المـطعم بجانب ذلك حـار وسيكون به أناس كثيرون . ومشى يهبط الشارع .

الناس حواله يتنقلون من مكان إلى مكان ، جماهير متدفقة تموج بالحركة . هكذا الحـال دوما . . قد يرحل شخص بعيـدا كما رحلت اليزا ، أو قـد يموت شخص كـما مـات دادى ، وقد يلقى بآخـر إلى السجن مثلمـا ألقى بلياه ، ولكنّ جماهير الناس دائمـا باقية . . نفس جماهير الناس المغمـورين ، الذين يتنقلون ويمارسون الحياة ويضحكون ويتـقاتلون . لقـد مـات أناس ، ورحل أناس وسجن أناس . . فـرد واحـد . . ربما ، أو مـائة . . ربما . ، ولكنهم كـانوا أفرادا ولـيسـوا جماهيـر الناس ، فالجماهير قـد لا تفنى أبدا ، وربما كانت هى نفس

الجماهير التى وجدت منذ بداية الزمن . ربما لا تفى الجماهير أبدا . وربما توجد فى كل مكان فى العالم جماهير كهذه الجماهير ، وعلى الجانب الآخر من البحر كذلك . فالجماهير دائما تستمر وتدوم وتواصل المسيرة . ويحدث نفس هذا الشىء فى كل مكان . والبيض ؟ . لماذا يجد نفسه يفكر فى البيض ؟ . قد يكونون هم نفس الشىء أيضا . نعم ، ربما يكونون كذلك .

ودخل اجزوما المطعم الرخيص ، وكان حافلا بالناس ، وتلفت هنا وهناك ، فرأى مكانا ظن أنه يستطيع أن ينحشر فيه بعيدا عند الركن ، فراح إليه ، واحتك حذاؤه بنشارة الخشب المفروشة على الأرضية ، وكانت رائحة اللحم الردىء تملأ جو المكان ، واختلطت جلبة الأصوات العالية بالطنين الأعلى لذباب اللحم السمين .

وحشر اجزوما نفسه فى موضع ، وصاح يطلب الطعام . وجاءه رجل مسن فى ثياب قذرة مهلهلة وألقى على المنضدة القذرة طبق لحم يعوم فى صلصة مرقة ، وقطعة كبيرة من خبز . ومد الرجل العجوز يدا ملوثة بالدهن ، فألقى فيها اجزوما شلنا .

وفى أثناء تناوله الطعام راح يعقد مقارنة بين هذا المكان وبين الأمكنة التى يؤمها البيض . البيض ليسوا مضطرين إلى التزاحم فى المكان الذى يذهبون إليه والجلوس فوق بعضهم البعض . لديهم حجرات أوسع ، وليس مجرد حجرة صغيرة . لديهم مطاعم أنيقة فى كل شارع فى المدينة على وجه التقريب .

ومرة أخرى راح يفكر فى العالم الجميل الذى يكون فيه الإنسان بلا لون . لو كان الأمر كذلك ، إذن لاستطاع كل الناس أن يأكلوا فى أماكن نظيفة أنيقة . . أماكن بلا ذباب يحوم حولك طوال الوقت .

وفجأة أحس اجزوما بالوحدة ، وأراد أن يتحدث عنها مع إنسان ما . إنسان قادر على أن يفهمه ، ربما يكون هنا شخص ما . ونظر إلى الرجل الجالس بجواره ، وبدا الرجل لا بأس به ، كل ما فى الأمر أن فمه محشو بالطعام ، وبدا الغضب فى عينيه . وهو يحاول هش الذباب .

وقال اجزوما : « للرجل الأبيض أماكن جيدة لتناول الطعام » لكن الضجيج غطى على صوته .

والتفت الرجل إلى اجزوما : « ماذا ؟ » .

فقال اجزوما : « أماكن جيدة لتناول الطعام ! » .

فصاح الرجل : « ذباب كثير للغاية » .

وتنهد اجزوما . . أراد أن يتكلم مع إنسان ما فى مكان هادئ . مع شخص يمكنه أن يفهم يقول . . فنهض واقفا .

وسأله الرجل : « ذاهب ؟ » .

فأومأ اجزوما برأسه وانصرف .

وفى الخارج وقف يراقب جمهور الناس برهة من الزمن ، وكانت رغبته فى أن يكون فى صحبة أحد مازالت قوية ، سيكون شعوره

أفضل لو استطاع أن يتحدث مع شخص ما عما يدور برأسه . ربما يريحه مجرد التعبير عن أفكاره ببضع كلمات يستمع إليها شخص ما . وكانت ميزى هى الإنسانة التى يود الحديث إليها . ألم يشعر دائما بالطمأنينة حين يكون معها ؟ . نعم ، نعم يجب أن يذهب إليها ويتحدث معها . وساءل نفسه عما راحت تفعله منذ آخر مرة رآها . ربما اتخذت لها صديقا جديدا . لم يكن يدرى سببًا لذلك ، ولكنه كان يحس أنه خطأ ، وأنه لن يكون سعيدا جدا لو حدث ذلك .

وانطلق إلى مكان عمل ميزى . وكلما دنا من المكان اشتد إحساسه بأن لها صديقا جديدا وازداد معه إدراكه أيضا بأن ذلك خطأ، وكانت خطواته وهو يسير تقول : « سيكون ذلك خطأ . . . سيكون ذلك خطأ . . سيكون ذلك خطأ » . وتتكرر العبارة إلى أن راحت الفكرة تطن فى رأسه . وكان همه بأنه لا ينبغى لذلك الأمر أن يتم ، يزداد حثيثا .

هو الآن أوشك أن يكون هناك ، وسيطيب له أن يرى ميزى وكذلك الأم بلانك . فهل ستسر ميزى لرؤياه ؟ . سرورا حقيقيا ؟ . لم تكن ملابسه نظيفة نظافة تامة . لكن لعلها لا ترغب فى رؤيته . وربما لا تكون موجودة هناك . وبأصابعه نفض الغبار عن طيات صدر سترته ، ودس طرف قميصه تحت حزامه بطريقة أكثر إحكاما ، ونظر إلى حذائه فى تبرم . وحين وصل إلى بوابة المكان الذى تعمل فيه ميزى تملكته رجفة مع لهفة ، ونظر إلى البوابة ولعق شفتيه . يجب ألا يظهر قلقه . لابد أن يكون هادئا ، فهذا ما يليق برجولته . وعليه

أن يخبر ميزى أنه ما قام بهذه الزيارة إلا ليتكلم معها فقط فى شىء يقلقه كثيرا . ولكن كيف يتأتى له أن يحكى لها عن أن يكون إنسانا بلا لون ؟ . وحاول جاهدا أن يفكر فى هذا الأمر ولكن تفكيره لم يسعفه بالكلمات التى كانت معدة على طرف لسانه اختفت ، ولم يعد لها وجود بعد ، فما كان منه إلا أن استدار وعاد أدراجه إلى مالاى كامب . إنه لم يكن ليستطيع أن يتكلم مع ميزى ، ،وربما كانت ميزى نفسها لا تود أن يتكلم معها . وربما لم تكن لتفهمه .

لقد أحسن صنعا بعدم ذهابه إليها ، ولسوف يعود إلى غرفته ويبدل ملابسه بملابس العمل ويستلقى على فراشه ويفكر إلى أن يحين وقت عودته إلى العمل . . .

***

حين وصل اجزوما إلى المناجم كان هناك اضطراب فى كل مكان . فقد اشتعل فى كل مكان عدد وافر من الأضواء ، وحيته أصوات مرتبكة . وانطلقت صفارات ، وتحركت جماعات صغيرة من الرجال هنا وهناك . فشق اجزوما طريقه بين الرجال ورأى بعضا منهم ممن يتبعون مجموعة جوهانز . وبعيدا وفى طليعة الناس رأى الرجل الأحمر . لابد وأن حادثا وقع . وأمسك برجل قريب منه وهزه .

- ما الحكاية ؟ .

فقال الرجل : « وقع حادث » .

- أين جوهانز ؟ .

- لا أدرى .

فقال رجل آخر : « جوهانز تحت » .

وشق اجزوما طريقه حتى وقف بجانب بادى ، فأمسك بادى بيده .

- جوهانز وكريس تحت ، وأنا سأهبط .

فقال اجزوما : « سأهبط معك » .

فقال رجل أبيض آخر : « خطر » .

وقال المدير : « انتظرا المهندسين قبل أن تهبطا » .

فقال بادى : « ثمة رجلان تحت » وتحرك تجاه المصعد الصغير يتبعه اجزوما ودخلاه ، فانطلق هابطا إلى أسفل .

ووصلت سيارة إسعاف ووقف بجوارها رجال يحملون نقالات . ووقف طبيبان يترقبان ، وخيم صمت على حشد الرجال المنتظرين ، وظل مدير المنجم يتطلع إلى ساعته ، وكان الوقت يزحف بطيئا . خمس دقائق . . عشر . . خمس عشرة . . عشرون دقيقة .

ثم سمعوا المصعد يعلو قادما . وساد صمت مطبق حين خطا اجزوما خارج المصعد يحمل جثمان جوهانز ، يليه بادى ومعه جثمان كريس . وفحص الطبيبان كريس وجوهانز . . وكانا قد فارقا الحياة .

وصرخ واحد من عمال المنجم : « لقد حالا بجسديهما دون انهيار المكان حتى نتمكن من الخروج » ثم راح ينشج بالبكاء . لكن أحدا لم يلتفت إليه .

ووُضع الجسدان كلاهما فى سيارة الإسعاف فانطلقت بهما . وخف التوتر الذى يسود الجو . . وهبط مهندسان إلى المنجم لفحص التلف . وطبق الصمت على الحشد المنتظر من الرجال . .

ومرة أخرى كان الوقت يزحف بطيئا . وقدم بادى سيجارة إلى اجزوما . ثم صعد المهندسان .

وقال المدير : « خيرا ؟ » .

فقال أحد المهندسين : « كان انهيار بسيطا ، وهو الآن على مايرام . دلفت العوارض بشدة ، وهوت عند موضع واحد . لقد انهارت . ليس ثمة شىء خطير . . ولو حمى هذا الشخصان رأسيهما وبقيا حيث كانا بدلاً من ذعرهما ومحاولتهما الإبقاء على المكان مفتوحا بجسديهما لكان كل شىء على مايرام ، وعلى أية حال المكان الآن لا بأس به بالنسبة للعمل ، مجرد قدر قليل من الترتيب ووضع دعامات جديدة . ويمكن للنوبة الجديدة أن تقوم بذلك » .

ونظر المدير إلى المهندس الثانى الذى أومأ موافقا وقال : « لقد فقدَا حياتهما بسبب الرعب » .

فأمسك بادى بتلابيب الرجل ،وبلكمة أسقطه على الأرض وقال : « لقد كانا يسهران على رجالهما . ونحن حذرناك من هذا الأمر منذ فترة طويلة » .

وحجز الناس بين بادى والمهندس الذى هوى على الأرض .

وصاح المدير : « حسن ! حسن ! المنجم على مايرام . نوبة الليل . . أستعدوا للهبوط ! » .

فصاح اجزوما : « لا ! . لا ! » .

فصرخ المدير : « استعدوا ! .

فصاح اجزوما : « دعهم يرممون المكان أولا . . لقد نبهناهم إليه ، فقالوا إنه على ما يرام . والآن مات رجلان ! رجلان من خيرة الرجال ! دعهم يرممونه أولا ، ثم نهبط بعد ذلك » .

ونظر المدير إلى اجزوما ثم إلى بقية عمال المنجم وصرخ ثانية « استعدوا ! » .

وصاح صوت : « كلا . رممه أولا ! » .

وشعر اجزوما فجأة بالارتياح . شعر بالقوة والحرية . شعر أنه إنسان .

وصاح : « نحن بشر . لا يهم أن يكون لون جلودنا أسود ! لسنا قطيعا نبدد أرواحنا هباء ! نحن بشر » .

فقال المدير صائحا : « هذا إضراب » وأشار إلى اجزوما وصرخ : « سوف تذهب إلى السجن ! .

لقد أستدعيت رجال الشرطة ! وسيكونون هنا حالا » .

وصاح أحد الرجال : « لن نهبط يا اجزوما ولو طلبت أنت ذلك » .

وأحس اجزوما أنه أقوى من أى وقت مضى . أحس أنه قوى

بدرجة تؤهل لأن يكون إنسانا بلا لون . وقد أدرك الآن فجأة أن ذلك يمكن أن يتحقق . يمكن للإنسان أن يكون بلا لون .

وقال في صوت صارخ : « رمم المكان ونحن نهبط . . شيده بطريقة سليمة . . جوهانز كان صديقي ! كان صديقنا ! وقد مات الآن . . فشيد المكان ! » .

فصاح المدير وقد خطا ناحية اليسار : « غير المضربين يأتون إلى هذا الجانب ! » . فتحرك إلى اليسار كل من رجال الاندونا والبيض ، ولم يبق سوى بادى في المكان الذى كان يقف فيه .

وبذلك كان اجزوما وعمال المنجم يقفون يمينا ، وفى اليسار كان المدير والاندونا والآخرون من البيض ، بينما كان بادى فى الوسط .

ونادى المدير : « أوشيا ! » .

وبدا أن بادى لم يسمعه ، فصاح رجل أبيض :

- تعال يا بادى ! شيء لطيف جدا أن تلهو معهم أحيانا ، ولكن يجب أن نقود هؤلاء الكفيريين إلى المكان الذى ينتمون إليه . تعال يا بادى ! » .

وفكر بادى . . هذا ما كنت أحاج فيه دى . . وهذا اختبار لكل معتقداتى التى كنت أتشدق بها .

ولقد تولى زوما القيادة ويجب أن أشايعه . كان رأى دى فيه خاطئا ، فهو إنسان .

واستطاعوا أن يسمعوا عن بعد سارينات سيارات الشرطة . وسرعان ما سيكون رجال الشرطة فى المكان . ومشى بادى تجاه اجزوما وسلم عليه قائلا : « أنا إنسان يا زوما أولا » . ثم التفت إلى عمال المنجم الآخرين وصاح فيهم : « زوما محق ! إنهم يدفعون لكم القليل ! وهم لا يأبهون لو أنكم خاطرتم بحياتكم . فلم هذا ؟ . أليس دم الرجل الأسود أحمر اللون كدم الرجل الأبيض ؟ . أليس لدى الأسود إحساس أيضا ؟ . ألا يشعر الرجل الأسود بالحب أيضا ؟ . أنا معكم فليرمموا المكان أولا ! » .

وابتسم اجزوما . لقد فهم الآن . . فهم أشياء كثيرة . يمكن للواحد أن يكون إنسانا فى المقام الأول . إنسانا أولا ثم . . أسود أو أبيض بعد ذلك .

واندفعت إلى الفناء شاحنتان ، انطلق منهما رجال شرطة .

وصاح المدير : « ها هما ! هذان هما زعيما العصبة » .

وانضم رجال الاندونا إلى رجال الشرطة حين اندفعوا نحو الحشد يضربون يمينا ويسارا بهراواتهم . ورأى اجزوما شرطيا يضرب بادى على قفاه ، فى حين أمسك آخر بيديه يلويهما بعنف خلف ظهره . وفجأة اقترب منه شرطى فلم يعد قادرا على رؤية بادى بعد ذلك . شيء ما وخز كتفه الأيسر جعل ذراعه اليسرى تتهدل من الألم ، ثم تفادى ضربة كانت موجهة إلى رأسه وأمسك بيدى الشرطى . وبلى معصمه ، وانتزع منه الهراوة ، فهوى الشرطى ، ثم أحس بضربة على مؤخرة رأسه ، وسيل من دم دافيء يتدفق سائلا على قميصه .

وفجأة صفا تفكيره . . ينبغى أن يبتعد عن هنا ، وضرب شخصا أمامه يلبس خوذة ، وانتقل إلى مكان آخر . إنه الآن عند أطراف الحشد المتقاتل . . يستطيع أن يندفع هاربا ويبتعد بذلك عن المكان ، ثم جاءه صوت بادى : « لا تفر يازوما ! » .

لكن الأقدام كانت تركض بخطوات ثقيلة من خلفه ، ورغبته فى الخلاص كانت قوية ، ولهذا جرى . واقترب منه وقع الخطوات الثقيلة فأسرع فى جريه . وبعد فترة من الوقت لم يكن أحد يلاحقه ، لكنه ظل يجرى . وأحس وكأن رئتيه ستنفجران ، كما أحس بصداع مؤلم، وكان مازال قادرا على سماع بادى يصيح : « لاتفر يازوما ! ».

وكانت الشوارع من حوله خالية ، فكان وحده فى هذا العالم . وجرى خلال الشوارع الخالية ، خلال مالاى كامب ، مارا ببارك ستيشن . لقد كان يجرى وكأن شيطانا يدفعه . وفى عينيه اضطرمت دموع الإجهاد لكنه مازال غير قادر على التوقف . لقد أقترب الآن من مكان ميزى فخفف من سرعة خطوه . وحين بلغ بوابتها أخذ يسير ، ولكنه كان يسير بسرعة . لقد كان فى عجلة من أمره . وسار فى الممر الضيق ، ولم يكن أمامه سوى وقت قصير جدا . ودق بابها . . وبعد برهة قصيرة رأى ضوءاً ، ثم فتحت ميزى الباب ، وحين رأت وجهه اختفى النوم تمام من عينيها .

- اجزوما ! .

- أهلا ياميزى .

وجذبته داخل الغرفة وأغلقت الباب . وانتصبت الأم بلانك جالسة فى ركن الغرفة حيث كانت تنام على الأرض ، ولاحظ اجزوما أنها تبدو أشد كبرا . ودون أن تتفوه ميزى بكلمة واحدة أحضرت ماء وغسلت رأسه ، وقامت الأم بلانك بإعداد شاى على موقد بريموس صغير خاص بميزى . وحين انتهى اجزوما من احتساء الشاى روى لهما كل ما حدث .

وحين فرغ من حديثه سألته ميزى : « ماذا أنت فاعل ؟ » .

- الرجل الأحمر فى السجن ، ويجب أن أذهب أيضا هناك . إن لم أذهب إليه سأكون مخطئا ، ولن أكون حينئذ إنسانا .

فقالت الأم بلانك : « أنت مجنون ياأجزوما ، اذهب إلى مدينة أخرى إلى أن ينتهى الأمر . ولن ينالوك » .

- لا أيتها الأم بلانك . . يجب أن أذهب إليه ، فإن لم أفعل فلن تكون بى رغبة فى الحياة لما سأشعر به من اشمئزاز من نفسى . يجب أن أذهب ، فالرجل الأحمر هناك . إنه ليس رجلاً أسود ، ومع ذلك فإنه سيسجن من أجل أهلنا ، فكيف لا أذهب ؟ . وثمة أشياء كثيرة أود أن أخبرهم بها أيضا . أود أن أخبرهم كيف أحس ، وكيف يحس السود .

فقالت المرأة العجوز : « هم يدرون كيف نحس ، ولن يفعلوا شيئا » .

- ولكنهم لم يسمعونا ونحن نتحدث عن إحساسنا ، ومن الخير أن يحكى أسود للبيض كيف نحس . كما يجب أيضا أن يحكى أسود للسود كيف يحسون . وماذا يريدون . هذه الأمور يجب أن أقوم بها، لأننى حينذاك سوف،أشعر أنى إنسان ، أتفهمان ؟ . وهنا التفت إلى ميزى .

وربتت ميزى على يده وأومأت برأسها : « أفهم ياالجزوما » .

وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها « لقد كنت دوما طيبة معى ياميزى . وأنا الآن أدرك أنى أهواك وأريدك . لعلك ستنتظريني ، حين أعود سوف نهيئ لنا بيتا ، هيه ؟ .

- واليزا ؟ .

- مسكينة ، تعيسة ، تلك الفتاة. ولكن المسألة انتهت ، وأنت الإنسانة التى تلائمنى .

وابتسمت ميزى وسط دموعها « سأنتظرك ياالجزوما . . طال الوقت أو قصر . سأنتظرك . . سأنتظرك حتى تعود إلى ، ولسوف نقيم حينئذ بيتا ، يكون عامرا بكثير من الضحك مغمورا بكثير من السعادة ، ولا تخش من أنى سأرى آخرين ، فأنت الوحيد الذى أرومه ، ولسوف أنتظرك كل يوم وكل ليلة » .

- سأعود ، لأنك شخصية جميلة جديرة بأن يحيا الإنسان معك .

وتأبطت ميزى ذراع اجزوما ، وجلسا هكذا فترة من زمن .

وصبت الأم بلانك لنفسها قدحًا آخر من الشاي ثم اندست في بطاطينها مرة أخرى ، وعندئذ نهض اجزوما وقال :

- الآن يجب أن أمضى .

فقالت ميزى : « سأذهب معك حتى قسم الشرطة » .

فقال : « كلا » .

فقالت : « بل نعم » .

فقالت الأم بلانك : « دعها تذهب معك » .

- وهو كذلك .

فقالت المرأة العجوز : « وحين تحكى لهم يااجزوما ، احك بطريقة جيدة ، لأن دادى حينئذ سيكون بك فخورا » .

وقالت ميزى : « نعم ، احك لهم ، وسأكون هناك لأنصت إليك » .

وخرجا ومشيا هابطين الشارع الخالى . . .

***

أخذت أنوار مالاى كامب تضاء واحدا وراء الآخر ، وشيئا فشيئا راحت تضاء أنوار فريديدورب وأماكن جوهانسبرج الأخرى المظلمة ، وجنوب إفريقيا .

وكانت الشوارع خالية ، والبيوت المتمايلة المتهالكة هادئة . . فقط ، كان ثمة أطياف تتحرك فى كل مكان . وفقط ، كانت وشوشة الليل الهادئ تغطى سماء المدينة . . سماء فريديدورب . . وسماء مالاى كامب .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رءوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو ڤيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة

الولاية

تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)

الإسلام فى السودان

العربى فى الأدب الإسرائيلى

ضحايا التنمية

المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر

فن الرواية

ما بعد المعلومات

علم الجمالية وعلم اجتماع الفن

المهلة الأخيرة

عن الذباب والفئران والبشر

العولمة والتحرير

علم اجتماع العلوم

قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان

شتاء ٨٤

الشعر والشاعرية

ديوان شمس

مصر أرض الوادى

الدراقيل أو الجيل الجديد

سحر مصر

الهيولية تصنع علماً جديداً

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٩-١١ / ٢٠٠٠

المجلس الأعلى للثقافة

Mine Boy

PETER ABRAHAMS

الأدب الإفريقى أدب ثرى ، لا يقل ثراء - إن لم يزد - عن الأدب الغربى ، ففضلاً عن رسمه صوراً للمعاناة التى لقيها السود على يد المستعمر ، هناك صور لمعاناته من الحكم المطلق الذى قبض على زمام الأمور عقب جلاء المستعمر ، والذى كان يتم بتخطيط منه لأغراض سياسية .

وتعد هذه الرواية واحدة من أولى الأعمال التى لفتت الانتباه إلى نوع الحياة التى يحياها أبناء جنوب إفريقيا السود تحت سيطرة الحكم العنصرى ؛ فهى تعرض لنا عناء المواطن الأسود ؛ فمثلاً فى بطلها الريفى الذى نزح إلى المدينة بعد أن ضاقت به سبل الحياة فى قريته ، ليعمل فى المناجم ، والعمل فى المناجم قاسٍ ومرير ولا إنسانى ؛ حيث إن العمال السود هم دون مستوى البشر .

كما أن الرواية تصور ، من بين ما تصور ، تطلعات السود للحصول على وسائل حياة البيض ، وتشبثهم باتّباع نمط معيشتهم ، وما يؤديه العجز عن تحقيق هذا من تمزق وتدمير نفسى ، وصور التمييز والتفرقة هنا متعددة ، وكلها صور مقززة تشمئز منها النفس ، وتثير فيها السخط .